محمد أحمد الراشد

فكر متجدد ورؤية تربوية على صفحات المجتمع

الجزء الأول



محمد أحمد الراشد

فكر متجدد ورؤية تربوية
على صفحات «المجتمع»

الجزء الأول

كل الحقوق محفوظة

المجتمع

الكويت ص.ب (٤٨٥٠) الصفاة - الرمز البريد (١٣٠٤٩)
الموقع الإلكتروني: www.mugtama.com
البريد الإلكتروني: info@mugtama.com
تليفون: ٢٢٥١٤١٨٠ ٩٦٥ + - ٢٢٥١٩٥٣٩ ٩٦٥+

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة، أو أى وسيلة نشر أخرى، أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

محمد أحمد الراشد

فكر متجدد ورؤية تربوية
على صفحات «المجتمع»

الجزء الأول

مجلة المجتمع


بسم الله الرحمن الرحیم



إهداء

إلى روح فضيلة الأستاذ. عبدالمنعم صالح العلي العزي «محمد أحمد الراشد»، ي ﷺ تعالى.

إلى كل أبناء الحركة الإسلامية في العالم العربي والإسلامي.

إلى كل طلاب العلم في أنحاء العالم العربي والإسلامي.

إلى كل من التزم الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

إلى مسلمي العالم في القارات السبع.

مجلة «المجتمع»

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين؛ محمد بن عبدالله، الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد..

لقد أعلى الله تعالى من شأن العلم والعلماء، فقال تعالى:﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المُجَادلَة:١١] ، وقال تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأَنْعَام:٨٣]، وقال تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البَقَرَة:٢٦٩]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزُّمَر:٩].

وكذلك أعلت السُّنة النبوية من شأن العلم والعلماء؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة» (رواه مسلم)، وعن أبي أمامة ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «فضلُ العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير» (رواه الترمذي)، وعن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن سلك طريقاً يبتغي فيه علماً؛ سهَّل الله

له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالِم ليستغفرُ له مَن في السماوات ومَن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالِم على العابد كفضلِ القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورَّثوا العلم، فمَن أخذه أخذ بحظ وافر» (رواه أبوداود، والترمذي).

وشاء الله تعالى ألا يقبض العلم انتزاعاً، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء؛ فعن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» (متفق عليه).

ونحن نودع كل يوم عالماً من علماء الأمة، وكان آخر هؤلاء العلماء فضيلة الأستاذ عبدالمنعم صالح العلي العزي، المعروف باسم محمد أحمد الراشد، ي ﷺ تعالى، الذي غادر دنيانا الفانية، بأحد مستشفيات كوالالمبور بماليزيا، صباح يوم الثلاثاء ٢٣ صفر ١٤٤٦هـ/ ٢٧ أغسطس ٢٠٢٤م، عن ستة وثمانين عاماً، قضاها في الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي خدمة الفكر الإسلامي؛ كتابة وتنظيراً، وكذلك في تربية الأجيال المؤمنة.

ويُعَد الراشد من كبار منظري الحركة الإسلامية، وله كتب كثيرة تجمع بين الجانب الدعوي الحركي والعلمي والروحي والأدبي، مع العناية بالأخلاق الإسلامية وقيمها، وتُرجم كثير منها إلى اللغات الأجنبية.

وله منهجية فكرية خاصة في مجال التربية العلاجية، تظهر في كتبه عند التعامل

مع القضايا الدعوية التربوية ووضع العلاج لها.

ولقد كان هذا العالم الجليل من العاملين في مجلة «المجتمع»، ومن كُتَّابها، وحرصاً منها على توثيق جهوده، أصدرت هذا الكتاب الذي يجمع مقالاته التي أنار بها المجلة وجهده المبارك في الدعوة إلى الله تعالى.

والله من وراء القصد.

مجلة «المجتمع»

ذر غير الله[1]

اندفعت الصفوة المؤمنة من أصحاب رسول الله ﷺ بعد موته لإتمام مهمته في نشر الدين بأروع الاندفاع، وانتشروا من المدينة كما ينتشر الشعاع من الشمس، يفتحون البلاد، ويحطمون الطواغيت، ويقودون الناس إلى الجنة.

وما لبثت الفتوح والإدارة حتى بدأت تستهلك تدريجياً تلك الصفوة المندفعة، وما إن أتت السنوات الأخيرة من القرن الأول حتى كان نوع بطر قد سرى إلى الجيل الجديد الذي خلف أولئك الأفذاذ، فلانت له نفوس، وضعفت عزائم وهمم كان أولى لها أن تواصل تحطيم بقية الطواغيت، ويهيئ الله تعالى للأمة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، بما حباه من روح عالية، فيرى في مجرد ذاك القليل من البطر والقعود دلالة انحراف عن الحق، ويستكبر أن تكون أمة الجهاد قد خف اندفاعها، فيقول حزيناً: «إني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره»[2].

كلمة قالها رحمه الله وهو يستلم قيادة أمة تسود الأمم، وتفيض بمعاني الخير، وتحكم نفسها عموماً بشرع الله، فما الذي حمله على كل هذا الحزن العميق الواضح في هذه الكلمات؟ إنه استكبار واستعظام المؤمن لصغار المعاصي، وقليل البدع، وهين الظلم، وأوليات الترف، وليس مثل نفس المؤمن في حساسيتها البالغة إزاء معاني العدل والظلم، والاتباع والابتداع، والبذل والدعة؛ ولذلك تجده لا يَبْتَأ في طلب

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٠٢)، ١٧ ربيع الآخر ١٩٣٢هـ/ ٣٠ مايو ١٩٧٢م، ص ٢٦-٢٧.
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص ٣٧.

الأفضل والأكمل، غير مستعد لأن يُغْضي بصره أو يكف لسانه عن ميل وانحراف.

وتمضي من بعد عمر قرون وأجيال، ينصر الإسلام في حقب منها أبطال من القادة والمصلحين، وتسود الغفلة حقباً أخرى، لنرى الأمة في يومها هذا وقد أنهكتها خطط اليهود ودول الكفر وسلبتها خيرها، بما أضعفته من إيمانها، وبدلته من موازينها وبما أقصته من حكم قرآنها، وما فرضته وربت عليه ذراري المسلمين من تصورات الجاهلية التي تكسبها مختلف الأسماء وتلبسها متعدد الثياب.

ويقف الداعية المسلم إلى اليوم كموقف عمر ذاك، فيحس بأنه قد وجب عليه أن يسعى لانتشال الأمة من تيهها الذي تهيم فيه، فيدرك أن لا مناص من التقدم للاحتفاظ بقيادتها وإن أبت، ومع ما يكلفه الأمر من التعب والنصب.

ثم يقف آخر، فيجد أن الأمر، كما قال عمر ﷺ، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وهاجر عليه العربي، بل أنكى من ذلك، فإن من فتنة عصر المدنية الإلحادية الزائف هذا أن «صيده يخال نفسه حراً، وقتيله يسمي نفسه حياً»، كما يقول إقبال[1].

فهي ليست مسألة تسلط أئمة الضلال فحسب، وإنما مسألة ما رافق ذلك من تربية سخرت المناهج الدراسية والجامعات والصحف والإذاعات لمسخ الأفكار والقيم والأخلاق، بل وحتى موازين المصالح المادية أيضاً، حتى غدا صيد المادية في فرح وسرور، يحسب نفسه في انعتاق من أسر العقيدة.

فإن كان في قلب المرء بقية من إيمان، وإثارة من غيرة، يأبى معها التنصل من دينه، صرعوه بالتزوير، وخدعوه بالتمويه، ويجعلونه أسير ساسة وأدباء ومستشرقين مصطنعين، قد أنفذتهم الدعاية إلى قلبه فشغفهم حباً، فيصفون له الشيء بعد الشيء من أمر الجاهلية على أنه من الإسلام، فينخدع، ويعتقده.

(١) كتاب «محمد إقبال» العزام، ص ١١٠.

ولا ريب أن السواد الأعظم من الذين أسرتهم الجاهلية ومفاهيمها وتصوراتها هم هذا الصنف الثاني الذي انخدع عن غير ما قصد كيد، ولا إرادة سوء، وهم أهل لأن يتحملوا جهداً كبيراً في عملية إرجاع الأمة إلى إسلامها، والسير مع العاملين للإسلام، إذا انجلى لهم أمر الذي هم فيه من الانخداع..

والصورة التي تبدأ منها هذه التجلية هي التعرف على نظرة الإسلام إلى ما ينافيه ويضاده في البناء الحضاري للمجتمع، وما طرأ عليه من انحراف.

ويجمع ذلك أنَّ على المسلم أن يزن ما في العالم الإسلامي يوماً من الأنظمة والمناهج والآداب والأفكار بالإسلام، ويفرق بين ما فيها مما يوافق الإسلام، وما فيها مما يخالف الإسلام، فما وجد من نظام أو منهج ممزوج يخلط بين الإسلام وغيره مما حرم الله نبذه وتبرأ منه، ونبذ أصحابه وتبرأ منهم.

إن «جماع الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، وطريق السعادة والنجاة، وطريق الشقاوة والهلاك: أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل».

وفي دعاء القنوت: «نخلع ونترك من يفجرك».

ومساهمة المسلم اليوم في التمسك بالوحي، واستعماله ميزاناً يزن به المناهج الأرضية، هي الطريق الوحيد لإزالة الفساد والاضطراب الذي عمَّ البلاد الإسلامية كلها، «إذ ليس هناك من فساد أعظم من وجود دعاة إلى غير طريق الله»، فإن فيها فقهاً عظيماً يوجب على المسلم أن يذر بالكلية غير الله، إذ «رأس الإيمان هو التوحيد، وهو: ألا يعبد الإنسان إلا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه، فهو موحد بلسانه

لا بالحقيقة بل معنى قولك: «لا إله إلا الله» معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام:٩١]، «وهو أن تذر بالكلية غير الله»، كما يقول الغزالي رحمه الله.

إنه تفسير واحد لا ثاني له: أن «تذر بالكلية غير الله»، أي لا مجال لأن تخلط مع منهج الله القليل من الهوى والرأي، وإنما هو ترك كلي شامل لغير الله.

وهذا هو المأثور عن جميع علماء الإسلام، ليس عندهم إلا حق واحد، وهو الوحي، وما عداه فهو الهوى المذموم الذي لا يمدح شيء منه ولا يلتحق بالحق، ولا يجوز للمسلم أن يحتكم إليه أو يطمئن إليه قلبه.

قال الإمام الشاطبي: «قد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق وعده قسيماً له، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص:٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]، وقال في قسيمه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ [النازعات:٤٠-٤١]، وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم:٣-٤].

فقد حصر الأمر في شيئين؛ الوحي وهو الشريعة، والهوى، فلا ثالث لهما، وإذا كان كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده، فاتباع الهوى مضاد للحق.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية:٢٣] وقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١]، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾ [محمد:١٦]، وقال:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [مُحَمَّد:١٤].

وتأمل! فكل موضع ذكر الله تعالى فيه الهوى فإنما جاء به في معرض الذم له ولمتبعيه، وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس أنه قال: ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمه، فهذا كله واضح في أن قصد الشارع: الخروج عن اتباع الهوى.

ويزيد ذلك وضوحاً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجَاثِيَة:١٨]، فأما شريعة الله، وأما أهواء الذين لا يعلمون، وليس هنالك من فرض ثالث، ولا طريق وسطاً بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة، وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء، فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون!

إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل.

وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، وبدع الأهواء كلها، وعليه ألا ينجرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [البَقَرَة:٢٠٨].

إنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان؛ إما الدخول في السلم كافة، وإما اتباع خطوات الشيطان.. إما هدى، وإما ضلال.. إما إسلام، وإما جاهلية.. إما طريق الله، وإما طريق الشيطان.. إما هدى الله، وإما غواية الشيطان.. ويمثل هذا الحسم أن يدرك المسلم موقفه، فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات.

ليس هناك حل وسط، ولا منهج بين وبين، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك! إنما هناك حق وباطل.. هدى وضلال.. إسلام وجاهلية.. منهج الله أو غواية الشيطان.

نعم، هذا التحكيم للهوى، وهذا الاتباع لطريق الشيطان، هو الجاهلية؛ إذ ليست الجاهلية صورة معينة محدودة كما يتصورها الطيبون الذين يرون أنها فترة تاريخية مضت إلى غير رجوع، إنما هي جوهر معين، يمكن أن يتخذ صوراً شتى، بحسب البيئة والظروف والزمان والمكان، فتتشابه كلها في أنها جاهلية، وإن اختلفت مظاهرها كل الاختلاف، وإنها طابع روحي وعقلي معين، طابع يبرز بمجرد أن تسقط القيم الأساسية للحياة البشرية، كما أرادها الله، وتحل محلها قيم مصطنعة تستند إلى الشهوات الطارئة».

وواضح أن هذا الوصف يصدق على الأوضاع والنظم والمناهج التربوية والاجتماعية التي توجه البلاد الإسلامية اليوم وتسيرها، وأما من كان من أبناء المسلمين وقد غلبه الجهل والضعف، وأسرته الشهوة والغفلة، فنشأ على المعاصي ودرج عليها، مع اعتقاده حرمة ما يرتكبه، وتوقيره للدين، فهو من المسلمين العصاة الذين لم يخرجوا عن دائرة الإسلام.

قال البخاري: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، لقول النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

واستشهاده بهذا القول النبوي الشريف واضح الصواب والمخاطَب به أبو ذر رضي الله عنه.

والداعي إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى الله؛ مُفسد، فإن عبادة غير الله، والدعوة إلى غيره، والشرك به، أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله ومخالفة أمره.

وبالجملة؛ فالشرك، والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله ﷺ، وكل

ما خرج وراء دائرة الوحي فإنه الهوى، وحيثما كان الهوى كان الاضطراب والفساد.

وقد حذر المحدث الثقة ميمون بن مهران أن يخدعنا بريق الأسماء المغايرة، ونطق بكلمة جامعة في هذا الشأن، فقال: «إياكم وكل هوى يسمى بغير الإسلام»؛ فجعل كل ما غير الإسلام هوى من الأهواء، مهما تعدد شكل هذا الغير، وأياً كان الزمن الذي يظهر فيه.

وإن رد شيئاً من كلام رسول الله ﷺ وجحده وإنكاره والعمل بخلافه؛ إنما هو وقوع في الزيغ والتهلكة، كما ذكر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، إذ روى الفضل بن زياد عنه أنه قال: نظرت في المصحف، فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ) (النور: ٦٣)، وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة؟ الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ، فيزيغ قلبه فيهلكه، وجعل يتلو هذه الآية: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) (النساء: ٦٥).

بل المفروض في المسلم أن يكون له تنبه إلى هذا المعنى بمجرد نطقه بكلمة «لا إله إلا الله»، فوصفه بأنه فيه جاهلية مع أنه كان من أجلّ الصحابة لما حصل منه من تعيير بلال بأنه ابن السوداء، فالمعصية الواحدة هي شعبة من الجاهلية، وكلما زادت معاصي المسلم؛ زادت نسبة ما فيه من الجاهلية، ولكن لا ينتقل إلى الجاهلية كلية إلا بالشرك أو اعتقاد حِل ما حرَّم الله، وإنكار قطعي من الدين، كوجوب الصلاة، وحرمة الربا، أو الاستهزاء بالإسلام والقرآن، أو سب الله ورسوله، وقد اتفق المسلمون على أن الكفر والجاهلية درجات.

قال ابن تيمية: «قال غير واحد من السلف: كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك».

وشدد النبي ﷺ في ذلك فقال: «أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه».

وفي الأصول العشرين: «لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاها وأدى الفرائض، برأي أو بمعصية، إلا إن أقر بكلمة الكفر أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة أو كذب صريح القرآن أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر».

الظبي الجفول[1]

كان الناس أمة واحدة، يحكمهم القرآن.

ثم انتهى الأمر إلى ما نرى من تحكيم الهوى، والتفرق، والفساد.

فكيف تم هذا التحول، والهبوط من مستوى قيادة الأمم الأخرى إلى هذا المستوى الواطئ؟ وكيف افتقد أبناء المسلمين تلك الحساسية البالغة إزاء معاني العدل والظلم، والاتباع والابتداع، حتى ركبتهم الشهوة والغفلة؟

نعم، لم يكفر المغفلون كما قررنا، ولكن كيف نزلوا إلى الدون، وتركوا منزل العز، ورضوا بالاستكانة، وأخلدوا إلى الأرض إخلادهم الذي نراهم فيه؟

يكمن الجواب في أنهم ضحية تربية!

فالكافر المستعمر استعمل المؤسسات السياسية والاجتماعية التي نصبها في العالم الإسلامي، ومن انتسب إليه من أدعياء الفكر والأدب والفن، لإفساد ذراريّ المسلمين، ومن ثم يضمن للطواغيت التي ترأس هذه المؤسسات سيطرتها وهيمنتها، فلما فسدوا ثنوا بالتجويع، ليذلوا.

وإنها خطة قديمة، يأخذها الطاغوت اللاحق عن الطاغوت السابق، حتى تصل أصولها إلى فرعون، وذلك كما يقول الله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزُّخرُف:٥٤].

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٠٣)، ٢٤ ربيع الآخر ١٣٩٢هـ/ ٦ يونيو ١٧٩٢م، ص٢٦-٢٧.

فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ، وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله، فالمؤمن بالله لا يستخفه الطاغوت، ولا يمكن أن يطيع له أمراً»[١].

وهكذا أدركوا المقتل الذي عرفه فرعون؛ فتواصوا بالإفساد، وأخذوا «يحولون المجتمعات إلى فتات غارق في وحل الجنس والفاحشة والفجور، مشغول بلقمة العيش لا يجدها إلا بالكد والعسر والجهد، كي لا يفيق، بعد اللقمة والجنس، ليستمع إلى هدى أو يفيء إلى دين»[٢].

وصارت تلك سياستهم؛ «سياسة محاربة المساجد بالمراقص، ومحاربة الزوجات بالمومسات، ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر، ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة»[٣].

«وهكذا تحول بهذه التربية ذلك الصقر الإسلامي إلى مثل طائر الحجل في وداعته كما يقال إقبال.

إنه الأدب والترويض الذي استعمله أئمة الضلالة.

أدب، تعرفه في أنه:

يسلب السرو جميل الميل ... ويرد الصقر مثل الحجل

يسحر الركبان باللحن المبين ... ولقاع البحر يهوي بالسفين

نومت ألحانه يقظتنا ... أطفأت أنفاسه وقدتنا[٤]

(١) الظلال (٤٥/ ٩).

(٢) الظلال (١٢٢/ ٩).

(٣) وحي القلم للرافعي (٢٥٨/ ٢).

(٤) كتاب «محمد إقبال» لعزام، ص١٦٢.

وأشرب الناس الذل.. إن «الإنسان بفطرته نفور من الذل، آب على الحيف، ولكن تحيط بالناس أحوال، وتتوالى عليهم حادثات، فيراضون على الخضوع حيناً بعد حين، ويسكنون إلى الخنوع حالاً بعد حال، حتى يدربوا عليه، كما يستأنس السبع، ويؤلف الوحش، ولكن يبقى في النفس ذرات من الكرامة، وفي الدماء شذرات من الجمر، فإذا دعا الداعي إلى العزة، وأذن بالحرية، وأيقظ الوجدان النائم، وحرك الشعور الهاجد: نبضت الكرامة في النفس، وبصت الجمرة في الرماد، وأفاقت في الإنسان إنسانيته، فأبى وجاهد، ورأى كل ما يلقى أهون من العبودية، وأحسن من هذه البهيمية.

كل ذلك يصيب الإنسان من غيره، ويناله من ظاهره: قريب شفاؤه، ويسير إزالته.

فإذا تبع الذل من النفس، وانبثق من القلب فهو الداء الدوي، والموت الخفي.

ولذلك عمد الطغاة المستعبدون إلى أن يشربوا الناس الذل؛ بالتعليم الذليل والتأديب المهين، وتنشئة الناشئة عليه بوسائل شتى، ليميتوا الهمة، ويخمدوا الحمية، وإذا بيدهم العصا والزمام»[1].

وكان من تمام ما يلزمه هذا الترويض أن يضيقوا على دعاة الإسلام؛ ليستبد بالتوجيه التربوي والإذاعي والصحفي أدعياء العلم والشعر والحكمة، الذين موهوا أمرهم بأسماء منظمات تبدو في ظاهرها مختلفة، وطفقوا يزينون للجيل الجديد سليل المجاهدين وشبل الأسود أن يكون رقيقاً للشهوات والجنس والعيش الرغيد، وبدؤوا يمحون تراث الأمة الذي نهضت به، ويطمسون قصص العلماء، حذراً من أن تكون نبراساً للجيل يستدل بها على طريق العمل.

(١) الشوارد لعبدالوهاب عزام، ص٣١٨.

فذلك قول شاعر الإسلام إقبال ﷺ:

ليس يخلـــو زمان شـــعب ذليل من عليـــم وشـــاعر وحكيم!

فرقتهـــم مذاهب القـــول لكن جمع الآراء مقصد فـــي الصميم:

علموا الليث جفلـــة الظبي وامحوا قصص الأســـد في الحديث القديم

همهـــم غبطـــة الرقيـــق برق كل تأويلهـــم خـــداع عليم[1]

وقد كان.. هذا هو عنوان خطة الكيد اليهودي والصليبي.

إنه تعليم الليث الإسلامي جفلة الظبي، ومحو قصص أسد الإسلام من العلماء والزهاد والمجاهدين من تاريخ القرون الفاضلة الأولى لهذه الأمة المجاهدة.

وأنتجت خطط التربية ذاك الظبي الجفول الذي لم يعد يقتحم، واستبدل العزم بالتلفت، والمسارعة إلى الهرب، إنهم هذا الجيل تحول من أبناء المسلمين، شبل أسد تحول إلى ظبي وديع، وحر استرقوه ففرح.

ومرت الخطة، حتى إن ما نلحظه اليوم لدى بعض المخلصين من ميل إلى العزلة والخوف من التعاون مع بقية المسلمين ليس إلا من آثار هذه التربية، ودليل على نفادها، وليس ذلك بمستغرب، فإنها إذ نجحت في إبعاد الكثيرين عن الإسلام، فمن باب أقرب أن تبعدهم عن بعض الإسلام، وتقنعهم بترديد الكلام، والاعتزال، والتماس الحذر من عمل يعرض للمتاعب.

وعندئذ بدأت المرحلة الثانية بعد أن أمنوا، وصارت عملية التحول السريع إلى الجاهلية.

(١) ديوان ضرب الكليم لإقبال، ص ١٠٢.

ويرفض الداعية المسلم أن ينصاع، ويستعلي أن تمر خطة الكيد، ويقف يؤذن في الناس.. ولكن أكثر الناس نيام.

ويرى جلد أصحاب الباطل وأهل الريبة وتفانيهم لإمرار خطتهم، فإذا التفت رأى الأمين المسلم سادراً غافلاً، إلا الذين رحمهم ربهم، وقليل ما هم.

ويعود ليفرغ حزنه، في خطاب مع نفسه:

تبلد فـــي الناس حـــس الكفاح ومالوا لكســـب وعيـــش رتيب

يـــكاد يزعـــزع مـــن همتي ســـدور الأمين، وعزم المريب[1]

ويتهم نفسه أنه لم يكن بليغاً في ندائه، ولكن سرعان ما يحس أنه قد حاز البلاغة من أقطارها، فيعود يسلي نفسه ويجمل عزاءه.

ومن حر شـــدوي يرى في الخريف طروبـــاً بصحبتـــي العندليب

ولكـــن خلقـــت بأرض بهـــا نفـــوس العبيد بـــرق تطيب[2]

لقد تبدلت موازين البلاغة، وافتقد الجيل الأعمال الكبيرة التي يتمجد بها، فصار كما يقول الرافعي: «تخترع له الألفاظ الكبيرة ليتلهى بها»[3].

فماذا يفعل الداعية؟ أيترك المحاولة؟ أم يؤجل إلى حين؟

كلا.

ليس من ترك، فإنه ليس في منهجه شيء من زيف ولا نقص، وآية كما له هؤلاء الشباب الأحرار الذين يتغنون بالقرآن في عصر المادة والشهوات، والقليل يؤدي إلى

(١) مع الله للأميري، ص١١٠.
(٢) ضرب الكليم، ص١٤.
(٣) وحي القلم (١٠٣/ ١).

الكثير، والصبر مفتاح ما انغلق.

وليس من تأجيل، فإن مرور الزمن ليس من صالحه، وإن الطغيان كلما طال أمده؛ تأصلت في نفوس المتميعين معاني الاستخذاء، ولا بد من مبادرة تنتشل، ما دام في الذين جرفهم التيار بقية عرق ينبض، وبذرة فطرة كامنة.

إنه «ليس أشد إفساداً للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، الذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد:

استخذاء تحت سوط الجلاد.

وتمرداً حين يرفع عنها السوط.

وتبصراً حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة»[1].

وإذن، فليس من المصلحة الانتظار.

ففكر في طريق لضم جدد إلى قافلة الأحرار.

أهمية.. المراقبة والمحاسبة:

إن من أهم العوامل التي تساعدنا على تربية أنفسنا تربية إسلامية؛ مراقبة الله عز وجل في أعمالنا، ومحاسبة أنفسنا على تعاليم الإسلام.

ومن أحوج منا نحن المسلمين على القيام بمثل هذه التربية، خاصة وأننا نتصدى لحمل رسالة سماوية أزلية.

إننا نعلم ولا شك أن الله تعالى معنا أينما كنا؛ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ [المُجَادلَة:٧] .

(١) الظلال (٩٠/ ١).

ويعلم المسلمون أيضاً أن الله عز وجل ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبْرَاهِيم:٣٨]، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غَافِر:١٩]؛ لذا فلا بد لنا الانتقال من العلم بهذه المعرفة إلى الشعور بها شعوراً داخلياً وإيماناً نفسانياً يوقظ فينا الهمم والمشاعر والأحاسيس.

نحن نريد أن نشعر كل خلية من خلايا أجسامنا أننا مراقبون من الله عز وجل في حلنا وترحالنا، وفي كل حركاتنا وسكناتنا، فإن وصلنا إلى هذا النوع من الشعور بهذه المعرفة بأن الله معنا ومراقبنا؛ توصلنا إلى أسمى مراتب العبادة؛ ألا وهي الإحسان؛ «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وحتى نبقى على صلة بمراقبة الله عز وجل، لا بد لنا من محاسبة أنفسنا يومياً عند النوم قبل أن نحاسب، وأن نزن أعمالنا قبل أن توزن يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فالرسول ﷺ كان يحاسب نفسه يومياً ويدعو بأدعية مأثورة، ومن أحوج منا نحن المسلمين إلى حفظها والعمل بها وتلاوتها قبل المنام! قال الترمذي: «اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك»، وقد قال أحد التابعين: رأيت غلاماً في البرية وهو قائم يتعبد وليس معه أحد، فسلمت عليه وقلت له: يا فتى، أنت في مكان منقطع بلا معين ولا رفيق، فقال: بلى، وعزته معي المعين والرفيق، فقلت له: أين المعين والرفيق؟ فقال: هو فوقي بقدرته، ومعي بعلمه وحكمته، وبين يدي بهدايته، وعن يميني وعن شمالي بعظمته.

هذا، وقد قال الفضيل: يا مسكين، تغلق بابك وترخي سترك وتستحي من الناس، ولا تستحي من الملكين اللذين معك، ولا تستحي من القرآن الذي في صدرك، ولا تستحي من الجليل سبحانه وهو لا تخفى عليه خافية!

وسئل حاتم: فيم أفنيت عمرك؟ قال: في أربعة أشياء؛ علمت أني لا أخلو من نظر الله تعالى طرفة عين فاستحييت أن أغضبه، وعلمت أن لي رزقاً لا يجاوزني وقد ضمنه الله لي فوثقت به، وعلمت أن عليَّ فرضاً لا يؤديه غيري فاشتغلت به، وعلمت أن لي أجلاً يبادرني فبادرته.

هذا المبدأ من التربية النفسية ضروري جداً لتربية المسلم، والدعوة الإسلامية بحاجة إلى دعاة جعلوا من مراقبتهم لله عز وجل أساساً لإصلاح أنفسهم وتقربهم إلى الله.

كذلك، فإن دعوة الإسلام بحاجة إلى دعاة جعلوا من محاسبة أنفسهم درساً بليغاً في حياتهم الخاصة والعامة.

نسأل الله تعالى الهداية والرشاد، ونسأله جل وعلا أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

كسوف.. لا غروب[1]

رغم الفساد، فإن الداعية المسلم لن يتخلى عن محاولة انتشال العباد، وإن كل وساوس اليأس من الإصلاح لن تلبث أن تتبدد أمام لحظة انتباه إيماني، تريه مكانته المتوسطة لموكب الإيمان السائر، أخذاً عن السلف، ولا بد أن يسوق له قدر الله خلفاً يستلم الأمانة منه.

ذلك وعد الله، وإنه لموكب لن ينقطع أبداً، مضى به القول على لسان النبي ﷺ حين قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[2].

بل إن وجود العصبة المسلمة في الأرض، الكاملة الدينونة لله، التي لم تتلوث بانحراف عن نهجه، ولا توانٍ عن قصده، هي من سنن الله الكونية التي كمل بها الله سبحانه ميزان ما خلق، ولو افتقدت هذه العصبة لثقل الميزان في جانب، وخف في جانب، واضطرب الكون كله.

لذلك، كان وجود الدعوة الربانية في هذه الأرض حتماً مقضياً، لن تزول لرغبة طاغية أو اضطهاد من زبانية.

أرأيت لو زالت الشمس من هذا الكون، أو زالت الجاذبية، كم يكون الاضطراب؟

فكذلك وجود دعوة الحق، فإنها والشمس والقمر والجاذبية والماء والهواء، من سنن الكون التي يتحتم وجودها، وإلا فتقوم ساعة القيامة، لكنها سُنة لن يراها إلا

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٠٣)، ٢ جمادى الأولى ١٣٩٢هـ/ ١٣ يونيو ١٩٧٢م، ص ٢٤-٢٥.
(٢) صحيح مسلم (٦/ ٥٢).

صاحب قلب سليم، كما لا يرى الجاذبية إلا صاحب درس عليم.

وهذا مصدر إصرار المسلم على المضي في الطريق، يتعرض لقدر الخير هذا من أقدار الله، يرجو أن يتجلى فيه، فيكون من الفائزين، وأما من أعرض فإن السُّنة ماضية لن تقف لإعراضه، ويهدي الله لتجلية قدره وسُنته قوماً آخرين.

وقد أجمل الهضيبي هذا المعنى فقال: «إن أحداث الزمان يجب أن تخضع لكتاب الله وسُنة رسوله، مهما تراءى للناس أن الدنيا لا تحتمل هذا الإخضاع، فالدين هو السُّنة التي وضعها الله للناس، كما وضع السنن الكونية الأخرى للشمس والقمر والحيوان والنبات، وكل ما في السماء وما في الأرض وما عليها»[1].

إنه يقول: كما أن للشمس ثباتاً وجاذبية، وللأرض مداراً ودوراناً، فإن للبشر هذا الدين، إن فقده اختل ميزانه، والناظر يرى أبعد من ذلك، ويبصر أن للكون هندسة بديعة، هذا الدين جزءٌ منها، فلا بد أن تمثله جماعة في كل وقت.

وأدرك عبدالوهاب عزام ﷺ هذه السُّنة الكونية أيضاً، سُنة من لا يبتئس لصولة الباطل، ولا يرده تساقط الشهداء، وغثاء المتخلفين، فقال:

سـنن الله في الخلائق تمضي لا تني ساعة وليست تحول

وخلال الأحرار منها، فليست عن جهاد في الحق يوماً تزول[2]

وبإدراك عزام لهذه الحقيقة، تبين فقهه ووعيه ﷺ.

إن إسلامنا نبأ عظيم، وهو من مكملات الناموس الكوني الذي يختل بدونه، فلا بد إذن أن يوجد في الواقع، وتمحى الجاهلية ليتم الناموس من غير اضطراب؛ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص:٦٧-٦٨].

(١) مجلة الدعوة، العدد (٥٢).

(٢) ديوان المثاني لعزام (١٣٣).

وإنه لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب، إنه أمر من أمور الله في هذا الوجود كله، وشأن من شؤون هذا الكون بكامله، إنه قدر من قدر الله في نظام هذا الوجود، ليس منفصلاً ولا بعيداً عن شأن السماوات والأرض، وشأن الماضي السحيق والمستقبل البعيد.

ولقد جاء هذا النبأ العظيم، ليتجاوز قريشاً في مكة، والعرب في الجزيرة، والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض، ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان، ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها، ويكيف مصائرها منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد نزل في أوانه المقدر له في نظام هذا الكون كله، ليؤدي دوره هذا في الوقت الذي قدره الله له.

ولقد حول خط سير البشرية إلى الطريق الذي خطته يد القدر بهذا النبأ العظيم، سواء في ذلك من آمن به ومن صد عنه، ومن جاهد معه ومن قاومه، في جيله وفي الأجيال التي تلته، ولم يمر بالبشرية في تاريخها كله حادث أو نبأ، ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبأ العظيم.

ولقد أنشأ من القيم والتصورات، وأرسى من القواعد والنظم في هذه الأرض كلها، وفي أجيال البشرية جميعها، ما لم يكن العرب يتصورونه ولو في الخيال.

وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغيّر وجه الأرض، ويوجّه سير التاريخ، ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة، ويؤثر في ضمير هذه البشرية وفي واقعها، ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله، وبالحق الكامن في خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأنه ماضٍ كذلك إلى يوم القيامة، ويؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة.

والمسلمون اليوم يقفون من هذا النبأ، كما وقف منه العرب أول الأمر، لا يدركون طبيعته وارتباطها بطبيعة الوجود، ولا يتدبرون الحق الكامن فيه، ليعلموا أنه طرفٌ من الحق الكامن في بناء الوجود، ولا يستعرضون آثاره في تاريخ البشرية وفي خط سيرها الطويل استعراضاً واقعياً، يعتمدون فيه على نظرة مستقلة غير مستمدة، من أعداء هذا النبأ، الذين يهمهم دائماً أن يصغروا من شأنه في تكييف حياة البشر، وفي تحديد خط التاريخ، ومن ثم فإن المسلمين لا يدركون حقيقة دورهم سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وإنه دور ماضٍ في هذه الأرض إلى آخر الزمان[1].

ولكن إن لم يدركه ضحايا خطط الترويض من الظبيان الجفولة، وأسراب الحجل الوديع، فإن ليوثاً من دعاة الإسلام قد أدركوه، وها نحن نسمع نشيدهم المتعالي في سيرهم الميمون:

نحن وراث هداة للبشر نحن عند الحق سر مدخر

لا تزال الشمس تبدي نورنا غيمنا فيه بروق وسنا

ذاتنا المرآة للحق، اعلم آية الحق وجود المسلم[2]

وكذلك الفقه والوعي حين يكون آية الحق وجود المسلم.

ووجود المسلم حتمية من حتميات التاريخ الماضي والحاضر، وإنها لحتمية ماضية إلى يوم القيامة.

والحق هو قوام هذا الوجود، فإذا حاد عنه فسد وهلك؛ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المُؤْمِنُون:٧١].

(١) الظلال (٢٣/ ١٠٧).

(٢) ديوان الأسرار والرموز لإقبال، ص٦٧.

ومن ثم فلا بد للحق أن يظهر، ولا بد للباطل أن يزهق، ومهما تكن الظواهر غير هذا، فإن مصيرها إلى تكشف صريح؛ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨] (١).

ولئن رأى الجيل الحاضر من البشرية إقصاء الإسلام عن الحياة، فما ذاك إلا كما تكسف الشمس، والذي حصل من الاضطراب والظلم والفساد بإقصائه، لدليل لأولي الأبصار يميزون به صواب ما نقول، من كون الإسلام جزيئة لا بد منها في نظام الكون البديع يختل بدونه.

وكما تأوي الطيور إلى أعشاشها، حين تكسف الشمس ظهراً، وتعرف بفطرتها أن ثمة شذوذاً قد حصل، وإن الغروب لا يزال بعيداً، ويكون لها الشعاع الضئيل الباقي مصدر أمل لعودة سريعة لنور الحياة، وتظل تنتظر لا تنام، فكذلك أولو القلوب الحية، يدركون بفطرتهم أن تنحية الإسلام عن الحكم كانت حدثاً هائلاً غريباً، لكنه ليس الغروب، وإنما هو حدث شـــاذ، وما استمرار وجود عصبة الحق باقية -مهما كانت ضئيلة- إلا مصدر أمل لعودة الإسلام إلى الحياة، بل دلالة أكيدة على أنه سيعود إلى الحياة، ويرجع من أبق وتمرد من البشر إلى الرب الرحيم، ويستفيق ضحايا تربية الترويض، فإذا هم متمسكون بالنهج القويم.

لقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثاً هائلاً في تاريخها، ونكبة قاصمة في حياتها، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيراً في كل ما ألمَّ بها من نكبات، لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعدما فسدت الأرض، وأسنت الحياة، وتعفنت القيادات، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة؛ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الرُّوم:٤١].

(١) مقدمة الظلال (١/ ٧).

تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور، فكان ذلك مولداً جديداً للإنسان، أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته، لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والقيم والنظم، كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء.

نعم، لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال، والعظمة والارتفاع، والبساطة واليسر، والواقعية والإيجابية، والتوازن والتناسق، بحيث لا يخطر للبشرية على بال، لولا أن الله أراده لها، وحققه في حياتها، في ظلال القرآن، ومنهج القرآن وشريعة القرآن.

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة، ونُحِّي الإسلام عن القيادة، نُحِّي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى، في صورة من صورها الكثيرة، صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم، كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان[1].

لكنها تنحية لن يسكت عنها دعاة الإسلام.

والطفل يجب أن نفتح له ذهنه ونريه حقائق الناموس الكوني.

إن المسلم أعز من أن يعتقد أن لصيق الأرض بإمكانه النطق بالصواب.

وإنما الصواب عنده ما نزل من السماء، ولن يعدو هذا التنزيل، ولا يتجاوزه، بعد إذ قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[2].

(١) مقدمة الظلال (١/ ٩).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٥٣).

رفعت الأقلام وجفت الصحف

كل شيء ما خلا الله باطل

لا منهج إلا منهج الله، وكل عبادة لسواه باطلة.

وهذا هو الذي عناه ربعي بن عامر حين قال لرستم: «الله جاء بنا، لنخرج من نشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله»[1].

فإن الإسلام هو منهج الحياة الوحيد، الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر»[2]، «فإذا أحنوا رؤوسهم فإنما يحنونها لله وحده، وإذا أطاعوا الشرائع فإنما يطيعون الله وحده، وإذا خضعوا للنظام، فإنما يخضعون لله وحده، ومن ثم يتحررون حقاً من عبودية العبيد للعبيد، حين يصبحون كلهم عبيداً لله بلا شريك»[3].

ورمزهم في كل ذلك هذه السجدة التي تعلي القلوب، كما أن رمز الجاهليين تلك السجدة للمادة والجنس، مميتة القلوب.

إنها سجدة المسلم، عنوان العلـــو، وشارة الحرية، والبراءة من كل طاغوت.

ســـــجدة تخفض الجباه، ولكن عـــــز فيهـــــا مســـــبح وتعالى

ظنها الجاهلـــــون غلا على العبد ولكـــــن تحطـــــم الأغلالا

خر فيها لســـــاجد كل شـــــيء يرهـــــب الكون قولـــــه والفعالا

تثبت الوجـــــه والجوارح في الأر ض ولكـــــن تقلقـــــل الأجبالا

تهدم الشرك والوساوس في النفـ س ولكـــــن تشـــــيد الأجيالا

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٢٠).

(٢) الظلال (٤/ ٢٠٦).

(٣) المرجع السابق.

في ســـــكون، وللقلوب مسير ســـــخر الأرض رهبـــــة وجلالا

هـــــي للـــــه وحدتـــــه فقرت ومحـــــت كل غاشـــــم يتعالى

من وعاها، وعى الســـــيادة في الأرض جلالاً ورحمة وجمالا[1]

واسمها: سجدة الحرية، بها يكسر المسلم قيد الهوى، فإذا به «يصبح حراً»؛ حراً يتلقى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من الله وحده، شأنه في هذا شأن كل إنسان آخر مثله، فهو وكل إنسان آخر علـــــى سواء، كلهم يقفون في مستوى واحد، ويتطلعون إلى سيد واحد، ولا يتخذ بعضهم أرباباً من دون الله»[2].

وستظل البشرية معذبة مضطربة قلقة مريضة، ما دامت لا تسجد هذه السجدة ولا تعتنق عقيدة الإسلام، وما استمرار عذابها النفسي وظلمها، مع تقدمها المدني، إلا دلالة على «أن العقل البشري لا يصلح وحده أن يكون ضابطاً موزوناً، ما لم ينضبط هو على ميزان العقيدة الصحيحة، فالعقل يتأثر بالهوى كما نشهد في كل حين، ويفقد قدرته على المقاومة في وجه الضغوط المختلفة، ما لم يقم إلى جانبه ذلك الضابط الموزون»[3].

ولا سعادة لإنسان، ولا نجاة له من الانجراف في الانهيار السريع، الذي تورطت فيه الجاهلية من حوله، إلا بأن يلجأ إلى هذه العقيدة يستهديها الطريق، فتجيبه الجواب الصحيح، على الأسئلة التليدة لكل إنسان، ليكتشف أن أدعياء الفكر هم الذين أقاموا الحجاب بينه وبين فطرته، ويومها فقط سيذوق معنى السعادة.

(١) لعزام في مجلة «المسلمون» (١/ ٩٦١).
(٢) الظلال (٣/ ٢٠٦).
(٣) الظلال (٧/ ٥٧).

إن السعادة أن تعيش ... لفكرة الحق التليد
لعقيدة كبرى تحل ... قضية الكون العتيد
وتجيب عما يسأل الحير ... إن في وعي رشيد
من أين جئت؟ وأين أذهب؟ ... لم خلقت؟ وهل أعود؟
فتشيع في النفس اليقين ... وتطرد الشك العنيد
وتعلم الفكر السوي ... وتصنع الخلق الحميد
وترد للنهج المسدد كل ... ذي عقل شرود
تعطي حياتك قيمة ... رب الحياة بها يشيد
ليظل طرفك رانياً ... في الأفق للهدف البعيد
فتعيش في الدنيا لأخرى ... لا تزول ولا تبيد
وتمد أرضك بالسماء ... وبالملائكة الشهود
هذي العقيدة للسعيد ... هي الأساس هي العمود
من عاش يحملها ويهتف ... باسمها فهو السعيد[1]

(١) ليوسف القرضاوي، مجلة التربية الإسلامية (٦/ ٢٧٨).

لا.. يا قيود الأرض[1]

وإذ فقه الدعاة إلى الله طريق الاستدراك، ورفضوا الانصياع للفساد الذي استشرى، وتمردوا على عملية الترويض، وبدؤوا جهود تثبيت وتربية لأولى الفطر الصحيحة، بات غيرهم يتألم لواقع المسلمين ويتأوه، ولا يعدو إبداء الحزن، وقبع في بيته أو مسجده، يلفه اليأس، تاركاً دعاة الإسلام وحدهم في المعركة، يظن أنه بحزنه قد أبرأ ذمته، بل ربما يظن أنه قد كسب المناقب.

وليس الأمر كما ظن وإن اقترن بحزنه ما يثاب عليه ويؤجر، فإن المسلم الذي يبغي درجات الكمال يحزن لواقع المسلمين، لكنه يترك بيته وراءه ظهرياً، ويتصدى للناس، واعظاً وناصحاً ومربياً، وخائضاً بهم دروب الجهاد.

قال ابن تيمية ﷺ: «قد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه، فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه، وعلى مصائب المسلمين عموماً، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر، وتوابع ذلك، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة؛ نهي عنه، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه»[2].

فافهم هذا يا من تتمنى أن يغير الله الأحوال بلا عمل منك أمثالك.

ومن وحولك من يعمل ويناديك:

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٠٥)، ٩ جمادى الأولى ١٣٩٢هـ/ ٢٠ يونيو ١٩٧٢م، ص٢٤-٢٥.
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٧).

أيها المشـــــدود في تيه الأماني خفف الآهـــــات دع عنك التواني

لا تبـــــالِ أن بغت كـــــف الزمان واعتصم بالله، ذا أســـــمى وأفضل

أنت تدري أيهـــــا الحيران عنا كيف فوق الشـــــمس أزمانا حللنا

أيهـــــا المذهول لا تيـــــس فأنا لبناء الأمة العصمـــــاء نعمل[1]

فكن مع العاملين أيها المبهور، إنك إن كنت تعرف أننا خير من يعمل، وأطهر من يتصدى، فلم تهرب منا؟

«إن الحسرة والتألم وتصعيد الزفرات ليست سوى وسيلة سلبية لا تجرح قوى الباطل، بل لا تخدشها، وهي لا بأس بها إن كانت حافزاً للعمل ومضاعفة الجهد، ولكنها تنقلب إلى أمر بالغ الخطورة إذا لم يعقبها عمل إيجابي مثمر، إذ تكون وسيلة لامتصاص النقمة على الأوضاع الفاسدة، ومن ثم الركون إليها، وعلى أحســـن الفروض استمرار هذه النقمة، ولكن بشكل جامد لا حياة فيه يؤدي إلى شلل الحركة، وليس أفضل لقوى الباطل من هذا الوضع»[2].

وإنما الصواب في كل حين أن تسلك طريق الهمة، وهو الطريق الذي وصفه قدوة العراق آخر الزمن العباسي، الشيخ عبدالقادر الكيلاني ﷺ، فكان ينادي أهل بغداد بصوته الهادر: «سيروا مع الهمم العالية»[3].

لا تتواروا ولا تنسحبوا، بل سيروا مع الهمم العالية.

وما زال هذا الطريق هو الطريق المعبد الوحيد في خارطتنا.

(١) المحمود دللي في حنين إلى الفجر (١٤٠).
(٢) لصلاح الدين مجيد، مجلة التربية الإسلامية (٥/ ٥٩٤).
(٣) الفتح الرباني للشيخ عبدالقادر، ص ٢٩٨.

أما الجبن، والانزواء، والتأوه، وجرب غيرك الأعوان، وأعطاك النتيجة، فقال: لي معينان؛ همة واعتزام[1]، لم يجد غيرهما، وخانته بقية الأعوان.

وعونك المخلص ما أوصلك إلى اللذة الصادقة في الحياة.

ومغشوش واهم ذاك الذي يظن اللذة فحسب لذة القرب من الزوجة والأولاد والأموال ونيل الترقيات الوظيفية.

وإنما السعادة في رضا الله.

وإنما اللذة لذة البذل والفداء.

ونداء الشيخ عبدالقادر يأتينا عبر القرون: «أنتم غفل عما القوم فيه، تواصلون الضياء في الكد على النفوس التي هي عدوتكم، ترضون أزواجكم بسخط ربكم عز وجل، كثير من الخلق يقدمون رضا أزواجهم وأولادهم على رضا الحق عز وجل»[2].

وما بغير البذل ينطق قاموسنا، «لكن يغلط الجفاة في مسمى الحياة، حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل وقد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد، ولكن ابن هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهو متحل بهذا منشرح الصدر به، يطيب له هجر ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتى إن أحدهم ليتلقى

(١) شطر للبحتري في ديوانه (١/ ٦٢١).
(٢) الفتح الرباني، ص٦٨.

الرمح بصدره ويقول: فزت ورب الكعبة، ويستطيل الآخر حياته حتى يلقى قوته من يده ويقول: إنها لحياة طويلة أن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً، ويقول مع الآخر فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف، ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً»[1].

هذا ما نعرفه من شأن الداعية، لا يكون كامل العبودية لله حتى يصل إلى مثل حال إبراهيم عليه السلام، لما استسلم وأطاع ووضع السكين على حلق ابنه.

وبهذا وصفه إقبال:

ليس يدنو الخوف منه أبدا ... ليس غير الله يخشى أحدا

لحنه في القلب ناراً أشعلا ... من قيود الزوج والولد خلا

معرض عما سوى الله الأحد ... يضع السكين في حلق الولد[2]

إن واجبات المسلم إزاء محاولة استئناف الحياة الإسلامية وإرجاع الإسلام إلى الهيمنة من بعد الحدث الهائل في تنحيته واجبات واضحة بينة، وأكثر من نراه من المسلمين المتحسرين أصحاب الأماني المتأوهين، «يكون عالماً بها، ولا تنهض همته إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدوداً منكوساً، قد أسام نفسه مع الأنعام، راعياً مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رفع له علم فشمر إليه، وبورك له في تفرده في طريق طلبه، فلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله»[3].

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٣٥).
(٢) ديوان الأسرار والرموز (٣٩/ ١٢).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٦).

فكذلك البرهان الذي يعطيه المسلم علامة لصدقه.

وكذلك حقاً تفعل الأشواق حين تصدق؛ أن صاحبها حينئذ يأبى إلا الهجرة والانضمام إلى القافلة.

ويذر كل رفيق يثبطه ويزين له إيثار السلامة، الإذاعية يبثه همه، ويتعاون معه على السير في طريق الجهاد، ويعلمه علم البذل وفقه الدعوة والتبشير.

فحيهلا أن كنت ذا همة، فقد حدا بك حادي الشوق فاطوِ المراحلا.. ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ودعه، فإن العزم يكفيك حاملاً[1]..

فينتفض، ويهجر كل قاعد، ويهاجر مع المهاجرين إلى الله.. ويخطب به ابن تيمية فيقول، ويصف له الطريق واضحاً: «الحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب»[2].

فيطرح أغلال الشهوات وحب الأموال عن قلبه ويصبح حراً، ويعود يأبى المنخفض الخبت، ويرفض أن تواريه الوديان، ويبتغي المرتفع العالي.

ومن أراد ذلك ارتقى سلم الارتفاع والسمو؛ الجهاد، وفقه الدعوة؛ قال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة: ١١).

وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع؛ أحدها هذا، والثاني قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال:٢-٤].

(١) زاد المعاد (٢/ ٦٠)، لكن لم ينسبها لنفسه وهي له.
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٦).

والثالث قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه:٧٥]، والرابع قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النِّسَاء:٩٥- ٩٦].

فهذه أربعة مواضع، في ثلاثة منها: الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، والرابع: الرفعة بالجهاد، فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد»[1].

ولا تصل إلى هذا العلم وهذا الجهاد إلا بهمة، ومن ثم كانت الهمة باب الدخول، فمن امتلكها لأن له كل صعب، واستطاع أن يعيد هذه الأمة إلى الحياة مهما ضمرت: فيها معاني الإيمان، كما قال إقبال:

همـــــم الأحرار تحيـــــي الرقما نفخة الأبرار تحيـــــي الأمما[2]

وبالمقابل جعل ﷺ: كل داء في سقوط الهمم[3].

وحين كانت تضيق بأهل الأندلس الأمور، كان خطيبهم ينادي أن قد «زحفت أحزاب الطواغيت إلينا، ومن الصليب ذراعيه علينا، وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى..

الجهاد الجهاد فقد تعين..

الله الله في الإسلام، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه..

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٠).
(٢) ديوان رسالة المشرق (١٤٠).
(٣) شطر من ديوان الأسرار والرموز (٣٠).

قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه».

ويقف شاعرهم فيكرر النداء:

ألا نفـــوس أبيـــات لهـــا همم أما على الخير أنصـــار وأعوان[1]؟

لم يكونا يناديان صاحب بلاغة، ولا صاحب جدال، وإنما كانا يطلبان مؤمناً من أهل البر تقياً صاحب نفس أبيه لها همة، وله اقتداء بقاضي بغداد محمد بن عبدالباقي -وهو من ذرية كعب بن مالك رضي الله عنه- حين قال: «ما ضيعت ساعة من عمري في لهو أو لعب»[2].

وهتافه: هجرنا إلى أمالنا كل راحة.. وكذلك أمر المسلمين حين ضاق اليوم، لا يفرجه ويوسعه إلا أصحاب الهمم العالية فحسب.

ولذلك كان من تعاليم الإمام حسن البنا: «أن تستصحب دائماً نية الجهاد وحب الشهادة، وأن تستعد لذلك ما وسعك الاستعداد»، «وأن تعتبر نفسك دائماً جندياً في الثكنة تنتظر الأمر»[3].

وأنه لمعنى يفقهه من ذاق العلو، محجوب عمن يطلب السلامة.

قلت للصقـــر وهو في الجو عال: أهبط الأرض فالهـــواء جديب

قال لي الصقر: في جناحي وعزمي وعنان الســـماء مرعى خصيب[4]

وهذا المرعى لا شك يجهله الأرضيون! قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التَّوۡبَة:٣٨]؛ «إنها ثقلة

(١) من كلام أديب الأندلس لسان الدين بن الخطيب، نفح الطيب (٨/ ٢٧٢) مع حذف.
(٢) نفح الطيب (٦/ ٢٣٤).
(٣) رسالة التعاليم، المجموعة، ص ٢٤، ٢٥.
(٤) ديوان المثاني لعبدالوهاب عزام (٣٥).

الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض، ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع، ثقلة الدعة والراحة والاستقرار، ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب، ثقلة اللحم والدم والتراب، والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه: اثاقلتم -وهذه قراءة حفص، وهي أبلغ تصويراً من القراءات التي ورد فيها: تثاقلتم- وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل، ويلقيها بمعنى ألفاظه «اثاقلتم إلى الأرض»، وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق.

إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة، وتطلع إلى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التَّوْبَة:٣٨].

وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله إلا وفي هذه العقيدة دخل، وفي إيمان صاحبها بها وهن؛ لذلك يقول الرسول ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق»؛ فالنفاق -وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال- هو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله، والرزق من عندالله، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

ومن ثم يتوجه الخطاب اليهم بالتهديد: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التَّوْبَة:٣٩].

والخطاب لقوم معينين في موقف معين، ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله، والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو عذاب الدنيا، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالهم للمعادين، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد، ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء»[1].

لذلك، رأى المودودي ضرورة الصراحة، فحسم أمر الهمة بألفاظ يظن القاعدة أنها خشنة، فقال: «من دواعي الأسف أن الذين عندهم نصيب من القوى الفكرية والقلبية من النوع الأعلى من أفراد أمتنا هم مولعون بإحراز الترقيات الدنيوية، جاهدون في سبيلها ليل نهار، ولا يقبلون في السوق إلا على من يساومهم بأثمان مرتفعة، وما بلغوا من تعلقهم بالدعوة إلى الاستعداد للتضحية في سبيلها بمنافعهم، بل ولا بمجرد إمكانيات منافعهم، فإذا كنتم ترجون، معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية، أن تتغلبوا في الحرب على أولئك المفسدين في الأرض الذين يضحون بالملايين من الجنيهات كل يوم في سبيل غاياتهم الباطلة، فما ذلك إلا حماقة»[2].

وبعد..

فإننا ما زلنا نعطيك جمهرة من أبلغ القول وأحسن الكلام، وقد قال الزاهد الثقة يحيى بن معاذ ﷺ: إن «الكلام سلام الحسن حسن، وأحسن من الكلام: معناه، وأحسن من معناه: استعماله»[3].

(١) الظلال (١٠/ ٢٢٣).
(٢) تذكرة دعاة الإسلام، ص٥٦.
(٣) تاريخ بغداد (١٤/ ٢٠٩).

فقم إلى استعماله يرحمك الله:

وخل الهوينـــا للضعيف ولا تكن نؤوماً فإن الحـــزم ليس بنائم

وهذه كتيبة الحق قد دنت منك في سيرها بنشيد هادر:

قد نهضنا للمعالي ومضى عنا الجمود ورسمناها خطى للعز والنصر تقود

فتقدم يا أخا الإسلام قد سار الجنود ومضى للمجد المجد بالعزم يعود[1]

وكأني أراك قد أصغيت، واستدركت قعودك، وعفت مساعيك لإحراز الترقيات الدنيوية جانباً، وآمنت بأنها آتية إليك دونما جهد وحرص.

ثم كأني أراك أخذت مكانك في الكتيبة السائرة، وبدأت تنشدهم مبايعاً:

مهما عتـــا الأقزام والأعبـــد ولوحـــوا بالقيـــد أو هددوا

عن نصـــرة الإسلام هل أقعد؟ لا، ســـوف أبقى دائماً أنشـــد

بفجره لا بـــد يأتـــي الغد[2]

(١) لوليد الأعظمي في أغاني المعركة، ٧٦، ١٠٦.
(٢) المرجع السابق.

استعلاء في الطريق العالي[1]

وقرأ جماعة من السلف: «هذا صراط عليٌّ مستقيم».

وأول ارتفاع يرتفعه المؤمن الداعية بهمته العالية هو الاستعلاء على الجاهلية التي من حوله.

إن الهمة بمجرد أن تصل أولى درجات العلو تنقل صاحبها نقلة بعيدة، وتدعه يشمخ، وينظر إلى الجاهليين نظر السيد في أول صفحة من ظلاله: «كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال، ولثغة الأطفال.. إنهم أقزام من حوله، يعيشون في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم»[2].

أما هو فسائر في الطريق العالي.

علو لم يبتدعه، ولم يتكلفه، ولم يتمحل للاتصاف به، إنما هو مما أنعم به رب العالمين، إنه هو سبحانه سمى طريقه وصراطه ونهجه بالطريق العالي.

وإنها لتسمية ثمينة يكتشفها لنا الإمام ابن تيمية ﷺ من قراءة أخرى لقول الله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحِجْر:٤١].

أشار إليها ابن عطية في تفسيره، فنقل لنا عنه أنه قال: «إن جماعة من السلف قرؤوا «عليٌّ مستقيم» من العلو والرفعة»، ثم قال ابن تيمية: «والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى الإخلاص -لما استثنى إبليس من أخلص- قال الله له: هذا الإخلاص

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٠٦)، ١٦ جمادى الأولى ١٣٩٢هـ/ ٢٧ يونيو ١٩٧٢م، ص٢٢-٢٥.
(٢) الظلال (١/ ٣).

طريق رفيع مستقيم، لا تنال أنت بإغوائك أهله»[1].

أي لما قال إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص:٨٢-٨٣].

فهو طريق عالٍ مستقيم، كما أسماه الله تعالى، والطرق غيره واطئة، والسالك في هذا الطريق العالي يستعلي منذ أول قدم يضعها في بدايته، ويحلق في الأعالي تبعاً لسلوكه هذا، وبمجرد سلوكه من غير رفرفة جناح أو جهد آخر، أو ما يظنه السطحي تطاولاً وتكبراً.

ومن هنا كان نظره ذاك طبيعياً، إذ لما كان هو في العلو وطريق السماء، فهو إذن لا يبصر من في الأسفل وطرق الأرض إلا صغاراً، وتلك ظاهرة فيزيائية، ومعادلة رياضية، كما أنها حقيقة إيمانية.

ومن هنا كان المكان الطبيعي المعتاد للمسلم هو مكان القيادة والتصدر لا التبعية والانقياد، إذ الإسلام الذي يحمله هو «بطبيعته عقيدة استعلاء ومنهج قيادة»[2].

ولذلك، أمر الله المسلمين ألا يهنوا، وأن ينتهوا عن دعوة الكفر إلى المسالمة والعيش المتصالح، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [مُحَمَّد:٣٥].

أنتم الأعلون اعتقاداً وتصوراً للحياة، وأنتم الأعلون ارتباطاً وصلة بالعلي الأعلى، وأنتم الأعلون منهجاً وهدفاً وغاية، وأنتم الأعلون شعوراً وخلقاً وسلوكاً، ثم أنتم الأعلون قوة ومكاناً ونصرة، فمعكم القوة الكبرى «والله معكم»، فلستم وحدكم.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥/ ٢٠٤).
(٢) مقدمة سيد لكتاب «ماذا خسر العالم» (١/ ١٩).

إنكم في صحبة العلي الجبار القادر القهار، وهو لكم نصير حاضر معكم يدافع عنكم[1].

وابتغاء رسوخ هذا الشعور في نفوس المؤمنين كرره الله تعالى، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عِمۡرَان:١٣٩].

إنه «الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان، وعلى قيم الأرض التي لم تنبثق من أصل الإيمان، وعلى تقاليد الأرض التي لم يصغها الإيمان، وعلى قوانين الأرض التي لم يشرعها الإيمان، وعلى أوضاع الأرض التي لم ينشئها الإيمان.

الاستعلاء مع ضعف القوة وقلة العدد وفقر المال كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء.

الاستعلاء الذي لا يتهاوى أمام قوة باغية، ولا عرف اجتماعي، ولا تشريع باطل، ولا وضع مقبول عند الناس، ولا سند له من الإيمان.

وليست حالة التماسك والثبات في الجهاد إلا حالة واحدة من حالات الاستعلاء التي يشملها هذا التوجيه الإلهي العظيم.

والاستعلاء بالإيمان ليس مجرد عزمة مفردة، ولا نخوة دافعة، ولا حماسة فائرة، إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في طبيعة الوجود، الحق الباقي وراء منطق القوة، وتصور البيئة، واصطلاح المجتمع، وتعارف الناس؛ لأنه موصول بالله الحي الذي لا يموت.

إن للمجتمع منطقه السائد وعرفه العام وضغطه الساحق ووزنه الثقيل على من ليس يحتمي منه بركن ركين، وعلى من يواجهه بلا سند متين، وللتصورات السائدة والأفكار الشائعة إيحاؤها الذي يصعب التخلص منه بغير الاستقرار على حقيقة

(١) الظلال (٢٦/ ٧٧).

تصغر في ظلها تلك التصورات والأفكار، والاستمداد من مصدر أعلى من مصادرها وأكبر وأقوى»[1].

«إن المؤمن هو الأعلى، الأعلى سنداً ومصدراً، فما تكون الأرض كلها؟ وما يكون الناس؟ وما تكون القيم السائدة في الأرض، والاعتبارات الشائعة عند الناس؟ وهو من الله يتلقى، وإلى الله يرجع، وعلى منهجه يسير!

وهو الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود؛ فالإيمان بالله الواحد في هذه الصورة التي جاء بها الإسلام هو أكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى، وحين تقاس هذه الصورة إلى ذلك الركام من التصورات والعقائد والمذاهب، سواء ما جاءت به الفلسفات الكبرى قديماً وحديثاً وما انتهت إليه العقائد الوثنية والكتابية المحرفة، وما اعتسفته المذاهب المادية الكالحة حين تقاس هذه الصورة المشرقة الواضحة الجميلة المتناسقة إلى ذلك الركام وهذه التعسفات، تتجلى عظمة العقيدة الإسلامية كما لم تتجلَّ قط، وما من شك أن الذين يعرفون هذه المعرفة هم الأعلون على كل من هناك.

وهو الأعلى تصوراً للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص، فالعقيدة المنبثقة من المعرفة بالله بصفاته كما جاء بها الإسلام، ومن المعرفة بحقائق القيم في الوجود الكبير لا في ميدان الأرض الصغيرة، هذه العقيدة من شأنها أن تمنح المؤمن تصوراً للقيم أعلى وأضبط من تلك الموازين المختلفة في أيدي البشر، الذين لا يدركون إلا ما تحت أقدامهم، ولا يثبتون على ميزان واحد في الجيل الواحد، بل في الأمة الواحدة، بل في النفس الواحدة من حين إلى حين.

(١) معالم في الطريق (١/ ١٦٣).

وهو الأعلى ضميراً وشعوراً وخلقاً وسلوكاً، فإن عقيدته في الله ذي الأسماء الحسنى والصفات المثلى، هي بذاتها موحية بالرفعة والنظافة والطهارة والعفة والتقوى والعمل الصالح والخلافة الراشدة فضلاً على إيحاء العقيدة عن الجزاء في الآخرة، الجزاء الذي تهون أمامه متاعب الدنيا وآلامها جميعاً، ويطمئن إليه ضمير المؤمن، ولو خرج من الحياة الدنيا بغير نصيب.

وهو الأعلى شريعة ونظاماً، وحين يراجع المؤمن كل ما عرفته البشرية قديماً وحديثاً، ويقيسه إلى شريعته ونظامه، فسيراه كله أشبه شيء بمحاولات الأطفال وخبط العميان، إلى جانب الشريعة الناضجة والنظام الكامل.

وسينظر إلى البشرية الضالة من علٍ في عطف وإشفاق على بؤسها وشقوتها، ولا يجد في نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال»[1].

عزة هي الجناح:

ولكن لن يتمكن المسلم من أن يذوق هذا الاستعلاء على من في الأرض من القوى الباطلة، والتصورات الباطلة، والقوانين الباطلة، حتى يعلو هو عن الأرض نفسها وقيودها، وشهواتها، وندائها، ولذائذها الموهومة.

إنه علو عن الأرض، اسمه في قاموسنا: العزة الإيمانية.

«والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس، حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله، حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي، يستعلي بها على شهواته المذلة، ورغائبه القـاهرة، ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس، ومتى استعلى على

(١) الظلال (٢٢/ ١١٣).

هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه، فإنها تذل الناس شهواتهم ورغباتهم ومخاوفهم ومطامعهم، ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل وضع، وعلى كل شيء، وعلى كل إنسان، وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان!

إن العزة ليست عناداً جامحاً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل، وليست طغياناً فاجراً يضرب في عتو وتجبر وإصرار، وليست اندفاعاً باغياً يخضع للنزوة ويذل للشهوة، وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح، كلا! إنما العزة استعلاء على شهـوة النفس، واستعلاء على القيد والذل، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله، ثم هي خضوع لله وخشوع، وخشية لله وتقوى، ومراقبة لله في السراء والضراء، ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه، ومن هذه الخشية لله تصمد لكل ما يأباه، ومن هذه المراقبة لله لا تعنى إلا برضاه»[1].

وإذا ذاقها المسلم حقاً عرف حين يذوقها أنها أعظم لذة تتصاغر دونها كل لذائذ الطعام والنساء والوظائف الكبيرة، وعرف صدق عزام حين يقول:

خير ما لذه الكريم الإباء[2].

لذلك، كان دأب إقبال أن يستنهض من التصق بالأرض، أو من استخفى فولج كهوف الأرض، خوفاً أو تكاسلاً وتقاعداً، فيدعوه إلى الخروج من جاذبيتها، وخداع أوهامها، والتحليق عالياً عالياً.

أنت يا من لم يطـــر منك جناح ... دودة فـــي ظلمة التـــرب تراح

مستكين تشـــتكي جور الزمان ... قد أصيب الـــذل من هجر القرآن

قد هبطـــت الأرض طهراً كالندى ... بالكتاب الحي أمســـكت يدا

(١) ديوان الأسرار والرموز لإقبال (١٤٩).

(٢) شطر من ديوان المثاني لعزام (٤٩).

فإلام العيش فـــــي الترب؟ ارحلا اصعدن فوق الســـــماوات العلا[1]

إن المسلم الحق لا يلتصق بالأرض يوماً، ولا يكون في المؤخرة يوماً؛ لأنه يشعر بما هو فيه من «تبعة الوصاية على هذه البشرية في مشارق الأرض ومغاربها، وتبعة القيادة في هذه الأرض للقطعان الضالة، وهدايتها إلى الدين القيم، والطريق السوي»[2].

لا رخاوة، ولا حل وسطاً، بل إرادة تغيير.

ومن هذا الشعور بهذه المهمة القيادية صرت تجد إرادة التغيير صفة لازمة وديدنا مستمراً للمستعملين المتسامين في فلك الاستعلاء.

لا يتنازلون، ولا يهبطون درجة، ولا يتلونون، ولا يرضون بوسط ومناصفة، ولا يكتفون بدعاء ولا بقصائد تتلي، ويأبون إلا صد تيار الفساد، وإقصاء الجاهلية، وتغيير مجرى التاريخ الذي يريده الطواغيت.

ويومها ظن مسيلمة الكذاب أن الأمر أمر شهوة تسلط، ونزوات، ورغبة استعباد الناس، فجاء يعرض على النبي ﷺ مناصفة، ثمنها الكف والتهادن، ولم يكن المسكين يدري أي علو في التوحيد يستحيل معه التنازل عن شيء من متمماته، وفوجئ برسول الله ﷺ وفي يده قطعة جريدة سعف نخل، يقول له: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن أتعدى أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله»[3].

والله ما يكون جواب عصبة الإيمان على أهواء الأرض وأحزاب الباطل، حين تعرض اليوم عروض الحلول الوسطى إلا جواب النبي ﷺ لمسيلمة، وإلا أن تعلنها صراحة: لو سألتمونا أي تنازل مهما قلّ فلن ننزل لكم، ولن نتعدى أمر الله

(١) مقدمة سيد لكتاب «ماذا خسر العالم» (١٧).
(٢) معالم في الطريق، ص١٥٢.
(٣) صحيح مسلم (٧/ ٥٧)، والقصة عند البخاري أيضاً.

فيكم، نأمركم بالمعروف والحسنى، وننهاكم عن المنكر الذي أنتم فيه، فإن توليتم فليعقرنكم الله.

«ويستحيل تلفيق منهج نصفه من هنا، ونصفه من هناك، وكما أن الله لا يغفر أن يشرك به، فكذلك هو لا يقبل منهجاً مع منهجه، هذه كتلك سواء بسواء؛ لأن هذه هي تلك على وجه اليقين.

هذه الحقيقة ينبغي أن تكون من القوة والوضوح في نفوسنا ونحن نقدم الإسلام للناس، بحيث لا نتلجلج في الإدلاء بها، ولا نتركهم حتى يستيقنوا أن الإسلام حين يفيؤون إليه سيبدل حياتهم تبديلاً، سيبدل تصوراتهم عن الحياة كلها، كما سيبدل أوضاعهم كذلك، سيبدلها ليعطيهم خيراً منها بما لا يقاس، سيبدلها ليرفع تصوراتهم ويرفع أوضاعهم، ويجعلهم أقرب إلى المستوى الكريم اللائق بحياة الإنسان، ولن يُبقي لهم شيئاً من أوضاع الجاهلية الهابطة التي هم فيها، اللهم إلا الجزئيات التي يتصادف أن يكون لها من جزئيات النظام الإسلامي شبيه، وحتى هذه لن تكون هي بعينها؛ لأنها ستكون مشدودة إلى أصل كبير يختلف اختلافاً بيِّناً عن الأصل الذي هم مشددون إليه الآن، أصل الجاهلية النكد الخبيث! وهو في الوقت ذاته لن يسلبهم شيئاً من المعرفة العلمية البحتة، بل سيدفعها قوية إلى الأمام.

يجب ألا ندع الناس حتى يدركوا أن الإسلام ليس هو أي مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية، كما أنه ليس أي نظام من أنظمة الحكم الوضعية، بشتى أسمائها وشياتها ورياتها جميعاً، وإنما هو الإسلام فقط! الإسلام بشخصيته المستقلة وتصوره المستقل وأوضاعه المستقلة، الإسلام الذي يحقق للبشرية خيراً مما تحلم به كله من وراء هذه الأوضاع.

الإسلام الرفيع النظيف المتناسق الجميل الصادر مباشرة من الله العلي الكبير»[1].

والمسلم لا يقنع حتى يرى قومه مثالاً لهذه النظافة والتناسق والجمال، ولا يكفيه النور الضعيف ولا البصيص، وإنما يبغي الشمس الكاملة، فيأخذ يترنم.

نحـــن لا نرضى بنار الغســـق نحـــن لا نرضى بنور الشـــفق

نحن لا نرضى بنجم الصبح لاح لا ولا نرضى تباشـــير الصباح

نحن لا نرضى نجومـــاً لامعة إنمـــا نبغي شموســـاً طالعة[2]

لهذا، كان من علامة صدق المسلم ألَّا يرضى بتسلط الجاهلية، ومضت أعراف الدعاة بذلك، وقالوا: «إنه من كان يؤمن بالله ورسوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل، أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق، فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب، فاعلم أنه مدخول في إيمانه، مرتاب في أمره»[3].

ووقف شاعرهم يعلن هذه المادة من دستور العمل:

لســـنا نريد مناهـــج وضعية قرآننا الســـامي أعـــز وأرفع

ســـتحطم الأغلال عن أعناقنا ونصـــد تيار الفســـاد ونمنع[4]

ثم يعود فيؤكد في وقفة أخرى:

أنا مســـلم لا أرتضيها عيشـــة نكـــراء بين مشـــرق ومغرب

(١) معالم في الطريق، ص ١٥٢.
(٢) لعزام من قصيدة اللمعات الملحقة برسالة المشرق لإقبال.
(٣) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية للمودودي (١٧).
(٤) لوليد في ديوان الزوابع (١٤).

أنا مســـــلم لا أدعيهـــــا فكرة أوحى إليَّ بها دمـــــاغ الأجنبي

أنا مســـــلم آمنـــــت أن محمداً قد جاء بالشرع الحنيف الأصوب[1]

ويعود فقيه الدعوة الأستاذ المودودي، يشرح مرة أخرى لمن عساه في حاجة إلى مزيد بيان، فتنطلق من لسانه الكريم الكلمات المجلجلة: «إن هذه الشريعة الإلهية لم تنزل للأقزام الخانعين، ولا لعبدة الأهواء وموالي الدنيا، ولا لأمثال الريشة الطائرة في مهب الريح، أو أمثال الغثاء الجاري مع تيار الماء، ولا للحربائيين الذين يتلونون بكل لون من ألوان البيئة، وإنما نزلت لأولئك الليوث الأبطال الذين يجدون أنفسهم أقوياء على تغيير مهب الريح، ومقاومة التيار، وتحويل مجراه إلى الجهة الصحيحة، والذين يحبون صبغة الله فوق ما سواها، وقد عزموا على أن يصبغوا جميع العالم بهذه الصبغة.

إن الكائن الذي يقال له «المسلم»، لم يخلق للانسياق مع التيار، وإنما الغاية من وراء خلقه في هذه الدنيا أن يوجه تيار الحياة في الوجهة التي هي وجهة الحق والصواب بحسب إيمانه وعقيدته، ولئن كان هذا التيار قد غيَّر مجراه من هذه الجهة الصحيحة، فكاذب في دعوى الإسلام من يرضى بهذا المجرى المتحول عن وجهة الصواب، وإن الذي هو مسلم حقاً وبكل معنى الكلمة لا جرم أن يزاحم سير هذا التيار المنحرف، ويبذل غاية وسعه في صرف مجراه، ولن يهمه في هذا الجهد نيل الفوز أو حصول الخيبة، بل إنه سيحتمل ما يناله فيه من الخسارة والضرر، ولن تنهزم روحه المكافحة حتى وإن انكسرت أعضاؤه من جهد الصراع مع التيار، وتفككت أوصاله وألقته الأمواج على الشاطئ مهزولاً مغشياً عليه»[2].

(١) المرجع السابق (٦٤).

(٢) نحن والحضارة الغربية للمودودي، ص ٢٤٨

«والحق، أن المفكر المعتد بفكره، المعتز بنفسه، لا يرى في الواقع حجة، فكم من واقع هو زور أو جور أو ضرر.

إن جهاد المصلحين في الأمم أكثره لإزالة الباطل والشر، أي إزالة الواقع المكروه وإثبات النافع، ولعل أكبر ما يميز أمة من أمة، وإنساناً من آخر، هو الخضوع للواقع أو الاستكبار عليه»[1].

ذلك هو عرف المؤمنين.

والمسلم -لأنه مسلم- لا يعرف إلا الاستكبار على الواقع المنحرف عن الاستقامة التي أرادها الله، ووظيفة الداعية هي إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية، وتولي هذه القيادة على منهجه الخاص، المستقل الملامح، الأصيل الخصائص، يريد بهذه القيادة الرشيدة الخير للبشرية واليسر، الخير الذي ينشأ من رد البشرية إلى خالقها، واليسير الذي ينشأ من التنسيق بين حركة البشرية، وبتولي هذه القيادة السياسية في البلاد من أول ما أوصل بحكمه في حاجة ماسة إلى ما لا يمكن يكون على منهجه الخاص المستقل، ترتفع إلى المستوى الكريم الذي أراده الله لها، وتخلص من حكم الهوى، أو كما قال ربعي بن عامر حين سأله رستم قائد الفرس: ما الذي جاء بكم؟ فكان جوابه: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لم يجئ الإسلام إذن ليربت على شهوات الناس الممثلة في تصوراتهم وأنظمتهم وأوضاعهم وعاداتهم وتقاليدهم، سواء منها ما عاصر مجيء الإسلام، أو ما تخوض البشرية فيه الآن، في الشرق أو في الغرب سواء، إنما جاء ليلغي هذا كله إلغاء، وينسخه نسخاً، ويقيم الحياة البشرية على أسسه الخاصة»[2].

(١) لعبدالوهاب عزام في الشوارد (٥).
(٢) معالم في الطريق، ص١٥١.

فهو إقصاء بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

أي قلع هذه النبتة الضارة، ورميها بعيداً.

وذلك لا يكون بمجرد الدعاء، ولا بالخطب والقصائد، وإنما بشيء آخر أكثر نفاذاً وتأثيراً، سموه الحر الذي يفهم، فقالوا:

إسلامنـــا لا يســـتقيم عموده بدعاء شـــيخ في زوايا المسجد

إسلامنـــا لا يســـتقيم عموده بقصائـــد تتلى لمدح محمـــد

إسلامنـــا نور يضـــيء طريقنا إسلامنا نار على مـــن يعتدي[1]

وضمانة ذلك استمرار هذا الاستعلاء، ورفض التنازل بداية وخلال السير ونهاية، فإن عروض التنازل لن تنقطع، والدعاية للحل الوسط لن تسكت، و«هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً، محاولة إغرائهم لينحرفوا -ولو قليلاً- عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة، ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته؛ لأنه يرى الأمر هيناً، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها، ولو بالتنازل عن جانب منها.

ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتمي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق، وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل، لا يملك أن يقف عندما يسلم به أول مرة؛ لأن استعداده

(١) - ديوان الزوابع (٥٦).

للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء.

والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها، فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل، لا يمكن أن يكون مؤمناً بدعوته حق الإيمان؛ فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر، وليس فيها فاضل ومفضول، وليس فيها ضروري ونافلة، وليس فيها ما يمكن الاستغناء عنه، وهي كل متكامل يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه، كالمركب يفقد خواصه، ومن هنا كان من شرط الإيمان الذي لا يتم إلا به أن يغير صاحبه المنكر بقلبه، فقال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

فيعتقد كراهيته وبطلانه؛ ليحجبه ذلك عن الرضا يوماً ببعض وجوه المنكر وأشكاله العديدة إذا تعرض للمساومة، وما يكون التنازل عن شيء من الإسلام إلا ليحل محله في القلب شيء من أضداده من صور الباطل والمنكر.

فالتغيير بالقلب يعنى كراهية المنكر، وهو وإن لم يكن إزالة وتغيير -كما يقول الإمام النووي- إلا أنه مقدمة للتغيير، وتهيؤ له، وإعداد النفس لتغييره فعلاً؛ لأن الإنسان عادة لا يزيل شيئاً يحبه، وإنما يزيل ويغير شيئاً يكرهه، فكراهة الشيء مقدمة لإزالته وسابقة لتغييره، فجاز إطلاق اسم التغيير على كراهة القلب للمنكر بهذا الاعتبار، وكراهية القلب للمنكر تجعل القلب حياً عامراً بالإيمان ذا حساسية كافية ضد المنكرات والفساد، ولا يسع المسلم ترك هذه الكراهية، وإذا فقدها كان ذلك علامة مرض لقلبه، فليسارع إلى تطبيبه بعلاج الإيمان قبل فوات الأوان.

وقد اعتبر الإمام ابن تيمية ﷺ تعالى عدم الإنكار القلبي ردة عن الإسلام، فقد قال في «الفتاوى» (٥/ ١٨٢): والمرتد من أشرك بالله-تعالى، أو كان مبغضاً

للرسول ﷺ، ولما جاء به أو ترك إنكار منكر بقلبه»[1].

لا خوف ولا ذل، بل رفض وبذل، وما دام الأمر كذلك، فإن الداعية يقف موقف التحدي الواضح، ويبدأ صراعه مع أئمة الجاهلية، ويعلي صوته بنداء الإيمان.

يا هذه الدنيا أصيخي واشـــــهدي أنَّا بغيـــــر محمـــــد لا نقتدي

لا رأســـــمال الغرب ينفعنا ولا فوضى شيوعي ســـــخيف أبلد

وســـــطًا نعيش كمـــــا يريد إلهنا لا نســـــتعر مبادئ، لا نجتدي[2]

لكنه يعلم إذ يقول ذلك أن الأمر أمر جد، وما هو بالهزل، وأنه لا بد له من تعب ونصب «فأمر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة، إنه عهد الله مع المؤمنين، وهو جد وحق، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق، وله تكاليف شاقة، نعم.. ولكن هذه هي طبيعته، إنه أمر عظيم، أعظم من كل ما في هذا الوجود، فلا بد أن تقبل عليه النفس إقبال الجاد القاصد العارف بتكاليفه، المتجمع الهم والعزيمة، المصمم على هذه التكاليف، ولا بد أن يدرك صاحب هذا الأمر أنه إنما يودع حياة الدعة والرخاء والرخاوة، كما قال رسول الله ﷺ وقد نودي للتكليف: «مضى عهد النوم يا خديجة»، وكما قال له ربه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المُزَّمِّل:٥]»[3].

ولا بد من تجوال، وذهاب وإياب، ولفحة شمس.

قـــــد ترحلنا من الفـــــج العميق لا نبالـــــي بقريب أو ســـــحيق

قد غنينـــــا عن مبيـــــت ومقيل وعن الأمواه والظـــــل والظليل[4]

(١) أصول الدعوة، ص١٤٥.
(٢) ديوان الزوابع (٥٦).
(٣) الظلال (١/ ٩٦).
(٤) الزوابع (٥٦).

ثم بعد هذا لا بد من تفويت فرص دنيوية.

وما أحلى هذا التفويت عند الداعية وما ألذه! ولكن من لا عقيدة لهم ولا منهج في الحياة ممن حوله؛ من أقاربه ومعارفه وجيرانه في السكن والسوق والوظيفة، يظنون ذلك حرماناً، ويدعونه -من باب الرفق به- لأن يغمض عينه عن أمور وأمور؛ لئلا يحرم نفسه من فرص شراء وترقيات يتمنونها له.

وقديماً، تعرض الداعية الزاهد الثقة محمد بن كناسة الكوفي لمثل هذا الرفق الموهوم، فأرسلها أبياتاً رائعة، كانت جواباً لصحبه، وأرادها لكل الدعاة من بعده، يرسلونها جواباً أن أعوزتهم البلاغة.

يقولون لو غمّضت لازددت رفعة ... فقلت لهم: إنـــي إذن لحريص

أتكلـــم وجهي لا أبـــا لأبيكم ... مطامع عنها للكـــرام محيص

معاشي دوين القوت والعرض وافر ... وبطني عن جدوى اللئام خميص

ســـألقي المنايا لم أخالط دنية ... ولم تسر بي في المخزيات قلوص[1]

وإنما التغميض شرعة الأذلاء والضعفاء والجماهير الخائرة.

«والضعف ليس عذراً، بل هو الجريمة، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله، وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه في الحرية -التي هي ميزته ومناط تكريمه- أو أن ينزل كارهاً، والقوة المادية -كائنة ما كانت- لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه، أما الروح، أما العقل، فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها للحبس والإذلال!

(١) الأغاني (١٣/ ٣٤٠)، والجدوى: العطية، والخميص: الضامر، والقلوص: الناقة.

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟! من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟! لا أحد، لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة، فهم ضعفاء، لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً، كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء، إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان!

إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة، فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ وماذا الذي يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان!

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير؛ فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت؛ فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء، وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة»[1]!

«إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم، يتألهون عليهم، ويشرعون لهم -سواء القوانين أو القيم والتقاليد- وما أولئك بالمؤمنين، فالمؤمن لا يدع عبداً من العبيد يتأله عليه، ولا يجعل عبداً من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره»[2].

أما نحن فنستعلي دائماً؛ لأننا نحن أبناء ذلك الصقر السامي الذي أوصى ابنه، فسمعه إقبال يقول:

(١) الظلال(١٣/ ١٥٠).
(٢) الظلال (٩/ ٢٢).

ولقطـــــك حباً بـــــأرض خطاء حبانـــــا الإله عنان الســـــماء[1]

وقد أعزنا الله بهذا الجهاد، والبذل، والتجرد، وتحدي أئمة الكفر، وكل ذلك سمو وعلو، وما ينبغي لنا أن نسفل ونزاحم على لقط الدنانير مع اللاقطين، ولا ولوج أبواب الثراء بالتغميض مع الوالجين.

وكما كان استعلاؤنا بداية وتوسطاً سيكون نهاية، حين يحس أحدنا عند موته أنه قد أدى دوراً ولم يكن هملاً، وأنه سار ضمن موكب الإيمان وقافلته، ووصل عمل من مضى، يعمل من دعاهم ورباهم ممن سيواصلون السير من بعده.

وحسب أحدنا أنه كان يقف كل يوم على قارعة الطريق، ويتفرس الوجوه، ويستوقف صاحب وجه طلق صبوح، فيسره وما هو بالسر:

لا بـــــد للعالـــــم أن يهتـــــدي هات يـــــد العزم فهـــــذي يدي

ولترتفـــــع رايـــــة قرآننـــــا[2]

فيأخذ بيده ويمضي، بعد أن يثبت له أن وجود دعوة الإسلام سُنة كونية.

ويكفيه أن يده التي مدها، قد صافحتها من أيادي العزم العشرات، إنها ثروته من بعده، وما أجملها من ثروة!

وإنه رصيده الذي سيلقى به الله، وما أحراه بالقبول من رصيد.

وإنهم المستغفرون له من بعده بلسان واحد: «اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله»، «اللهم لا تحرمه أجرنا إنه هو دعانا»، ولمثل هذا الاستغفار يعمل من له قلب فقيه.

(١) ديوان رسالة المشرق لإقبال (٤١).

(٢) لوليد في ديوان أغاني المعركة (١١٠).

العبد الحر![1]

إن مسلماً قيل له: «ذر غير الله»، فنبذ ما هنالك، ونودي بالسير مع الهمم العالية، والاستعلاء في الطريق العالي، فانتفض، وأفلت من قيود الأرض، وحلق بجناح العزة؛ هو مسلم حري به أن يتم انتفاضته بخطوة تميز واضحة، أو كما قال سيد ﷺ: «إنَّ أولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم، كيما يظل المنهج نظيفاً سليماً، إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى»[2].

وهذا يعني قيام مفاصلة شعورية وفكرية في ضمير المسلم، ينفصل فيها التحديد الإسلامي الواضح للمعاني الثلاثة المهمة المكونة لكل منهج، وهي: معنى الوطن، ومعنى الحاكم، ومعنى الدستور، عن الإطلاقات الجاهلية في تفسيرها، وعما بعد الإطلاق من اختلاف اجتهادات العقول.

«فالأمة الإسلامية قد حدد الله تعالى مقوماتها، وجعل الجنسية فيها هي العقيدة والوطن فيها هو دار الإسلام، والحاكم فيها هو الله، والدستور فيها هو القرآن».

هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر على قلوب أصحاب الدعوة إلى الله، والذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوضار التصورات الجاهلية الدخيلة، ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية.

(١) مجلة «المجتمع» العدد (١٠٧)، ٢٣ جمادى الأولى ١٣٩٢هـ/ ٤ يوليو ١٩٧٢م، ص٢٢-٢٥.
(٢) الظلال (٤/ ٢١).

«الشرك بالأرض، والشرك بالجنس، والشرك بالقوم، والشرك بالنسب، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة»[1].

وحملة الإسلام إنما ينطلقون بهذا المفهوم الإسلامي الواضح، ويعلنونه، دونما ملاطفة لأفكار الكفر الأرضية، ولا مهادنة، ولا محاولة استرضاء، وإنه لأمر جازم من الله لهم أن: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ [غَافِر:١٤].

«ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله، وأن يدعوه وحده دون سواه، ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لاطفهم المؤمنون أو هادنوهم أو تلمسوا رضاهم بشتى الأساليب».

«فليمض المؤمنون في وجهتهم، يدعون ربهم وحده، ويخلصون له عقيدتهم، ويصفون له قلوبهم، ولا عليهم رَضِيَ الكافرون أم سخطوا، وما هم يوماً براضين!»[2].

فما دامت هذه النتيجة حتمية، وأن الكافرين لن يرضوا عن المؤمنين، فليسلك الدعاة إذاً ما يناسبها من مقدمات ترد على تمرد الكفر ورفضه الإيمان.

ولن يكون هذا الرد غير التميز، والانفصال عنه، طالما أنه ليس هناك لقاء، فإن المنطق يقتضي الانفصال إذاً، كما فاصل النبي ﷺ كفار قريش في العهد المكي، وكما فاصل كل القبائل بعد الهجرة.

ولم تكن تلك المفاصلة النبوية الكريمة مجرد اضطرار لجأ إليه في حقبة تاريخية تبدو لنا آخذة دورها في تسلسل تاريخ الدعوة النبوية، وإنما كانت حقيقة إيمانية ودلالة نعمة ربانية، من شأنها أن يلتفت لها المؤمنون، وتلمس هذا في أن رسول الله ﷺ كان يذكرهم بها، ويتخذها عاملاً تربوياً للذين معه، فيقول لما صلى بهم يوماً صلاة

(١) معالم في الطريق، ص١٤٦.
(٢) الظلال (٢٤/ ٦٠).

العشاء قريباً من نصف الليل: «أبشروا، إن من نعمة الله عليكم أنه ليس من الناس أحد يصلي هذه الساعة غيركم»[١]، وذلك «قبل أن يفشو الإسلام في الناس»[٢]، كما يقول الراوي، إنه جعلها بشرى ونعمة ربانية، وكذلك تربى نفوس المؤمنين على معاني الاستعلاء وتوكيد إلحاحهم في تحدي الجاهلية كلها مهما فشت وعمت وانتشرت وكثر أصحابها، ومهما قل عدد المسلمين وانحصروا في دويرة صغيرة، كما كانوا في دويرة المدينة ومن حولهم هذه الجزيرة العربية الواسعة الأطراف، الكثيرة القبائل.

وألمس عظم أثر هذه التربية، وتحولها إصراراً وثباتاً في الدين، وتجديد عزم على المضي، حين يقول من سمع هذه البشرى: «فرجعنا فرحين بما سمعنا من رسول الله ﷺ».

فتصور هذه الدويرة الإسلامية المتميزة في الجزيرة الكافرة، كانت هناك طليعة إسلامية «تزاول نوعاً من العزلة من جانب، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة»[٣].

وهي في الحقيقة استمرار للمفاصلة التي كانت في العهد المكي، فظهرت في المدينة بصورة كاملة وواضحة، وما كانت نفوس المسلمين لتصبر في المدينة على لوازم هذه المفاصلة لو لم تكن قد ربيت قبل الهجرة تربية صلبة عميقة على أولوياتها ومقدماتها، فيومها «في مكة لم تكن للإسلام شريعة ولا دولة، ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية، ويمنحون ولاؤهم من فورهم للعصبة المسلمة، كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها، وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية

(١) صحيح مسلم (٢/ ١١٧).
(٢) صحيح مسلم (٢/ ١١٥).
(٣) معالم في الطريق (٩).

بمجرد نطقهم بالشهادتين»[١].

كان «الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين، هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه، والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع»[٢].

فلما تجلى هذا التميز بصورة أوضح في المدينة، صار المجتمع الإسلامي مناراً واضحاً في تلك الصحراء، يأوي إليه الهائم والمتشكك، ومن يحتدم في قلبه الصراع بين الإيمان والكفر الموروث.

فلما اتسع المجتمع الإسلامي، وانتصر، ودانت كل الجزيرة بدين الله؛ استمرت هذه الحاجة إلى مفاصلة بقايا الجاهلية، المتمثلة ببقايا النفاق واتباع الشهوات.

وهي مفاصلة ثانية، واجبة أيضاً.

فكما أن المفاصلة الأولى أفادت في إيجاد عزة الإيمان في نفوس المفاصلين، وفي جعل المدينة مناراً يأوي إليه الحائر، فإن المفاصلة الثانية كانت ضرورية للحفاظ على نقاوة جهاز دولة الإسلام، المحافظ على سمات حكمه، وفقهه وتربيته وفتوحه.

ومن هنا، دعا عمر بن الخطاب ﷺ إلى هذه المفاصلة الثانية بعبارة جامعة رائعة، فقال: «إن لله عباداً يميتون الباطل بهجره، ويحيون الحق بذكره»[٣].

وقد استعمل كلمة الهجر للدلالة على المفاصلة التي نعنيها، وهذا يعني أن عنصر النفاق واتباع الشهوات كلما زاد في المجتمع؛ زادت هذه الحاجة إلى هذا النوع الثاني من المفاصلة، بعملية طردية، ليبقى الباطل باطلاً مشاراً إليه بإصبع

(١) الظلال (٩/ ٢٨٠).
(٢) الظلال (٩/ ٢٨٠).
(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف (١٣).

الاتهام، ولئلا يحيله التقادم إلى حق موهوم في ذهن الذين لا يعون، فينطلي زوره، وينسى الناس اعوجاجه، ولئلا تستسيغه النفوس من بعد، حين يطول الأمد.

ولذلك، فإن الدعوة الإسلامية اليوم لا بد لها إزاء زيادة النفاق والفسق واتباع الشهوات في المجتمع الحاضر من هذه المفاصلة، ومن هذا التميز، بشكل واضح صريح، لتبقى الصورة الإسلامية جلية واضحة بدورها، يمكن أن ينظر إليها من يبتغي النظر إليها، ممن تحفزهم كلمات الدعاة لمحاولة اكتشاف أبعاد هذه الصورة، والتفتيش عنها، وتلمس مثل تطبيقي لها.

والحقيقة، إنه وإن افتقد الدعاة في هذا القرن صورة حكم إسلامي يصلح مثلاً لتطبيق الإسلام، إلا أن هذا المثل يمكن أن يتجلى في بضعة أشخاص من الدعاة، تتضح فيهم معاني الإسلام، ويكتسبون من هيبته، ويبلغون الذروة في الإيمان والتجرد وتطبيق السُّنة النبوية الشريفة.

وهذا هو معنى «القدوة» في صورتها البسيطة.

إن وجود «القدوة الإسلامية» يعني وجود شخص يدرك الناظر إليه أنه مستقل في فكرته وعقيدته، وسكناته وحركاته، عما حوله وعمن حوله، منفصل عنهم، تميزه الأبصار قبل المعاملة، بما تعلو وجهه من معالم السكينة والهيبة والحزم التي شاء الله أن ينفرد بحيازتها المسلم دون غيره، فيعوض بذلك عن صورة الحكم الإسلامي المفتقد، ويكون بديلًا لها، وبرهاناً على أن الإسلام قادر أن ينتج مثل هذه النماذج الإنسانية الرفيعة، أو بالأحرى: يكون برهاناً على أن مثل هذه النماذج لا ينتجها غير الإسلام.

وأبو القاسم الجنيد ﵀ يعبر عن هذا الانفصال للقدوة الإسلامية بعبارة «الحرية مما سوى الله»؛ أي ليس بينه وبين ما سوى الله رابطٌ أو قيدٌ أو نسبٌ أو ميل ورغبة،

بل هي الحرية بمدلولها الذي يفهمه كل حر، فيقول: «لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً»[١].

ويعبر مرة أخرى عن هذا الانفصال بأنه «عبودية الأحرار» أو «حرية العبيد»، فيصوغ سطراً بليغاً رفيعاً جداً يغني عن عشر مجلدات، ويقول: «إنك لا تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية»[٢].

فلأن الإسلام كله عبودية لله تعالى، فإن العبد التام العبودية الذي سماه الجنيد هو وحده الحر في هذا الوجود دون غيره من أسارى الشهوات واجتهادات العقول القاصرة.

وهذا التعبير الجميل ورثه الجنيد عن أفضل الزهاد العباد الفضيل بن عياض ﷺ، إذ أبرز الفضيل بمقابل الحرية مما سوى الله؛ واجب المسلم في تجريد الربانية له وإطراح كل ربانية لأحد من الخلق يريد أن يفرضها عليه بثمن مادي، أو بالقسر والإكراه، فيقول الفضيل: «والله، ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية»[٣].

وقد أتينا على بعض خبر هذه الربانية المزورة المدعاة حين دعوناك أن تذر غير الله وأوضحنا تمثلها في صور التشريع، والقيم، والتصورات، والمناهج.

فالمسلم يفرد الله بالعبادة، وإفراده بالعبادة يقتضي أن يعلن بصراحة ووضوح براءته مما يعبد الغير، ومما يشرعون لأنفسهم، ويجهر بذلك مفاصلاً، كما فاصل نبي الله هود عليه السلام قومه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٥٩٨).
(٢) الرسالة القشيرية (١٣١).
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٥٩٩).

دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾﴾ [هُود:٥٤-٥٧].

«إنها انتفاضة التبرؤ من القوم -وقد كان منهم وكان أخاهم- وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً، وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة، وقد أنبتت بينهما وشيجة العقيدة.

وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم، كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم، وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه، ومع ثقة الإيمان واطمئنانه! وأن الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي، ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم، ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم.

إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد، ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب؛ إنه الإيمان، والثقة، والاطمئنان.. الإيمان بالله، والثقة بوعده، والاطمئنان إلى نصره.

الإيمان الذي يخالط بالقلب، فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة، لأنها ملء يديه، وملء قلبه الذي بين جنبيه، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب، إنما هي حاضر تتملاه العين والقلب[1].

(١) الظلال (١٢/ ٩٧ - ٩٨).

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هُود:٥٦].

فهي القوة والاستقامة والتصميم، وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي، إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود عليه السلام في نفسه من ربه، إنه يجد هذه الحقيقة واضحة، إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر:﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هُود:٥٦]، وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهراً، فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها، وهي لا تسلط عليه، إن سلطت إلا بإذن ربه؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه؟

إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه، لا تدع في قلبه مجالاً للشك في عاقبة أمره، ولا مجالاً للتردد عن المضي في طريقه.

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبداً[1].

وقد فقه الإمام البنا ﷺ هذه النظرية في المفاصلة، فنادى بوجوب تربية النشء وفق معانيها، وأوضح أن مستقبل الإسلام إنما يعتمد على «هذا النشء الجديد، فأحسنوا دعوته، وجدوا في تكوينه، وعلموه استقلال النفس والقلب، واستقلال الفكر والعقل، واستقلال الجهاد والعمل واملؤوا روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن، وجندوه تحت لواء محمد ورايته، وسترون منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه ويسعد غيره»[2].

فهو قد عبر عن المفاصلة بالاستقلال، كما عبر عمر بن الخطاب ﷺ عنها بالهجر، فاستقلال النفس والقلب هو المفاصلة الشعورية في الضمير، والعزة، والاستعلاء

(١) الظلال (١٢/ ٩٧ - ٩٨).

(٢) المجموعة (٣١٩/ ٣٢١) تحت راية القرآن.

واستقلال الفكر هو عدم خلط الشريعة بالتصورات الأرضية المبتدعة التي أضلت الأحزاب، واستقلال العمل هو التميز في الصف، وترك الأحلاف.

وكما أنها مهمة هؤلاء الدعاة في تربية النشء، فإنها مهمتهم في وجوب الانتباه لنفوسهم، والثبات على هذه المفاصلة، أو كما قال الإمام: «لا تصغروا في أنفسكم، فتقيسوا أنفسكم بغيركم، أو تسلكوا في دعوتكم سبيلاً غير سبيل المؤمنين، أو توازنوا بين دعوتكم التي تتخذ نورها من نور الله، ومنهاجها من سُنة رسوله، بغيرها من الدعوات التي تخلقها الضرورات، وتذهب بها الحوادث والأيام»[1].

ومن مكملات ذلك وضروریاته حفظ صفاء الابتداء ونقاوته، وكما يجب على الداعية أن يحفظ لمن يدعوهم الهمة، ويسيرهم مع الهمم العالية، فإن عليه أن يحفظ لهم صفاء الابتداء، فإن الأيام الأولى للسير في طريق الدعوة تحسم مدى الصفاء مثلما تحسم منزلة الهمة.

إن من يفتح عينه على المفاهيم الإسلامية النقية المستمدة من القرآن والسُّنة فحسب، غير المشوبة بترهات غير إسلامية، فإنه يبدأ وينشأ ويشب ويشيب ويموت على هذه المفاهيم، ومن سقي المخاليط ذات الشوائب صعبت عليه التنقية بعد.

ولقد وعى أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر آباذي (ت ٣٦٧هـ) هذا المعنى أروع الوعي، فقال: «ما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء، فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء»[2].

فأحسن البداية وأتقنها يا داعية الإسلام.

(١) المرجع السابق.
(٢) طبقات الصوفية للسلمي (٤٨٨).

الأبرار الساكتون الهالكون[1]

تحليل الأحداث، وتفسير التاريخ، وتسمية المقدمات الخفية المؤدية إلى النتائج المنظورة، كل ذلك إنما يتبع العقيدة التي يحملها الشخص المحلل المفسر، والميزان الذي يزن به الأمور، والظواهر الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية.

ومن هنا اختلفت التفاسير والاجتهادات اختلافاً بيناً واضحاً، وصار المؤمن ينظر أشياء من العلاقات بين النتائج وبعض الأحداث والأحوال نظراً واضحاً كأنها أمام عينيه، ويلمسها بيده ويفركها، فتزول قشورها التي تحجبها، بينما لا يراها الكافر والجاهلي أو الفاسق الذي طبع على قلبه وتغلف بأغلفة الشهوات والغفلات.

إن هذا الاختلاف مرده اختلاف الميزان فحسب، ومن أهم الظواهر التاريخية التي يختلف في تفسيرها وتحليلها ظاهرة الاضطراب الاجتماعي والتراجع والخراب المدني من بعد التقدم العلمي والعمراني والفني، واستمرار التقهقر التدريجي، حتى ربما يختم بدمار كامل فجائي بقوة غير عادية.

فالكفار والفسّاق يدورون في حلقة مفرغة من التعليلات لهذه الظاهرة كلها أوهام، أما المسلم فله قول فصل واحد في تفسير هذه الظاهرة مستمد من كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، وأوجزه الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجملة واحدة جامعة حين سئل: «أوشك القرى أن تخرب وهي عامرة»، قال: «إذا علا فجارها على أبرارها».

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٠٨)، ٣٠ جمادى الأولى ١٣٩٢هـ/ ١١ يوليو ١٩٧٢م، ص٢٢-٢٣.

هذا هو السبب، والداء الدوي.

إنه علو الفجار على الأبرار سبب الاضطراب والخراب، يعلو الفاجر، فيولي أمثاله الأمور.

ولا ينفك كل فاجر أن يكون أسير شهواته، فيطبَعُ على قلبه، ويعيش في غفلة عن ارتياد ما فيه منافع قومه، ثم يكون أسير مصالحه، فيظلم ويشتط ويتعسف، فتهدر بالتالي طاقات كثيرة، وتتوارى الكفايات، تطلباً لنفسها الستر ستر عرضها من الاعتداء، وبدنها من العذاب، ويعود لا يتصدى لأمور الأمة إلا كل جاهل أناني، فيعم الاضطراب الاجتماعي، ثم من بعده الخراب الاقتصادي والمدني العلمي.

والله سبحانه شديد الغيرة على دينه، وعلى أعراض العباد فيمهل الأمة حين يعلو الفاجر، ويحب أن تبادر جماعة من عباده الأبرار لإصلاح الحال ومنازعة الفجار والتطويح بهم، لترجع الأمور إلى نصابها ويعود العمران، فإن بادرت فرقة أمر ملائكته بنصرهم وفتح عليهم ينابيع فضله وبركته وتوفيقه، وإلا فإنه يمهل أخرى، من بعد أخرى، حتى إذا تمادى الفاجر في فجوره، وحتى إذا تمادى الأبرار في خوفهم وجبنهم وسكوتهم وقعودهم عن النهي عن المنكر؛ اشتد غضب الله، فإذا غضب عم وشمل غضبه الفجار بما فجروا وظلموا، والأبرار بما سكتوا وتقاعسوا ورضوا الذلة، وقد دلت الآيات والأحاديث على ذلك، كما في تعقيبات شيخ الإسلام وإمام الدعاة تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني على قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال:٢٥]؛ قال ﷺ: وقرأ طائفة من السلف: «لتصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة»، وكلتا القراءتين حق، فإن الذي يتعدى حدود الله هو الظالم، وتارك الإنكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه، وقد يجعل ظالماً باعتبار ما ترك من الإنكار الواجب، وعلى هذا قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا

ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأَعْرَاف:١٦٥]، فأنجى الله الناهين، وأما أولئك الكارهون للذنب، الذين قالوا: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأَعْرَاف:١٦٤]، فالأكثرون على أنهم نجوا لأنهم كانوا كارهين، فأنكروا بحسب قدرتهم، وأما من ترك الإنكار مطلقاً فإنه ظالم يعذب، كما قال النبي ﷺ: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»، وهذا الحديث موافق للآية، والمقصود هنا أنه يصح النفي والإثبات باعتبارين، كما أن قوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأَنفَال:٢٥]؛ أي لا تختص بالمعتدين، بل يتناول من رأى المنكر فلم يغيره.

ومن قرأ: «لنصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» أدخل في ذلك من ترك الإنكار مع قدرته عليه.

وقد يراد أنهم يعذبون في الدنيا، ويبعثون على نياتهم، كالجيش الذين يغزون البيت، فيخسف بهم كلهم، ويحشر المكره على نيته، ويلاحظ سيد رحمه الله هنا، في معرض كلامه عن الآيات التي استشهد بها ابن تيمية، أن الله سبحانه ذكر نتيجة الذين ينهون عن السوء، وهي النجاة، ونتيجة الذين ظلموا، وهي إصابة العذاب البئيس لهم، أما الذين أنكروا بقلوبهم فقط ولم ينهوا عن المنكر؛ فإن الله سبحانه لم يبين لنا نتيجتهم، ولم يقص علينا خبرهم، بل أهمل ذكرهم، والإهمال نوع جزاء لمثل هذه الطائفة؛ «تهويناً لشأنها -وان كانت لم تؤخذ بالعذاب- إذ إنها تعدت عن الإنكار الإيجابي، ووقفت عند حدود الإنكار السلبي، فاستحقت الإهمال، وإن لم تستحق العذاب»، فإنه رحمة الله يقول: إنه حتى ولو استبعد القول الأول، من تعذيبهم لعدم الإنكار، فإنهم ما نجوا من عقاب الإهمال والنزول عن الدرجات الفاضلة، والمؤمن

يحرص على المنازل العالية.

والحقيقة أن أكثر من تكلم في هذه الآيات ذكر أن هؤلاء الذين سكتوا نالهم العذاب بسكوتهم، وشملهم العقاب، وللقرطبي في تفسيره تصريح واضح بذلك.

ووصف بعض الأفاضل هذا العقاب بأنه «قانون العقاب الجماعي في سُنة الله الكونية»، وهو «قانون رهيب مخيف يدفع كل ذا علم وفقه، وكل ذي حكم وسلطان، إلى المسارعة والمبادرة، فوراً لتغيير المنكر، دفعاً للعذاب عن الكل»[1].

«وهذا اللزوم أشد بالنسبة للحكام، لأن بأيديهم السلطة والأمر والنهي، وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فإذا أصلحوا الأحوال حسب أحكام الشرع وأزالوا المنكر، وأقاموا العدل، وقضوا على أسباب المعطيات؛ أثابهم الله تعالى حسن ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، ومكن لهم في الأرض، وإن هم تقاعسوا عن ذلك انطبق عليهم حكم الله وجرت عليهم سُنته، وخسروا الدنيا والآخرة، نعوذ بالله من الخذلان»[2].

وصاحب القلب الحي يحس بفطرته الإيمانية أن الذي يعيشه ذراري المسلمين اليوم من نكسات وهزائم وتراجعات إنما هو مقدمة ونذير بين يدي ما هو أشد وأنكى من عذاب، والأمة الإسلامية اليوم لا يصدق عليها اسمها كل الصدق، فإن الانحراف قد أصابها، «ويكفي الأمة انحرافاً أنها تركت الجهاد في سبيل الله، وأخلدت إلى الأرض، ورضيت بالحياة الدنيا من الآخرة، وأقبلت على الشهوات تعب منها، وأسرفت في المعاصي، حتى أذلها الله، وخذلها الخذلان الأكبر، وجعل قيادتها في أيدي المنحرفين العابثين»[3].

(١) مجلة التربية الإسلامية (٦/ ٢٦).
(٢) المرجع السابق.
(٣) معركة الإسلام للأستاذ الصواف (٢٤).

ووعي هذه الحقيقة يلزم من علت همته، واستعلى في الطريق العالي، وفاصل ووصل إلى صريح الحرية، وأكمل بقية العبودية، أن يرفق بنفسه، ويرحمها، ويتجنب أن يمسه هذا القانون العقابي الرهيب.

وإنه لحصار شديد هو محاصر فيه الآن.

لا يكفيه مجرد أن يذر غير الله، بل لا يكفيه أن يفلت من خطط ترويض الأشبال وتحويلها إلى ظبيات جفولة.

بل لا يكفيه مجرد الاستعلاء والسير في الطريق العالي.

ليس له من طريق نجاة من هذا الحصار الذي يحاصره به هذا القانون الرهيب إلا قوة يستطيع أن يفلت منها؛ قوة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنازعة أهل المنكر، وسلوك سبيل الدعوة، والإهابة بالأمة أن تسارع إلى الصلاة وتحكيم شرع الله، من قبل أن يجرفهم «قانون التماثل» الذي هو من سُنة الله العامة في الكون، فيهلكوا، ويصيبهم العذاب، من بعد أن ارتكبوا مثل العصيان الذي أهلك الله بسببه الغابرين، فإن النظير يأخذ حكم نظيره، وأن ما يجري على الشيء يجري على مثيله، ويستحيل أن يفترق المتساويان في الحكم، كما يستحيل أن يتساوى المختلفان في الحكم.

وهذا القانون يسري حكمه على الأفراد والأمم على حد سواء، وفي أحوال الدنيا والآخرة.

وعلى هذا دل القرآن الكريم، فمن ذلك.

أ- قوله تعالى مبيناً ما جرى لليهود من بني النضير من نكال في الدنيا بسبب كفرهم ونقضهم العهد وكيدهم للرسول ﷺ وللمؤمنين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحَشْر:٢] .

فقوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ صريح الدلالة على قانون التماثل، إذ إن من معناها: تأملوا يا أصحاب العقول السليمة بما وقع لهم، واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم إذا فعلتم مثل فعلهم، فإن سُنة الله واحدة تجري على الجميع، وأن ما يجري على شيء يجري على نظيره يوضحه أن الاعتبار لا يتأتى مطلقاً ولا يكون للأمر به فائدة إلا إذا كان المثيل يأخذ حكم مثيله.

ب- قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٣﴾ [يُونُس:١٣]، فقول الله تعالى:﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٣﴾ دليل على أن ما جرى للمجرمين السالفين يجري على المجرمين اللاحقين، فالنظير يأخذ حكم نظيره، وأن سُنة الله واحدة تجري على جميع المجرمين، والله المستعان.

جـ- قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠﴾ [مُحَمَّد:١٠]؛ دليل واضح على أن الدمار الذي حل بالكافرين اللاحقين، لأنهم متساوون في وصف الكفر والعناد والتكذيب فيتساويان في العاقبة.

د- قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النِّسَاء:١٢٣]؛ فالجزاء يلحق فاعل السوء أيًا كان، دون محاباة ولا تمييز ولا تخلف.

هـ- قول الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القَلَم:٣٥-٣٧]، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجَاثِيَة:٢١]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص:٢٨].

فالقرآن شاهد على صحة قانون التماثل بشقيه؛ أي التساوي في الحكم والعاقبة بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين.

فإذا بهم المسلمون مدلول هذه الآيات القرآنية التي ذكرناها للتدليل على صحة قانون التماثل وأمثالها من الآيات الأخرى، التي فيها ذم للأقوام السابقة، كاليهود وغيرهم، لتلبسهم بالأفعال القبيحة والأوصاف الذميمة؛ عرفوا أن الذم كان لهذه المعاني، وأن الذم يلحقهم لا محالة إذا فعلوا فعالهم، وأن العاقبة السيئة تصيبهم كما أصابتهم، فلا يغرهم مجرد انتسابهم للإسلام من دون عمل وانصباغ بمقتضاه»[(١)].

وقد جعل ﷺ هذا القانون من قواعد الهدي الإسلامي، وبين في المحاضرة الخامسة من المحاضرات التي ألقاها بمدينة مدراس الهندية «أن الأمم والجماعات مأخوذة بأعمالها في هذه الحياة، ولهذا يكثر القرآن من قصص الماضين ويأمر بالنظر في تجارب الأمم، غابرها وحاضرها»[(٢)].

إن هذه القوانين الرهيبة المفزعة لا يفهمها أكثر الناس، وليس لهم استعداد للتصديق بها، إنما يفهمها الدعاة إلى الله فحسب، ولا بد لهم من مسارعة إلى القيام بواجب النهي عن المنكر، ليأمنوا من فزع يومئذ.

(١) مجلة التربية الإسلامية (٦/ ٢٣).

(٢) كتاب «محمد إقبال» لعبدالوهاب عزام، ص١٢٠.

أيها الأبرار الصالحون..

أيها الزهاد العابدون..

أمامكم خطر القانون الرباني الرهيب أن تخارستم.

لا يغرنكم زهدكم ولا صلاتكم.

انطقوا بالحق، وانهوا عن المنكر، وإلا.. فهو الهلاك.

وجوب الدعوة إلى الله[1]

إنها رهبة تفزع المسلم حقاً، تقذفها تلك التهديدات التي خاطب الله تعالى بها من يصمت ويتخارس ويدع النهي عن المنكر.

ويظل الأخرس قلقاً أبداً، محروماً من الطمأنينة والسكينة الإيمانية، فإنها حكر خالص لأصحاب اللسان الناطق بالحق، الذين يبشرون الناس بالجنة، وبسماحة الإسلام وعدله، وينذرونهم عذاب جهنم وقانون التماثل في العقاب الرباني، فيرثون النبي ﷺ في ذلك، كما وصفه الله تعالى، حين قال: إنه أرسله بشيراً ونذيراً، أو بالاصطلاح الآخر: الذين يدعون إلى الله، أو باصطلاح بعض الفقهاء: الذين يحتسبون؛ أي يقومون بمهمة الحسبة؛ أي احتساب الأجر عند الله في أداء النصيحة والأمر والنهي.

وقد تعرض ابن تيمية ﷺ لتعريف الدعوة، فقال: الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقها فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أُمروا»[2].

الدعوة والدعاة في اللغة والاشتقاق:

وكلمة «الدعوة» هذه هي مصطلح إسلامي، وهناك علاقة وثيقة بين مدلول اللفظ في الأصل اللغوي، واستعمال اللفظ كمصطلح إسلامي صرف، ليس لبقية المعتقدات ناقة فيه ولا جمل.

وأول ما ننظر إلى كون اللفظة فعلاً، وهو «د ع و» على زنة «فعل»، وفي العربية، إذا سبق حرف العلة «الواو» حرف مفتوح قلب الواو ألفاً، فتصبح «دعا».

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٠٩)، ٧ جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ/ ١٨ يوليو ١٩٧٢م، ص٢٦-٢٨.
(٢) مجموع الفتاوى (١٥٧/ ١٥).

ونجد أن هذا اللفظ لا يحمل إلا معنى واحداً، وهو: أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك. (انظر: معجم مقاييس اللغة (٢٧٩/ ٢)).

والإمالة هنا مقتصرة على شيئين؛ الصوت، والكلام، اللذين يخرجان من محدثهما، وحين ذاك لا يكون لهذا اللفظ مدلول آخر، فأنت حين تقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصِّلَت:٣٣] تفهم أن الله تعالى فضل من دعا إليه بأنه أحسن «قولاً» ممن لم يدع إليه.

ومشتقات هذا الفعل لم تخرج في مدلولاتها عن هذا المعنى أبداً، فالمصدر منه مثلاً هو: دعاء، والأصل: دعاو، لأنه -كما هو معروف- من دعوت، إلا أن الواو لما جاءت بعد الألف قلبت همزة، وقد يأخذ المصدر أشكالاً أخرى من الأبنية، يقول الجوهري: «يقال: كنا في دعوة فلان ومدعاة، وهو في الأصل مصدر، يريدون: الدعوة إلى..».

ويقول صاحب المحيط: «دعا دعاء ودعوى»؛ أي الإمالة والترغيب.

فمن مجموع ما تقدم نفهم أن الصلة وثيقة بين مدلول الفعل دعا في اللغة، ومدلوله فيما اصطلح عليه القرآن الكريم، فقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النَّحل:١٢٥] يدل على الإمالة والترغيب.

والذي يقوم بأمر الدعوة ويحمل عبئها ليبلغها إلى الناس هو الذي يطلق عليه الإسلام «الداعي» أو «الداعية»، والداعي اسم فاعل من الفعل دعا يدعو، أما الداعية فهو بناء اسم الفاعل أيضاً مع تاء تلحق في آخره لتدل على المبالغة والتكثير، وإذا أردنا الجمع قلنا «دعاة» والجمع السالم «داعون» و«داعيات»[1].

(١) من مقال الشاعر الأستاذ رشيد الأعظمي في مجلة التربية الإسلامية (٤٧١/ ٥) مع بعض حذف.

الدعوة وظيفة الرسل وأتباعهم:

«والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به، ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه، أمر بكل معروف، ونهى عن كل منكر»(١).

«والواقع أن الدعوة إلى الله هي وظيفة رسل الله جميعاً، ومن أجلها بعثهم الله تعالى إلى الناس، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومن أرسلوا إليهم إلى الإيمان بالله، وإفراده بالعبادة، على النحو الذي شرعه لهم، قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف:٥٩].

وهكذا جميع رسل الله دعوا إلى الله، إلى عبادته وحده والتبرؤ من عبادة سواه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النَّحل:٣٦].

فرسل الله هم الدعاة إلى الله، وقد اختارهم الله لحمل دعوته وتبليغها إلى الناس»(٢).

«وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب، من باطن وظاهر، فمن الدعوة إلى الله الأمر به، وكل ما أبغضه الله ورسوله، من باطن وظاهر، فمن الدعوة إلى الله النهي عنه.

لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله، ويترك ما أبغضه الله، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة»(٣).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٦١/ ١٥).
(٢) أصول الدعوة، ص٢٦٨.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٦٤/ ١٥).

ما ورد في القرآن الكريم من آيات الدعوة والأمر والنهي

ووردت في القرآن آيات كثيرة توجب الدعوة إلى الله، منها ما تخاطب النبي ﷺ، فتدخل أمته في الخطاب تبعاً له، ومنها ما خاطبت الأمة مباشرة.

فمن الآيات التي تخاطب النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص:٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد:٣٦].

«وهذه الآيات يدخل فيها المسلمون جميعاً؛ لأن الأصل في خطاب الله لرسوله ﷺ دخول أمته فيه إلا ما استثنى، وليس من هذا المستثنى أمر الله تعالى له بالدعوة إليه، ومعنى ذلك أن الله تعالى أكرم هذه الأمة الإسلامية وشرفها أن أشركها مع رسوله الكريم في وظيفة الدعوة إليه»[1].

وأما الآيات التي تخاطب الأمة وتوجب عليها أن تأمر وتنهى فكثيرة، لا تدع عذراً لمتقاعد متخوف، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

قال القرطبي: «فجعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين

(١) أصول الدعوة، ص٢٦٩.

المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام»[1].

وقد سرد الغزالي ﷺ هذه الآيات، وعقب عليها تعقيبات قيمة، قال: «قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عِمْرَان:١١٣-١١٤].

فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر؛ حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[2].

«وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّ كَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المَائِدَة:٧٨].

وقال عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عِمْرَان:١١٠].

وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ بيَّن أنهم كانوا به خير أمة أُخرجت للناس.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأَعْرَاف:١٦٥].

فبيَّن أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، ويدل ذلك على الوجوب أيضاً.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ

(١) تفسير القرطبي (٧٤/ ٤)، نقلاً عن أصول الدعوة، ص٢٧٠.
(٢) إحياء علوم الدين (٣٠٧/ ٢).

بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤١].

فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المَائِدَة:٢].

وهو أمر جزم، ومعنى التعاون: الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان.

وقال تعالى: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المَائِدَة:٦٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هُود:١١٦].

فبيَّن أنه أهلك جميعهم إلا قليلاً منهم كانوا ينهون عن الفساد.

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيّٗا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾﴾ [النِّسَاء:١٣٥].

وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين.

وقال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾﴾ [النِّسَاء:١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحُجُرَات:٩].

والإصلاح نهي عن البغي وإعادة إلى الطاعة، فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، وذلك هو النهي عن المنكر»[1].

وإذن، فإن الحريص على إيمانه، الطالب للفردوس وعليين، يحرص أشد الحرص على أن ينطق بالحق، معطياً راحته ووقته وماله، بل روحه ودمه، ثمناً لما يطلب، فإن الدعوة إلى الله واجبة، لا يعذر منها أحد، إلا من كان مستضعفاً من عوام الناس، البسطاء السذج الذين لا يحسنون النطق وتدبير الأمور.

وكما أوجب الله على نبيه الكريم ﷺ أن يقوم فينذر ويدعو إلى الله، فكذلك «الدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه، وهم أمته يدعون إلى الله، كما دعا إلى الله».

وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به، ونهيهم عما ينهى عنه، وإخبارهم بما أخبر به، إذ الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يتناول الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر»[2].

«وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية، إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين، فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك، ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين»[3].

«فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة، فأمته لا تجتمع على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله

(١) إحياء علوم الدين (٣٠٧/ ٢).
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٦٥-١٦٦/ ١٥).
(٣) المرجع السابق.

وإلى رسوله.

وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه؛ إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز لم يطالب به.

وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا، وقد تسقط الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى، فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة، وفي الوقوع أخرى.

وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتبليغ ما جاء به الرسول ﷺ، والجهاد في سبيل الله، وتعليم الإيمان والقرآن.

وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعا إليه، وذلك هو الأمر به، إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به، واستدعاء له ودعاء إليه، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله، فهو أمر بسبيله، وسبيله تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر»[1].

معنى الكفاية ورد أوهام القاعدين الصامتين:

ويتوهم الكثيرون أنهم قد أذن لهم بالقعود حين قرر الفقهاء أن الدعوة فرض على الكفاية، ويختارون أنفسهم في الطائفة المتخارسة، اغتراراً بأن الدعوة إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين، وليس الأمر كما فهموا، كما هو واضح في النص

(١) المرجع السابق.

السابق، فإن لفظ القيام بها يعني حصول الشيء المأمور به في عالم الواقع وتطبيقه، واتعاظ الطائفة المأمورة فعلاً، فإذا بقية الطائفة المأمورة سادرة في غفلتها، متبعة لشهوتها، والغة في عصيانها؛ بقي جميع المسلمين تحت هذا التكليف، وعليهم أن يعينوا الدعاة إلى الله الذين يأمرون بالمعروف، ويزيدوا قوتهم، ويكثروا سوادهم، إلى الدرجة التي يكتسبون فيها الهيبة والتأثير الكافي لامتناع الطائفة العاصية من أفراد الأمة عن عصيانها ومخالفتها للشريعة، فإذا امتنعت فعلاً لزم وجود عدد من الأمرين؛ الدعاة يديمون حالة الامتناع هذه، ووسع البعض الآخر أن يسكتوا، أما قبل ذلك فلا.

ومن يستطلع حالة المسلمين اليوم يجد أن الجهود المبذولة في الدعوة إلى الله ما زالت أقل من المقدار اللازم لامتناع من يرتكب المعاصي منهم، ورأس المعاصي الحكم بغير ما أنزل الله، وبآراء العقول والأهواء والأفكار المستوردة، ومن ثم فإنه لا يسع المسلم اليوم أن يقعد عن الدعوة إلى الله، ونصرة الدعاة، والاشتراك معهم في جهودهم لاقتلاع السوء والمعاصي، وأهل السوء والمعاصي، وإحلال الخير وأهل الخير والتوحيد محل ذلك.

وجوب الدعوة إلى الله:

«فالدعوة إلى الخير- أعلاها الدعوة إلى الله- واجبة على كل مسلم بقدر استطاعته، لأن هذه الدعوة من صفات المؤمنين، ولأن الحديث الشريف أمر كل مسلم ومسلمة بإزالة المنكر حسب استطاعته، فإذا حصل المقصود بفرد أو أفراد؛ لم يطالب الآخرون بإعادة المنكر لإزالته، ولا يؤاخذون لأنهم لم يزيلوه، والشأن في المسلم المبادرة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون انتظار إلى غيره، فقد لا يقوم به الغير فيقع في الإثم، والمسلم يدعو إلى الله باعتباره مسلماً مؤمناً بالله

ورسوله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يُوسُف:١٠٨].

فلا بد للمسلم أن يدعو إلى الله، ولكن لو قدر أنه لم يدعُ شخصاً معيناً إلى الله أو لم يدعُ في وقت، وقام بالدعوة مسلم آخر، فإن الداعي يؤجر دون الأول، ولكن لو ترك المسلم الدعوة إلى الله تركاً دائماً مستمراً متعمداً، فإنه لا ينضوي تحت مفهوم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾؛ لأن أتباع الرسول ﷺ هم الذين يدعون إلى الله.

هذا، ومن معاني الفرض الكفائي أنه متوجه إلى المسلمين جميعاً بأن يعملوا لتحقيق هذا الفرض، وعلى القادر فعلاً أن يقوم بهذا الفرض مباشرة، فيكون معنى الآية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمْرَان:١٠٤] أن يقوم المسلمون بإعداد هذه «الأمة»؛ أي الجماعة المتصدية للدعوة إلى الله، وأن يعاونوهم بكل الوسائل ليتحقق المقصود من قيامهم، وهو إقامة دين الله ونشر دعوته، فإن لم يفعل المسلمون ذلك أثم الجميع؛ المتأهل للدعوة وغيره.

ويقال أيضاً: إن الدعوة إلى الله، حتى لو قلنا: إنها تجب على البعض دون البعض الآخر، باعتبار أنها من الفروض الكفائية، فإن الشرط للخروج من عهدة الفرض الكفائي حصول الكفاية بمن يقوم به، ولما كانت الكفاية غير حاصلة، فيجب أن يقوم بهذا الواجب كل مسلم حسب قدرته»[1].

(١) أصول الدعوة، ص٢٧٥.

معنى اختصاص الدعوة بالعلماء[1]

وتعرض لمن لا فقه له ها هنا شبهات وأوهام يظن معها عدم وجوب الدعوة إلى الله.

وأمر هذه الشبهات كأمر أي بدعة، إنما تستند إلى نص مجمل يمكن صرفه وتأويله إلى بعض المعاني الخاصة التي يمكن أن يتحملها النص، ولكن القواعد العامة للشريعة تأبى هذا المعنى وتدل على خلافه، أو تنقضه نصوص أخرى توجب تفسيراً آخر للنص الأول، وتكشف المعنى المرجوح فيه.

والغالب في أمر البدع أن النصوص التي يستند إليها أصحابها في ترويجها نصوص واضحة لذي الفهم السليم، ولكن الهوى يحمل على التحمل والتكلف في صرفها عن معناها الظاهر، والهوى مسلك نفسي يظهر في صور كثيرة، وتسببه دوافع كثيرة مختلفة، وهو في هذا الموطن، موطن اعتقاد أو ادعاء عدم وجوب الدعوة على جميع المسلمين، إنما يسببه في الغالب الخوف والجبن والحرص على الراحة والأسى على تفويت بعض المنافع الدنيوية التي قد تفوت الداعية بسبب أمره ونهيه.

فمن هذه الشبهات الفهم الخاطئ لقول العلماء: إن التكليف بالدعوة مختص بالعلماء؛ إذ إن «العلم» شرط ذكره الفقهاء من جملة شروط الآمر الناهي، كقول الرازي: «إن هذا التكليف مختص بالعلماء؛ لأن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير وبالمعروف والمنكر، فثبت أن هذا التكليف متوجه على العلماء لا على

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١١٠)، ١٤ جمادى الآخر ١٣٩٢هـ/ ٢٥ يوليو ١٩٧٢م، ص٢٦-٢٨.

الجهال، والعلماء بعض الأمة»[1].

ومثل هذا المعنى عند القرطبي والجصاص[2]، فاشتبه الأمر على من اشتبه عليه من ها هنا.

والحقيقة أن هناك شيئاً من الالتباس في فهم هذه المسألة؛ بسبب كلمة «العلماء» التي فسر بها هؤلاء كلمة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ الواردة في الآية باعتبار أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم.

ولا شك أن الدعوة إلى الخير -وأعلاها الدعوة إلى الله- مشروط لها العلم، ولكن العلم ليس شيئاً واحداً لا يتجزأ ولا يتبعض، وإنما هو بطبيعته يتجزأ ويتبعض، فمن علم مسألة وجهل أخرى فهو عالم بالأولى جاهل بالثانية، ومعنى ذلك أنه يعد من جملة العلماء بالمسألة الأولى، وبالتالي يتوفر فيه شرط وجوب الدعوة إلى ما علم دون ما جهل، ولا خلاف بين الفقهاء أن من جهل شيئاً أو جهل حكمة أنه لا يدعو إليه؛ لأن العلم بصحة ما يدعو إليه الداعي شرط لصحة الدعوة، وعلى هذا فكل مسلم يدعو إلى الله بالقدر الذي يعلمه كما سنبينه فيما بعد، ويكون هذا المعنى هو المقصود من قولهم أن الدعوة تجب على العلماء لا على غيرهم؛ أي على من يعلم المسألة وحكمها التي يدعو إليها، سواء كان من عامة المسلمين أو ممن نال حظاً كبيراً من العلم.

وبهذا يظهر فساد قول من قال: «إن المقصود بالعلماء هم الذين نالوا حظاً كبيراً من العلم دون سواهم، وقد يسمونهم برجال الدين؛ لأن هذه التسمية تصدق على كل مسلم، فهو من رجال الإسلام، وليست مقصورة على فئة منهم»[3].

(١) تفسير الرازي (٧/ ١٧٧).
(٢) تفسير القرطبي (٤/ ١٦٥)، وأحكام القرآن للجصاص (٢/ ٢٩)، نقلاً عن أصول الدعوة، ص٢٧٤.
(٣) أصول الدعوة، ص٢٧٤.

لا يتم الاهتداء إلا بالأمر والنهي:

ومن الشبهات أيضاً الفهم الخاطئ للآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المَائِدَة:١٠٥]، فيحجم الذي لا فقه له ممن يسمعها عن الأمر والنهي، ويتودد إلى الناس، وهذا الإحجام اعتبره -ابن القيم- من أعظم مكايد الشيطان، فيلقي الشيطان في روع البعض؛ «ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس وحسن الخلق معهم والعمل بقوله تعالى: (عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)»[1].

ويحسن في هذا الموضع أن ننقل مقالة مهمة للإمام ابن تيمية في رد هذه الشبهة، أجاد فيها وأحسن، وأغنى وكفى.

قال ﷺ: «قوله تعالى علواً كبيراً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾لا يقتضي ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا نهياً ولا إذناً، كما في الحديث المشهور في السنن عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه خطب على منبر رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه».

وكذلك في حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً في تأويلها: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك»، وهذا يفسره حديث أبي سعيد في مسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

(١) إغاثة اللهفان، ص١٣٠.

فإذا قوي أهل الفجور حتى لا يبقى لهم إصغاء إلى البر، بل يؤذون الناهي، لغلبة الشح والهوى والعجب، سقط التغيير باللسان في هذه الحال، وبقي بالقلب.

و«الشح» هو شدة الحرص التي توجب البخل والظلم، وهو منع الخير وكراهته، و«الهوى المتبع» في إرادة الشر ومحبته، و«الإعجاب بالرأي» في العقل والعلم.

فذكر فساد القوى الثلاث التي هي: العلم والحب والبغض، كما في الحديث الآخر: «ثلاثٌ مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» وبإزائها الثلاث المنجيات: «خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الغضب والرضا»، وهي التي سألها في الحديث الآخر: «اللهم إني أسألك خشيتك في السر والعلانية، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى»، فخشية الله بإزاء اتباع الهوى، فإن الخشية تمنع ذلك، كما قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النَّازِعَات:٤٠]، والقصد في الفقر والغنى بإزاء الشح المطاع، وكلمة الحق في الغضب والرضا بإزاء إعجاب المرء بنفسه، وما ذكره الصديق ظاهر، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: الزموها وأقبلوا عليها، من مصالح النفس فعل ما أمرت به من الأمر والنهي، وقال: ﴿يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾؛ وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله، وأدى الواجب من الأمر والنهي وغيرهما، ولكن في الآية فوائد عظيمة.

إحداها: ألا يخاف المؤمن الكفار والمنافقين فإنهم لن يضروه إذا كان مهتدياً.

الثانية: ألا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم، فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى، والحزن على ما لا يضر عبث، وهذان المعنيان مذكوران في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النَّحل:١٢٧].

الثالثة: ألا يركن إليهم، ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات، كقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحِجْر:٨٨].

فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما عندهم في آية، ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم في آية، فإن الإنسان قد يتألم عليهم ومنهم، إما راغباً وإما راهباً.

الرابعة: ألا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم، أو ذمهم، أو نهيهم أو هجرهم، أو عقوبتهم، بل يقال لمن اعتدى عليهم: «عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت»، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المَائِدَة:٨].

وقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البَقَرَة:١٩٠].

فإن كثيراً من الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله إما بجهل وإما بظلم، وهذا باب يجب التثبت فيه، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار، والمنافقين، والفاسقين، والعاصين.

الخامسة: أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع، من العلم والرفق، والصبر، وحسن القصد، وسلوك السبيل القصد، فإن ذلك داخل في قوله: «عليكم أنفسكم»، وفي قوله: «إذا اهتديتم».

فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها المعنى الآخر وهو: إقبال المرء على مصلحة نفسه علماً وعملاً،

وإعراضه عما لا يعنيه، كما قال صاحب الشريعة: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، ولا سيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء إليه حاجة من أمر دين غيره ودنياه، لا سيما إن كان التكلم لحسد أو رئاسة.

وكذلك العمل، فصاحبه إما معتد ظالم، وإما سفيه عابث، وما أكثر ما يصور الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، ويكون من باب الظلم والعدوان.

فتأمل الآية في هذه الأمور من أنفع الأشياء للمرء، وأنت إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة -علمائها وعبادها وأمرائها ورؤسائها- وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل، كما بغت الجهمية على المستنة في محنة الصفات والقرآن، محنة الصفات والقرآن، محنة أحمد وغيره، وكما بغت الرافضة على المستنة مرات متعددة، وكما بغت الناصبة على عليٍّ وأهل بيته، وكما قد تبغي المشبهة على المنزهة، وكما قد يبغي بعض المستنة، إما على بعضهم وإما على نوع من المبتدعة بزيادة على ما أمر الله به، وهو الإسراف المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عِمْرَان:١٤٧].

وبإزاء هذا العدوان: تقصير آخرين فيما أمروا به من الحق، أو فيما أمروا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الأمور كلها، فما أحسن ما قال بعض السلف: «ما أمر الله بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين، لا يبالي بأيهما ظفر، غلو أو تقصير»، فالمعين على الإثم والعدوان بإزائه تارك الإعانة على البر والتقوى، وفاعل المأمور به وزيادة منهي عنه بإزائه تارك المنهي عنه وبعض المأمور به، والله يهدينا الصراط المستقيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]، وهو كلام رفيع جليل، ولذلك حرصنا على إيراده بطوله، وكنا قد اختططنا لأنفسنا في مقدمة هذه المواعظ التواضع أمام أئمة الفقهاء والدعاة، والحرص على كلام القدماء وتقديمه على كلام المعاصرين وعلى ما نستطيع إنشاءه.

ويجب الانتباه إلى أن ما أجازه خلال كلامه من السكوت عند قوة أهل الفجور وإذا هم للناهي إنما يقتصر على العامة من المستضعفين، وأما الدعاة والقادة والعلماء فيأخذون بالعزيمة، ويصدعـون بالحق وإن لحقهم الأذى والعذاب والموت، كما بيّنه ابن تيمية في كلام آخر له سنذكره في حلقات قادمة، وكما بيّنه غيره، وكما كانت سيرة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في الثبات أيام محنة خلق القرآن، ولاحظ بصورة خاصة أهمية قول ابن تيمية: «وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله».

«وهكذا صحح الخليفة الأول رضوان الله عليه ما ترامى إلى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة، ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح؛ لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق، فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه، ويريحهم من عنـــت الجهاد وبلائه!

وكلا والله، إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد، ولا يصلح إلا بعمل وكفاح.

ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه، ولإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ولتقرير ألوهية الله في الأرض، ولرد المغتصبين لسلطان الله، عما اغتصبوه من هذا السلطان، ولإقامة شريعة الله في حياة الناس، وإقامة الناس عليها.

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٧٩).

لا بد من جهد؛ بالحسنى حين يكون الضالون أفراداً ضالين، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة، وبكل وسيلة مشروعة وممكنة، حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى، وتعطل دين الله أن يوجد، وتعوق شريعة الله أن تقوم، وبعد ذلك -لا قبله- تسقط التبعة عن الذين آمنوا»[1].

وإذن فإن مفهوم هؤلاء الذين يعذرون أنفسهم غير وارد، وإنما عنت الآية: أن «عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها، وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها، ولا عليكم أن يضل غيركم إذا أنتم اهتديتم، فأنتم وحدة منفصلة عمن عداكم، وأنتم أمة متضامنة فيما بينها، بعضكم أولياء بعض، ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم.

إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادئ أساسية في طبيعة الأمة المسلمة، وفي طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى.

إن الأمة المسلمة هي حزب الله، ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان، ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن؛ لأنه لا اشتراك في عقيدة، ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة، ولا اشتراك في تبعة أو جزاء.

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها، وأن تتناصح وتتواصى، وأن تهتدي بهدى الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها، ثم لا يضيرها بعد ذلك شيء إن يضل الناس حولها ما دامت هي قائمة على الهدى، ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم إلى الهدى، والهدى هو دينها هي وشريعتها ونظامها، فإذا هي أقامت نظامها في الأرض بقي عليها أن تدعو الناس كافة، وأن تحاول هدايتهم، وبقي عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم، ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم.

(١) الظلال (٥٩-٦١/ ٧).

إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولاً، ثم في الأرض جميعاً، وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته، وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته، وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه، والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولاً، وعلى البشرية كلها أخيراً.

وليس الغرض من بيان حدود التبعية في الآية كما فهم بعضهم قديماً -وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثاً- أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -إذا اهتدى هو بذاته- ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة إقامة شريعة الله في الأرض -إذا هي اهتدت بذاتها- وضل الناس من حولها.

إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان، وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم»[1].

(١) المرجع السابق.

العابدون اللاعبون[1]

ما نقلناه سابقاً عن ابن تيمية، وابن القيم، والغزالي، وبعض المعاصرين، في وجوب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، معتمدين على طائفة من الآيات والأحاديث، إنما هي نقول تحمل معها من الوضوح ما كان كافياً لرد أوهام المتخارسين الذين ظنوا أن بعض العبارات الفقهية المجملة تعفيهم من هذا الوجوب.

ومع كثرة صيحات الدعاة في هذه السنين وأهابتهم بالناس، وبالمصلين خصوصاً، أن يعملوا، ويعاونوا الدعاة الأمرين النهاة، فإن الأكثرين ما زال الحزن على واقع المسلمين يستهلكهم يوماً من بعد يوم، ولم يعرفوا طريق العمل، أو عرفوه ومنعهم الخوف من تحمل التضحيات عن العمل، أو منعهم الحرص على المال والمصالح الدنيوية، فانعزلوا في مساجدهم وبيوتهم، يبكون الإسلام، ويتركون الأجيال وجماهير الشباب الساذج لمن يربيها من دعاة الإلحاد والعلمانية والشيوعية والوجودية، ولمن يجرها إلى الفساد، والحياة الشهوانية، والزنى، والخمر، والإسراف في اللهو.

إن هؤلاء المصلين، وأهل الغيرة والحزن على مصير المسلمين، يقرؤون كتب الفقه التي ننقل عنها، وكتب الزهد والرقائق، ولكن كأن خور عزائمهم لا يوقع أبصارهم على ما فيها من صيحات المخلصين على مر الأجيال والقرون، من لدن عصر الصحابة إلى العصور المتأخرة، وحثهم على العمل للإسلام، والتبشير به، ودعوة الخلق، وتنبيه الجموع الغافلة، وترك العزلة والتواري، والتصدي للجهاد والبذل.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١١١)، ٢١ جمادى الآخر ١٣٩٢هـ/ ١ أغسطس ١٩٧٢م، ص٢٦-٢٨.

إنه حزن قاتل، وتعبد مرجوح، وعزلة مضيعة، وبدعة هادمة، وإن تجلل كل ذلك بالإخلاص والنية الصالحة.

من يقاتل العدو إذا اعتزلتم؟

وأول فوج ظهر من هؤلاء الواهمين كان في عصر صدر الإسلام والصحابة ﷺ ما زالوا أحياء، فتصدى لهم الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود ﷺ، وعرف ما في العزلة من مضادة للإسلام المتحرك، إسلام الأمر والنهي والجهاد والدعوة الذي رباه عليه النبي ﷺ، فأوضح لهم بدعتهم، ونهرهم واجتث أوهامهم من عروقها، وعاد بهم إلى الصواب.

يروي لنا التابعي الكوفي، الفقيه النبيل عامر الشعبي، أن رجالاً خرجوا من الكوفة، ونزلوا قريباً يتعبدون، فبلغ ذلك عبدالله بن مسعود، فأتاهم، ففرحوا بمجيئه إليهم، فقال لهم:

ما حملكم على ما صنعتم؟

قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد.

فقال عبدالله: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا.

روى ذلك شيخ المحدثين عبدالله بن المبارك ﷺ[1].

وأظن، والله أعلم، أن هؤلاء أخذوا هذه البدعة عن النصارى، إذ كانت أراضي الفرات حول الكوفة كثيرة الديارات النصرانية، وكانت قبيلة طيء تسكن حول الكوفة آنذاك، وقد فشت فيها النصرانية قبل الإسلام، كما يدل على ذلك كون رئيسها عدي

(١) كتاب الزهد لابن المبارك، ص٣٩٠.

بن حاتم الطائي ﷺ نصرانياً قبل إسلامه.

ومن ها هنا، من عبدالله بن مسعود، اقتبس الوعي الصحيح الداعون إلى الإسلام على تعاقب الأجيال.

إنها كلمة الحق، وعنوان الوعي، وشارة التربية النبوية الكريمة.

سيماهم في كلامهم، مثلما هي في وجوههم، من يقاتل العدو إذن لو اعتزل العابدون؟

من يرد كيد الصهيونية والماسونية، والدعاية الشيوعية الإلحادية، إذا بقي المصلون في مساجدهم الآن لا يضمون جهودهم إلى جهود دعاة الإسلام؟

فلما مات ابن مسعود وأصحابه، وذهب جيل المجاهدين من التابعين الذين رباهم الصحابة، عاد البعض إلى التخلي عن الجهاد، وإلى العزلة، مرة ثانية، في النصف الثاني من القرن الثاني.

ابن المبارك يرث ابن مسعود:

ولكن الله سبحانه يهدي عبدالله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) ليجدد حيوية الأمة.

كان ﷺ محدثاً ثقة، وحديثه في الصحيحين والسنن والمسانيد يشهد بذلك، وكان فوق ذلك من الفقهاء النبلاء، وله مال كثير ينفقه على أهل العلم في جميع عواصم الإسلام، وله شعر إيماني جيد.

ولم يكتف بذلك، بل كان داعية مجاهداً، يغزو كل سنة بلاد الروم، ويتخذ له من طرسوس مقراً، وهي جنوب تركيا الآن، حتى صار بهذه الصفات المجتمعة رأس المحدثين في جيله ذاك.

تهز ابن المبارك هذه الكلمة التي نقلها في كتابه عن ابن مسعود ﷺ؛ فيتخذ منها نبراساً، ويقوم بدور ابن مسعود ثانية، حتى نراه ينكر على رفيقه الزاهد العابد الثقة الفضيل بن عياض ﷺ (ت ١٨٧هـ) اعتزاله ومجاورته في مكة.

كان الفضيل ثقة، وحديثه في الصحيحين يدل على ذلك، وهو أشهر العباد الزهاد في تاريخ الإسلام، وأجودهم كلاماً، لكن ابن المبارك لا يرى كل ذلك مكافئاً لترك الجهاد وقتال العدو، فيخشن له الكلام، حتى يصفه بأنه عابد لاعب بعبادته، ويبعث له من طرطوس، وبعد معركة من معاركه، قبل أن ينفض غبار المعركة عنه، أبياتاً رائعة جداً تظل حجة لكل داعية من بعده.

إنها أبيات أكثر من رائعة، وأكثر من صادقة، وأكثر من بليغة.

فافتح قلبك، وفك قيوده وأساره، ليطير ويحلق عالياً مع أبيات ابن المبارك.

يا عابد الحرمين لـــو أبصرتنا لعلمت أنك فـــي العبادة تلعب

من كان يخضـــب جيده بدموعه فنحورنـــا بدمائنـــا تتخضب

أو كان يتعب خيلـــه في باطل فخيولنـــا يـــوم الكريهة تتعب

ريح العبير لكـــم ونحن عبيرنا رهج الســـنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانـــا عن مقـــال نبينا قول صحيح صـــادق لا يكذب

لا يســـتوي وغبار خيل الله في أنف امرئ ودخـــان نار تلهب

هذا كتـــاب الله ينطـــق بيننا ليس الشـــهيد بميت لا يكذب[1]

قال ابن المبارك هذا لمن انصرف إلى العبادة والمجاورة في الحرم المكي، وكان

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١/ ٢٨٧).

الفضيل يلقب بعابد الحرمين، وله شهرة بكثرة البكاء، ولذلك غمزه بذكر الدموع، وكأنه كان مثل بعض المصلين، يتطيبون بدهن الورد وغيره اتباعاً لسُنة النبي ﷺ، فغمزه بذكر العبير الواحد السهل، في حين كان للنبي ﷺ ولورثته من العلماء المجاهدين عبير غبار المعارك إضافة لعبير الورد والمسك.

قال ابن المبارك هذا لأطهر زاهد في ذاك العصر، بل في عصور الإسلام التالية له، فماذا نقول اليوم لمن ينصرف عن الجهاد والدعوة والأمر والنهي لا إلى كثرة العبادة، بل إلى الراحة والترف وجمع الأموال والحرص على إرضاء زوجته؟!

وهل لنا أن نقول لمتزهد اليوم إلا كما قال ابن المبارك: يا عابداً لو أبصرت دعاة الإسلام يصاولون دعاة الكفر والضلال الحزبي لعلمت أنك بالعبادة تلعب؟!

ولئن انحنت ظهور بعض المتعبدين اليوم من كثرة الصلاة، جفت حلوقهم من مواصلة الصوم، فإن دعاة الإسلام قد انحنت ظهورهم بعد الفرائض والسنن من كثرة مجالس التداول في أمور ومصالح المسلمين، جفت حلوقهم من كثرة السعي والحركة.

الشيخ الكيلاني.. على الدرب:

وتتلاحق من بعد ابن المبارك أجيال وأجيال، وإذا بالهمم تضعف مرة أخرى، وإذا بالزهاد والعباد يعتزلون في الرباطات، ويتركون إرشاد الناس، ويعافون الدعوة فيشيع الاضطراب في المجتمع المسلم مرة أخرى، فإذا بالقرن السادس الهجري يلد لنا وارثاً صادقاً من ورث تلك الأقباس الأولى لابن مسعود، وابن المبارك، ينتفض، ويأبى وعيه الانسياق في تيار بدعة الترهب والاختفاء عن الناس، فيقف ينادي الأمة، ويدلها على الأمراض التي تهددها.

إنه الشيخ القدوة العارف عبدالقادر الكيلاني ﷺ.

كان فقيهاً ثقة من فقهاء الحنابلة ببغداد، والغالب على الحنابلة في كل عصورهم الزهد والبعد عن كل ما يعارض التجرد للعلم، وكان شريفاً علوياً من ذرية الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، وإنما انتسب إلى مدينة كيلان لسكنى آبائه فيها، ولابن تيمية، ثم لابن القيم، مدح له، وهما اللذان يسميانه بالشيخ القدوة، كما في أكثر من موضع من «مدارج السالكين».

تكلم الشيخ عبدالقادر كثيراً، وصاح بأهل العراق صيحات بليغة رفيعة المعنى والمبنى، وينتشل لنا أحد تلامذته من تلك الصيحات كلمات يدوّنها سريعاً والإمام يخطب خطبه الأسبوعية عام ٥٤١هـ، ويودعها كتاباً سماه «الفتح الرباني والفيض الرحماني» قد تجد فيه ما يجب رده، لكنه مملوء بصيحات الحق، والالتفاتات القيمة، والتشديد على وجوب الدعوة والأمر والنهي.

فاسمع من صيحات الحق هذه قول عبدالقادر ﷺ: إن «المريد الصادق في إرادته الحق عز وجل في بداية أمره يضيق عن رؤية الخلق وعن سماع كلمة منهم، وعن رؤية ذرة من الدنيا، لا يقدر أن يرى شيئاً من المخلوقات، يكون قلبه تائهاً وعقله غائباً وبصره شاخصاً، لا يزال كذلك حتى تقع يد الرحمة على رأس قلبه، فيأتيه السكون..».

وإذا تمكن في توحيده وإخلاصه ومعرفته بربه عز وجل وعلمه به ومحبته له؛ جاءه الثبات واتساع الخلق، تأتيه القوة من الله عز وجل، فيحمل أثقالهم من غير كلفة.

يقرب منهم ويطلبهم ويكون كل شغله في مصالحهم، وهو لا يشتغل عن ربه عز وجل طرفة عين.

المتزهد المبتدي في زهده يهرب من الخلق، والزاهد الكامل في زهده لا يبالي منهم، لا يهرب منهم، بل يطلبهم؛ لأنه يصير عارفاً لله عز وجل، ومن عرف الله لا يهرب من شيء، ولا يخاف من شيء سواه.

المبتدي يهرب من الفساق والعصاة، والمنتهي يطلبهم.

كيف لا يطلبهم وكل دوائهم عنده؟

ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه: لا يضحك في وجه الفاسق إلا العارف.

من كملت معرفته لله عز وجل صار دالاً عليه.

يصير شبكة يصطاد بها الخلق من بحر الدنيا، يعطي القوة حتى يهزم إبليس وجنده، يأخذ الخلق من أيديهم.

يا من اعتزل بزهده مع جهله: تقدم واسمع ما أقول.

يا زهاد الأرض تقدموا، خربوا صوامعكم واقربوا مني.

قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل.

ما وقعتم بشيء، تقدموا»[1].

قال هذا ﷺ وهو في الشيخوخة، وكذلك فهم العالم العامل، وأن كلماته ليهتز لها القلب اهتزازاً.

تأمل قوله: «يا زهاد الأرض تقدموا، خربوا صوامعكم».

خرب صومعتك أيها الهارب الذي ترزح تحت نير الأفكار الأرضية، وآراء طواغيت القرن العشرين.

خذ مكانك في صفوف دعوة الإسلام.

(١) الفتح الرباني للشيخ عبدالقادر، ص ٧٣، مع حذف.

ابن الجوزي يصف حالة الشجعان:

وفي ذات الوقت، كان داعية آخر في بغداد يحمل مثل هذا القلب الكبير أيضاً، ويصيح بأهل بغداد.

إنه أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، مؤلف «زاد المسير في علم التفسير»، و«تلبيس إبليس»، وعشرات الكتب النافعة، أبى إلا الصراحة، فاندفع يفضح ويقول: «الزهاد في مقام الخفافيش، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير، من جماعة وأتباع جنازة وعيادة مريض.

إلا إنها حالة الجبناء.

فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون، وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام»[1].

وهكذا استمرت كلمات الواعين في كل جيل، لا يسوغون لأحد أن يعتزل ويقعد عن الدعوة إلى الله ولو أكثر العبادة، ولو استعرضنا الجميع لطال السرد، ولكن د. حسان حتحوت، بارك الله فيه، جمع بلاغة الجميع، وناب عنهم، وأعطى كلمة الفصل في أبيات واضحة، وذلك قوله:

حسبوا بأن الدين عزلة راهب ... واستمرؤوا الأوراد والأذكارا

عجباً أراهم يؤمنون ببعضه ... وأرى القلوب ببعضه كفارا

والدين كان ولا يزال فرائضا ... ونوافلا لله واستغفارا

والدين ميدان وصمصام وفر ... سان تبيد الشر والأشرارا

والدين حكم باسم ربك قائم ... بالعدل لا جوراً ولا استهتارا[2]

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي، طبعة محمد الغزالي، ص٢٢٤.

(٢) مجلة «المسلمون» (١٩٩/ ٣) من قصيدة طويلة.

دع بيتك وراء ظهرك:

والقعود في البيوت، من بعد الاعتزال في المساجد، أكثر بعداً عن صفة المسلم الكامل، ولذلك كان للصحابة ﷺ إنكار شديد على من يتوارى في بيته، ويأنس بالقرب من زوجه وأولاده، ويترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويتخلى عن مكانه الذي يجب أن يحتله في صف المحاربين للطواغيت.

وقد حفظ لنا الرواة عن الصحابي الجليل المبشر بالجنة طلحة بن عبيدالله القرشي ﷺ أنه قال: «إن أقل العيب على المرء أن يجلس في داره»(١).

وما كان أعيان العلماء يرضونه بتاتاً هذا الغزالي ﷺ يقول: «اعلم أن كل قاعدة في بيته أينما كان فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر، من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد، فكيف في القرى والبوادي ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية، وسائر أصناف الخلق.

وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه -فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية- أن يخرج إلى ما يجاور بلده من أهل السواد، ومن العرب، والأكراد وغيرهم، ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم»(٢).

وهذا ابن تيمية يفسر قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المُدَّثِّر:١ - ٢]؛ فيقول: «فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه، وينذروا كما أنذر، قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [التَّوْبَة:١٢٢].

(١) طبقات ابن سعد (٢٢١/ ٣).
(٢) إحياء علوم الدين (٣٤٢/ ٢).

والجن لما سمعوا القرآن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف:٢٩][1].

وكما تتفاضل الأعمال في الميزان الإيماني الإسلامي، فإن العمل الصالح الواحد يتفاضل تطبيقه أيضاً من شخص إلى شخص وظرف إلى ظرف، ووقت إلى وقت، بحيث يندب إليه أحد المسلمين دون الآخر، وفي ظرف دون آخر، ولكل مسلم عمل من أعمال الخير هو أفضل له من الأعمال الأخرى الفاضلة، وذكر ابن القيم ﷺ أن «الشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته: وقوفه في الصف ساعة، وجهاده أعداء الله، أفضل من الحج، والصوم، والصدقة، والتطوع.

والعالم الذي قد عرف السُّنة، والحلال والحرام، وطرق الخير والشر؛ مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة، وقراءة القرآن والتسبيح»[2].

فلا يحتجن أحد بأحاديث فضل النوافل والتسبيح ليبرر اعتزاله الناس، ويترك مهمته الإرشادية التي يلزمه إياها علمه الذي تعلمه، فإن مباشرة الدعوى خير من مباشرة النوافل.

الداعية رحالة:

ولا ينبغي للداعية أن يبتئس إن لم يجد فضل وقت لقيام الليل يومياً، والإكثار من ختمات القرآن، فإن ما هو فيه من الدعوة وتعليم الناس وتربية الشباب خير وأجزل أجراً، وقدوته في ذلك ورائده أئمة الدعاة من السلف الصالح الذين كانوا يسيحون لنشر الدعوة وتبليغها، ويبادئون الناس بالكلام، ويحتكون بهم احتكاكاً هادفاً، ولا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٢٧/ ١٦).
(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم، ص٩٣.

ينتظرون مجيء الناس لهم ليسألوهم.

هكذا كان شأن الدعاة دوماً.

وعلى داعية اليوم أن يكون رحالة سائحاً في محلات مدينته، ومدن قطره، يبلغ دعوة الإسلام.

انظر مثلاً كيف كانت رسل رسول الله ﷺ تسيح في البوادي، تبلغ الأعراب كلمة الإسلام وتبشر به، ولم يكن ثمة انتظار ورودهم إلى المدينة، ألا ترى أن الأعرابي الذي سأل رسول الله ﷺ عن أركان الإسلام، فلما أخبره بها وقال: «لا أزيد عليهن ولا أنقص»، كيف كان؟ قد بدأ سؤاله بأن قال للنبي ﷺ: «يا محمد، أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك»[1].

أتاهم رسوله داعياً، وكذلك الناس تؤتى، ومن انتظر أن يأتيه الناس فليس بداعية، ولو فصلت كلمة هذا الأعرابي لتبين لك كيف فارق هذا الصحابي الداعية المدينة لما أرسله النبي ﷺ لقوم هذا، وكيف فارق أهله وبيته وأولاده، وكيف اجتاز المفاوز وصحراء من بعد صحراء، وكيف تعرض للأخطار والحر أو البرد، ليبلغ دعوة الإسلام.

وهذا شأن الدعوة التي تريد أن تصل إلى أهدافها.

لا بد من تحرك ومبادأة وغدو ورواح وتكلم وزعم.

ليس القعود والتمني من الطرق الموصلة.

فافقه سيرة سلفك، وقلدهم، تصل، وإلا فراوح في مكانك، فإنك لن تبرحه.



(١) صحيح مسلم (٣٢/ ١).

غطة من جهبذ[1]

يتمنى المؤمن أن يغفر الله له ويدخله الجنة، وإنه لفوز عظيم نفوزه بمجرد أن نتجاوز باب الجنة بخطوات، ولكن الطمع بما عند الله طمع حلو لذيذ، وإذا بنا نعيش بين مدة وأخرى لحظات من اللحظات اللذيذة، لا نقنع فيها بأن ندلف من باب الجنة فحسب، ولا أن نبقى في منازلها الواطئة، بل نطمع أن نكون في عليين، وفي الفردوس، من منازلها الرفيعة.

وهنا يكون الكلام المنطقي أن من يريد المنزلة العليا القصوى من الجنة، فعليه أن يكون في المنزلة القصوى في هذه الحياة الدنيا.

وما هذه المنزلة القصوى في الدنيا إلا منزلة الدعوة إلى الله، كما يقول الشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ في كتابه الآخر الذي سماه «فتوح الغيب».

كان هو داعية مصلحًا، ولذلك تجد كل كتبه تركز على معنى الدعوة، ووجوبها.

إن الفائز عند الكيلاني من اختاره الله «وجعله جهبذًا وداعيًا للعباد ونذيرًا لهم، وحجة فيهم، هاديًا مهديًّا».

ثم قال: «فهذه هي الغاية القصوى في بني آدم، لا منزلة فوق منزلته إلا النبوة»[2].

المؤمن الأخرس متأخر:

وكان الشيخ قد عد دونه في المنزلة آخر له «قلب بلا لسان، وهو مؤمن ستره الله

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١١٢)، ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ/ ٨ أغسطس ١٩٧٢م، ص٢٦-٢٨.
(٢) فتوح الغيب للشيخ عبد القادر، ص٤٩.

عز وجل عن خلقه، وأسبل عليه كنفه، وبصَّره بعيوب نفسه، ونور قلبه». فلأن هذا المؤمن لم يملك اللسان، نزلت مرتبته، وتأخرت، وفقد ما في ألقاب الأول من الهيبة والفخامة، **فالأول**: «جهبذ» و«داعية» و«حجة»، وله ما في هذه الكلمات من إشعاع البهاء، **والثاني**: «مستور» فحسب، وبين جرس هذه الكلمة ولفظها، وتلك الكلمات وألفاظها، وتلك الكلمات وألفاظها من البعد مثل ما بين الأرض والسماء.

إن بونًا شاسعًا، وطفرة واسعة بين المنزلتين، منزلة الدعوة، ومنزلة الإيمان المستور المنعزل، وسبب البون هو اللسان الناطق بالحق لا غير.

من ملك هذا اللسان فقد بذَّ وسبق قافلة السائرين إلى الله.

كلهم يسير إلى الله، ولكن أين من في المقدمة، ممن في المؤخرة؟

وكلهم يدخل إن شاء الله الجنة، ولكن أين من يدخلها في الزمر الأولى، ممن يدخلها بعد أعوام من الانتظار في ساحة العرض؟ ولذلك جعل الكيلاني ﷺ فقه الداعية لواجبه في تغيير الباطل وإظهار الحق منحة ربانية لمن يعلم الله صلاح قلوبهم، وصاغ هذا المعنى بأحرف يسيرة، لكنها ثمينة، فقال: «إذا صلح قلب العبد للحق عز وجل، وتمكن من قربه، أعطي المملكة والسلطنة في أقطار الأرض، وسلم إليه نشر الدعوة في الخلق، والصبر على أذاهم، يسلم إليه تغيير الباطل، وإظهار الحق»[1].

وكذلك البلاغة تكون حين تقتبس من مشكاة النبوة، نسبًا وعلمًا، فإنه كان ﷺ في الذروة من الشرف، علويًّا صحيح النسب، كما كان في الذروة من علم الحديث وفقه أقوال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ.

إنه يقول: إن نشر الدعوة توفيق من الله، يوفق له من يعلم صلاح قلبه، فهو تشريف، وليس بتكليف.

(١) الفتح الرباني للشيخ عبدالقادر، ص١٤٤.

ودقق النظر في قوله: «يسلم إليه تغيير الباطل وإظهار الحق».

الباطل يجب أن «يغير»، يغيره «الداعية» أي يحاربه، ويزيله، ويهيل عليه التراب يقبره.

أما أن ترجو من الباطل أن يترك مكانه ويعطيه إياك.

وأمَّا أن تتكلم معه باللغة الدبلوماسية، فذلك لن يكون ولن يفيد؛ إنما هو التغيير فقط ينص عليه قانون الدعوة.

نصل الماضي بالآتي:

وإذن، فإن الإسلام اليوم أحوج ما يكون إلى جماعة من الدعاة الذين يملكون هذه النظرة التغييرية المفاصلة؛ دعاة يدركون جيدًا واجبهم في هداية الناس، ويبصرون موقعهم في موكب الدعوة السائر، وإنهم حلقة تصل الماضي بالآتي، وينشدون:

نحن في ذي الحياة ركب سفار ... يصل اللاحقين بالماضينا

قد هدانا السبيل من سبقونا ... وعلينا هداية الآتينا[1]

نعم، تعبوا رحمهم الله، حتى أوصلوا عقيدة التوحيد لنا، وربونا، وهذبونا، وانتشلونا من أخطار متلفة، وعلينا أن نكون أوفياء لهم، ننفذ عهدنا، حين أخذوا علينا أن نعمل مثل الذي عملوا.

غرسوا فأكلنا، ونغرس فيأكلون.

والغرس يقتضي مخالطة الناس، ومشافهتهم، والصدع بالحق.

أما أن يختار الخلوة، ويترك محاربة الأفكار الأرضية، والمفاسد الخلقية، فهو

(١) لعزام في ديوان المثاني، ص١٤٩.

كما وصفه مصطفى صادق الرافعي: «يحسب أنه قد فرَّ من الرذائل إلى فضائله، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لكل فضائله، وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها، إذا كانت فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟ وايم الله، إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعًا لهو الخالي من الفضائل جميعًا»[1].

وأي فرق بين المعتزل في رأس جبل، وبين من يعيش مع الناس أخرس صامتًا؟ إن مشكلة المسلمين اليوم لا يسببها نقص عددهم، ومشكلة الدعوة الإسلامية اليوم لا تتمثل في قلة عدد مَن بقي ثابتًا صامدًا على إسلامه حين كثر في الأمة ترك الصلاة والابتداع وحمل أفكار الكفر، فإن كل قطر من أقطار الإسلام لا يزال فيه شباب خير كثير عددهم، ولكن المشكلة في أنهم لا يصدعون بإسلامهم، ولا يدعون، أو يدعون من غير تنسيق بينهم، وإلى هذا المعنى أرشد الداعية البطل المقدام الفقيه عبد القادر عودة ﷺ فقال: إن «في البلاد الإسلامية اليوم جيل مثقف ثقافة إسلامية عالية، حريص على أن يعيد للإسلام ما فقده، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا عيب فيهم إلا أنهم متأثرون بأسلافهم إلى حدٍّ كبير في بعض الاتجاهات؛ حيث يصرفون أكثر جهدهم في العبادات والمواعظ، ولو أنهم صرفوا أكثر جهدهم في تذكير المسلمين بشريعتهم المعطلة وقوانينهم المخالفة للشريعة وحكم الإسلام فيها، لكان خيرًا لهم وللإسلام»[2].

(١) وحي القلم (٢/ ٩٧).

(٢) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه، ص٦٥.

الإمام أحمد يباشر التجميع:

وشأن الداعية أن يترصد أخيار الرجال في المجتمع، فيحتك بهم، ويتعرف عليهم، ويزورهم، ويعلمهم طريق ضم الجهود الإسلامية وتنسيقها، فيجدد بذلك سيرة الإمام الداعية المبجل أحمد بن حنبل.

قالوا: كان الإمام أحمد «إذا بلغه عن شخص صلاح، أو زهد، أو قيام بحق، واتباع للأمر: سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله»[1].

لم يكن بالمنعزل المتواري الهارب من الناس.

ولا يكون داعية اليوم إلا مَن يفتش عن الناس، ويبحث عنهم، ويسأل عن أخبارهم ويرحل للقائهم، ويزورهم في مجالسهم ومنتدياتهم، ومن انتظر مجيء الناس إليه في مسجده أو بيته، فإن الأيام تبقيه وحيدًا، ويتعلم فنَّ التثاؤب.

وانظر من تطبيق الإمام أحمد لحرصه هذا مثالًا يذكرونه في معرض التعريف بشيخ البخاري والترمذي موسى بن حزام؛ قالوا: إنه كان ثقة صالحًا؛ لكنه «كان في أول أمره ينتحل الإرجاء، ثم أعانه الله تعالى بأحمد بن حنبل، فانتحل السُّنة وذبَّ عنها، وقمع مَن خالفها، مع لزوم الدين، حتى مات»[2].

وإنها لكلمات تحوي من معاني الدعوة شيئًا كثيرًا.

إن هذا التغيير لم يتم بالأماني المجردة؛ ألا ترى أن الإمام أحمد لزمه أن يجلس معه المجالس الطوال، مناقشًا له برفق وسكينة وحكمة وموعظة حسنة حتى استطاع صرفه عن بدعة الإرجاء التي توهمه أن العمل ليس شرطًا في الإيمان، وإنما هو تصديق القلب فقط، ثم مجالس أخرى علمه فيها السنن، ثم مجالس أخرى بعث

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ص٢١٨.
(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر (١٠/ ٣٤١).

فيه همَّة عالية استمر معها حتى موته بالدفاع عن السُّنة وقمع مخالفيها من أهل البدع والشهوات؟

إنه كذلك طريق الدعوة وسبيل خدمة الإسلام، وكذلك كان سلفنا من دعاة الإسلام.

لا بد من اتصال بالناس.

لا بد لك من مجالس معهم تعلمهم فيها.

لا بد لك من ترك زوجك وأولادك ومجالس الدنيا وهموم التجارة بضع ساعات في كل يوم، تتوجه فيها إلى الله، داعيًا أن يعين بك ضالًّا من ضحايا الطواغيت الحالية، فتهديه، أو يعين بك يائسًا جامدًا، يستهلكه الحزن على واقع المسلمين، وتقيده همومه الدنيوية، فتحركه وتهزه وتغطه غطًّا.

إنها غطة العزم.

غط جبريل عليه السلام نبينا محمدًا ﷺ ثلاثًا في غار حراء في أول لحظات نبوته، فضمَّه إلى صدره ضمًّا شديدًا، ثم قال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العَلَق:١].

وغطَّ النبي، ﷺ، ابن عمه عبد الله بن عباس، فضمه إلى صدره، وقال: «اللهم علِّمه القرآن».

وغطك الدعاة:

وعليك أن تغطَّ غيرك هذه الغطة الواجبة التي تضع حدًّا فاصلًا بين عهد الرخاوة وعهد حمل الأمانة بحزمٍ وعزم ووفاء.

لقد أعان الله تعالى بأحمد آلافًا من مثل موسى بن حزام هذا، وبهم استطاع أن يرد فتنة وكيد الجهمية والمعتزلة وينصر السُّنة، فكم يا ترى سيعين الله بك اليوم من

ترد بهم كيد الشرق والغرب؟

لقد كان السلف، ﷺ، أفرح ما يكونون عند العمل للدعوة وهداية أحد على أيديهم.

كان عبد القادر الكيلاني يقول: «سبحان مَن ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي»، ثم يقول: «إذا رأيت وجه مريد صادق قد أفلح على يدي: شبعتُ وارتويتُ، واكتسبت، وفرحت، كيف خرج مثله من تحت يدي؟»[1].

هذا شبعهم وريهم؛ لا في تأليف الكتب فحسب، والتي تكرر المعاني الواحدة.

العالِم من كان داعية؛ أمَّا مؤلف الكتب فحسب فنقول له:

لســـــت والله عالمًا أو حكيمًا إنما أنت تاجر فـــــي العلوم[2]

الإسلام اليوم لا يحتاج مزيد بحوث في جزئيات الفقه، بقدر ما يحتاج إلى دعاة يتكاتفون.

فقه الوزير الداعية:

واسمع إلى طريف ما فهمه الفقيه المحدث العابد الوزير العباسي الصالح ابن هبيرة الدوري ﷺ، من قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القَصَص:٢٠] إذ يقول: «تأملت ذكر أقصى المدينة، فإذا الرجلان جاءا من بعد في الأمر بالمعروف، ولم يتقاعدا لبُعد الطريق»[3].

(١) الفتح الرباني، ص٢٧.
(٢) لعزام في ديوان المثاني، ص٩٨.
(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٦٩).

ويا له من استخراج بديع مع بساطته يجعل الداعية يتأمل ويقول: هل يتأتى للداعية اليوم أن يستكثر ما توجبه الدعوة عليه من حركة يومية بعيدة بعد أن يعرف هذا الذي كان عليه سلفه من دعاة القرون الأولى، وصفتهم هذه التي خلَّدها القرآن في الجوب والتجول والذهاب إلى الأقاصي بغية بثِّ الدعوة والأمر بالمعروف؟ ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس:٢٠].

«فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعدما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتًا، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره، سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في عزوة من قومه أو مَنعة من عشيرته؛ ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها»[1].

(١) في ظلال القرآن (٢٣/ ١٦).

جهاد الحجة[1]

وعي المسلم لوجوب الدعوة إلى الله، وفقهه لهذه المسألة الجدية، ووضوح رؤيته لهذا المعلم البارز من معالم الطريق الإسلامي، كل ذلك يحدد نقطة البدء والانطلاق في مسيرة الفرد المسلم في الحياة، وفي خطة أي إصلاح جماعي، ومن ثـم وجب الإلحاح في بيان هذا الواجب، وتطبيق السلف الصالح له، وأمثلة من تجدد سيرة وكلام السلف في ذلك في قرننا هذا.

وكما رأينا عبدالله بن مسعود وأصحابه يرصد نفسه في الكوفة لتفنيد العزلة، نرى الحسن البصري سيد التابعين؛ ﷺ، يرصد نفسه في البصرة لبعث همم الناس، وشرح معنى الإصلاح، فيتلو على أهل البصرة قول الله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (فصلت: ٣٣)، ثم يقول: «هو المؤمن أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته فهذا حبيب الله، هذا ولي الله» لا غيره ممن ينعزل ويجمد ويكـون مستورًا، وحين نقل ابن القيم كلام الحسن هذا عقّب فقال: «فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد»[2].

وبمسارعته هذه إلى فهم كلام الحسن، وباتحاد قوله مع قول الكيلاني الذي ذكرناه قبل، دلل على أن وحدة المفاهيم تابعـة لوحدة المنهج في البحث.

أقباس مشابهة من نور واحد.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (٢٤-٢٥)، بتاريخ ٥ رجب ١٣٩٢هـ/ ١٥ أغسطس ١٩٧٢م.
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٥٣).

فلأن منهجهم هو جعل القرآن والحديث الصحيح مصدر الفهم، وبناء الاستعداد النفسي لقبول جميع معاني القرآن والحديث التي يشير إليها العقل السليم والظـاهر اللغوي، اتحدت أقوال ومفاهيم هؤلاء الرهط الفاضل الذين ننقل عنهم، ابتداء بالصحابة، ومن تبعهم بإحسان، ومرورًا بابن الجوزي والشيخ عبد القادر وابن تيمية وابن القيم، وانتهاء ببعض أفاضل هذا العصر، كالرافعي وإقبال وعبد الوهاب عزام، وبقادة الدعوة، كالإمام البنا، والمودودي، وعودة وسيد قطب، وسيظل سير هذه الطائفة الظاهرة على الحق، الآخذة بالمعنى الظاهر، إلى يوم القيامة، بعكس منهج الطوائف الأخرى التي حددتها ابتداء تأثرات فلسفية، وميول ابتداعية، وشهوات بدنية ونفسيـة، وتخوفات وجبن وحرص، فما عادت تفتش إلا عما يوافق الذي وقر في عقولها ونفوسها، وتُعرض عما يفضحها، أو تتعجل وتتكلف لصرفه عن معناه الظاهر.

في سورة العصر كفاية:

وسطرٌ واحدٌ في القرآن فيه كفاية وغنى لأصحاب المنهج الأول الصحيح، وذلك قوله تعالى ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العَصْر:١-٣].

بل يكفيهم رُبعُها الذي وصف المتواصي بالحق بالربح.

ولذلك وصف رسول الله، ﷺ، سورة العصر بأنها تعدل ثلث القرآن[1].

فكلمتان فحسب، لأنهما بينتا وجوب الدعوة، كانتا ربع ثلث القرآن.

فكل واحد في خسر، «إلا من كمّل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالعمل بطاعته، فهذا كمالُه في نفسه، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك، وأمره إياه به،

(١) صحيح البخاري (٦/ ٢٣٣).

وبملاك ذلك كله، وهو الصبر، فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي ﷺ: لو فكر الناس في سورة العصر لكفتهم»[1]، فالله سبحانه «لم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضًا ويرشده إليه، ويحثه عليه، فإذا كان من عدا هؤلاء، فهو من الخاسرين»[2].

أو بأحرف أخرى يقولها الداعية الأستاذ محمد محمود الصواف أن: «شرط النجاة من الخسران جعله الله تبارك وتعالى معلقًا بمعرفة الناس للحق، وإذا عرفوه ألزموا أنفسهم به، ومكنوه من قلوبهم، وعاشوا بالحق، وللحق، ولا يُعفَون من المسؤولية، ولا ينجون بأنفسهم إذا عرفوا الحق ولم يبشروا به ويدعوا الناس إليه ويحملوهم حملًا على التمسك بالحق واتباع الحق.

فالدعوة إلى الحق والتبشير به فرع الإيمان بالحق ومعرفة الحق، ولا يتم الأصل بدون هذا الفرع، الذي هو الدعوة إلى الحق، والتبشير به بين الناس، ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح، بعد أن يعرفه ويتبعه، فهو من الخاسرين، لأن أمر الله تبارك وتعالى صريح في هذه الآية، وهو التواصي بالحق، والتواصي يحمل معنى الدعوة إلى الحق بكل صراحة وقوة، فإذا عرفت الحق، ورأيت أهل الباطل يزيغون عن الحق، ولم تدعهم إلى اتباع الحق، وتوصهم باتباع طريق الحق الذي هــو الصراط المستقيم، والنور المبين، فلا شك أنك من الخاسرين، لأنك لم تنفذ أمر الله، وتتواصَ بالحق، ولأنك أخذت الحق لنفسك ولم تحمل عليه غيرك من الزائغين المنحرفين أو المخطئين التائهين، والمسلم لا يعيش لنفسه فقط، بل يعيش لنفسه وللناس، فإذا أصلح نفسه، وجب عليه إصلاح غيره، والدعوة إلى الإصلاح

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٣٣).
(٢) الجواب الكافي لابن القيم، ص٨٣.

تشمل الناس جميعًا، كل على حسب طاقته، وبقدر نطاقه الذي يحيط به والنص في هذه الآية صريح، لا يقبل التأويل»[1].

الداعية مجاهد مهاجر:

وبمقابل ذلك، منح الله تعالى المتواصين بالحق، من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، الذين يقذفون بحجج الله وبيناته على آراء العقول الزائغة أجر وثواب المجاهدين والمهاجرين، فعَدَّ الأمرَ والنهيَ جهادًا، والثباتَ على الدعــوة هجرةً.

قال ابن القيم: «ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة بقوله: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ) (الفرقان: ٥٢)؛ أي بالقرآن جِهَادًا كَبِيرًا، فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة»[2].

جاهدهم بالقرآن يا أيها النبي، صلى الله عليك وسلم، وجاهدوهم بالقرآن، يا ورثة وأتباع هذا النبي ﷺ.

أي أن نقف لآراء عقولهم القاصرة بالمرصاد ندمغها بحجج من هذا القرآن، فإذا باطلهم هو زاهق، فالدعوة، والأمر والنهي، والتواصي، نوع من الجهاد، ولذلك ساغ لنا في فقه الدعوة أن نتعرف على كثير من جوانب وصفات الدعوة والداعية قياسًا على أحكام جهاد القتال، بل لذلك أيضًا وجب على الداعية قياسًا على أحكام جهاد القتال أن يفهــم آيات وأحاديث الجهاد على أنها خطاب له هو أيضًا، وهو في أمره ونهيه إن حجبه عن خوض القتال تقدير خسران المعركة وظهور المجازفة ووجود المثبطين والخونة الذين يضربون من الخلف، ولذلك أيضًا يحق للآمر الناهي أن يُمَنِّيَ نفسه بثواب المقاتلين إن شاء الله.

(١) عدة المسلمين في معاني الفاتحة وقصار السور، ص٨٧.
(٢) زاد المعاد لابن القيم (٢/ ٥٨).

ثم الداعية بعد ذلك له أجر المهاجرين، كما قرر الإمام ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡ﴾ [الأنفال:٧٥]، فقال: «قالت طائفة من السلف: هذا يدخل فيه من آمن وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة، وهكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النَّحل:١١٠].

يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه أو أوقعه في معصية، ثم هجر السيئات وجاهد نفسه وغيرها من العدو، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك، وصبر على ما أصابه من قول أو فعل، والله سبحانه وتعالى أعلم»(١).

إلحاح الكيلاني في بيان وجوب الدعوة:

وكما اخترنا الإلحاح في بيان وجوب الدعوة إلى الله، واعتبرناه المنطلق، اختار الشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ الإلحاح في بيان هذا الواجب، وعاد يذكر أهل بغداد كل أسبوع في خطبته، أو بالأحرى عاد يذكر خيار أبناء الأمة الذين تجمعوا من أطراف الأرض في عاصمة الإسلام.

نتدرج معه في أيامه، يصف الدعاة أولًا، فيقول:

«هم قيام في مقام الدعوة، يدعون الخلق إلى معرفة الحق عز وجل لا يزالون يدعون القلوب»(٢).

ويجعل إتاحة الله سبحانه لعبده هذا المقام الشريف أكبر نعمة، ويعد انشغاله به دليلًا على صحة تبعيته وخلافته للرسول ﷺ، فيقول: «من صحت تبعيته للرسول،

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية (١٨/ ٢٨٤).
(٢) الفتح الرباني للشيخ عبدالقادر، ص٧.

ﷺ، ألبسه درعه وخوذته، وقلده سيفه، ونَحَلَه من أدبه وشمائله وأخلاقه، وخلع عليه من خُلَعِه، واشتد فرحه به: كيف هو من أمته؟ ويشكر ربه عز وجل على ذلك، ثم يجعله نائبًا له في أمته، ودليلًا وداعيًا لهم إلى باب الحق عز وجل.

كان هو الداعي والدليل، ولما قبضه الحق عز وجل أقام له من أمته من يخلفه فيهم، وهم آحاد أفراد، من كل ألفِ ألفٍ واحد، يدلون الخلق، ويصبرون على أذاهم، مع دوام النصح لهم يتبسمون في وجوه المنافقين والفسّاق، ويحتالون عليهم بكل حيلة حتى يخلصوهم مما هم فيه، ويحملوهم إلى باب ربهم عز وجل»[1].

ثم يدعوهم إلى إماتة الهوى والنفس الأمّارة بالسوء، لتحصل حياة الدعوة «موت ثم نشر، ثم إذا شاء أنشرك له، ردك إلى الخلق لتنظر في مصالحهم وتردهم إلى بابه، يجيء لك الميل إلى الدنيا والآخرة لتتناول أقسامك منهما، تجيء لك القوة على مقاساة الخلق، فتردهم عن ضلالهم»[2].

ثم يوجز صفات الداعية وشروط التوثيق في صفة واحدة جامعة، صفة التجرد الكامل والانغماس بكله في الدعوة، حتى ينسى نفسه، ويعود لا يرى إلا من يدعوهم، ولا يتكلم إلا بما يفيد من يدعوهم؛ فعالمه وكونه الفسيح، لا يحوي تجارة، ولا شهوة، ولا منصبًا، ليس في هذا الكون إلا الذين يباشر دعوتهم، هم تجارته، ولذته، ومنصبه.

«يصير كأن لا نفس له ولا طبع ولا هوى؛ ينسى طعامه وشرابه ولباسه.. يصير ناسيًا لنفسه، ذاكرًا لخلق ربه عز وجل، يخرج بقلبه عن نفسه والخلق، ويبقى بربه عز وجل، كل طلبه نفع الخلق، قد سلم نفسه إلى يد قضاء ربه عز وجل»[3].

(١) المرجع السابق، ص٨٣.
(٢) المرجع السابق، ص١٠٧.
(٣) المرجع السابق، ص٢١١.

فهذا نموذج الدعاة:

هذه صفة من يريد أن يكون ضمن القاعدة الصلبة التي يبنى عليها بناء الإسلام الآن، ووالله لا نجاح للدعوة، ولا وصول، إن أعطيناها فضول الأوقات، ولم ننس أنفسنا وطعامنا وشرابنا.

فمَزِّقْ هذه الشرنقة التي لَفَفتَ نفسك بها، واخرج من القوقعة. إن جاهلية القرن العشرين زادت ظلام القرون الأخيرة ظلامًا، فلا ترضَ العيش في الظلام، بل:

كن مِشـــعلًا في جُنْح ليل حالكٍ يهدي الأنام إلى الهـــدى ويُبَيِّنُ

وانشَـــط لدينك لا تكن متكاسلًا واعمل على تحريك ما هو ساكن

وابدأ بأهلك إن دعوتَ، فإنهـــم أولى الورى بالنصح منك وأقمَنُ

والله يأمـــر بالعشـــيرة أولًا والأمر من بعد العشـــيرة هَيِّنُ[1]

(١) الوليد في ديوان الزوابع، ص١٢٤.

أصول نظرية العمل الجماعي عند السلف[1]

الطريق إلى الله طريق واضح مستقيم.

خطوت خطوتك الأولى فيه بإصغائك لمن دعاك إلى أن تذر غير الله تعالى، وما كان من تركك آراء الطواغيت الذين يشرعون من دون الله.

ثم تمردت على خطط الترويض، وأبقيت صفتك، شبلًا حفيد أسود، ولم يجعلوك ظبيًا جَفولًا.

ثم استعليت، وواصلت سيرك في الطريق العالي.

ثم فاصلت الجاهلية، وهجرتها، واستقل شعورك وعملك عنها، وتحررت، وذقت صريح الحرية بانغماسك في حقيقة العبودية.

ثم نطقت، ولم تسكت وتتخارس، ودعوت إلى الله، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، وكنت من الذين «يعلمون الحق ويرحمون الخلق» كما يقول ابن تيمية[2].

ترحمهم بانتشالهم مما هم فيه من الضلال الذي أرهقهم وحرمهم الطمأنينة والسكينة.

أرهق قلوبهم بالقلق، وعقولهم بالحيرة، وأبدانهم بالتعب، والمرض.

ولا يزال الأئمة ينادونك:

«ألست تبغي القرب منه؟ فاشتغل بدلالة عباده عليه، فهي حالات الأنبياء عليهم

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١١٤)، ١٢ رجب ١٣٩٢هـ/ ٢٢ أغسطس ١٩٧٢م، ص٢٦-٢٨.
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٩٦).

الصلاة والسلام، أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد، لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم؟»[١].

ولا يزالون يسألونك:

«هل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر؟»[٢].

ولا تزال أنت في استجابة من بعد استجابة ونعمّا الذي تفعل.

وخطواتك المباركة هذه قد أوصلتك إلى منتصف الطريق، فواصل الخطو تصل.

كن من رجال العامة:

خطواتك الأخرى في هجرتك إلى الله أن تتسع في نطقك بالحق، وتقصد العامة، فتكون لهم إمامًا، وقدوة، وقائدًا، ومرشدًا.

أعد سيرة سلفك من الدعاة رحمهم الله.

كانوا أئمة للعامة، يتصدون لإرشاد كل الناس، فيتزايد حب القلوب لهم تدريجيًّا، ويرون فيهم القدوة الصحيحة التي لا مطعن فيها، فيتبعونهم، ويمتثلون أمرهم.

هذا الزاهد المشهور بشر بن الحارث الحافي ﷺ، يعدد ثلاث خصال امتاز بها الإمام أحمد بن حنبل، وفضل بها عليه، وقَصُر هو عنها، أحدها:

«أنه نُصِبَ إمامًا للعامة»[٣].

ووصفوا الأوزاعي بأنه: «كان رجل عامة»[٤].

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي، ص٣٨.
(٢) المرجع السابق، ص٤٢.
(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٣).
(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر (٦/ ٢٤١).

ومثله المحدث الثقة الفقيه أبو إسحاق الفَزَاري، قالوا: كان رجل عامة، وهو الذي أدب أهل الثغور الإسلامية التي في أعالي بلاد الشام والجزيرة تجاه الروم، وعلمهم سنن النبي، ﷺ وكان يأمر وينهى، وإذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه[1].

وخالد بن عبد الله الواسطي، أحد المحدثين الثقات من شيوخ البخاري، وصفوه بأنه كان «رجل عامة»[2].

فحلل هذه التعريفات، تجد أنهم كانوا دعاة، يعلمون الناس، لم يحملهم علمهم على حصر أنفسهم بين الجدران، بل كانوا ينزلون إلى الجموع، ويقودونها في مواقفها السياسية، كما قاد الإمام أحمد جموع الخير في معارضة الجهمية والمعتزلة الذين أرادوا حَرف عقيدة الأمة ببدعة خلق القرآن، ونازع الدولة كلها حين أرادت فرض البدعة بالقوة، حتى نصره الله تعالى بالمتوكل؛ إذ كان المتوكل صحيح العقيدة، فبدل جهاز الدولة، وطهّره من المبتدعة، وأخمد أمرهم وكبته.

ولم يكونوا رحمهم الله بالذين ينسون الأعراب وأهل الأرياف حين يقودون أهل المدن، بل كانوا يلمسون أهمية وحدة عقائد ومواقف هؤلاء وهؤلاء، فيرصدون لهم شيئًا من جهودهم وأوقاتهم.

هذا الإمام الزهري زعيم المحدثين، ربّى أجيالًا من أهل الحواضر الإسلامية، وجعلهم أئمة في الحديث، وما كان ذلك يكفيه، بل «كان ينزل بالأعراب يعلمهم»[3]، يحفظ من بقي صحيح العقيدة، ويتلطف مع من نجح أهل البدع في حَرفه، فيرجعه إلى التوحيد.

(١) المرجع السابق (١/ ١٥٢).
(٢) المرجع السابق (٣/ ١٠٠).
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٣٦٣).

وجدد آخرون سيرة الزهري، منهم الفقيه الواعظ أحمد الغزالي، أخو الإمام صاحب الإحياء، فإنه كان «يدخل القرى والضياع، ويعظ لأهل البوادي، تقربًا إلى الله»[1].

ابن تيمية يسوغ العمل الجماعي:

وكان هؤلاء الأئمة رحمهم الله أصحاب فقه عظيم، عرفوا المقاصد العامة للشريعة، وجواز، بل وجوب كل ما يحقق هذه المقاصد وإن لم تنص عليه، وعرفوا أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فانخلعوا عن الفردية حيث اقتضى الأمر هذا الانخلاع وتكاتفوا، وعملوا عملًا جماعيًّا، وأوضحوا في عدد من الفتاوى الواضحة الصريحة شرعية العمل الجماعي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مهما تسمى هذا العمل الجماعي بأسماء مختلفة، كالجماعة، والحزب، والكتلة، وغير ذلك، وإذا كان العمل جماعيًّا فلا بد أن يكون له قائد ورئيس، سواء سُمي زعيمًا، أو مرشدًا، أو رأس الحزب.

وقد تستغرب أشد الاستغراب حين تعلم أن تسويغ إنشاء الجماعات العاملة لغايات شرعية، وتسويغ مثل هذه الاصطلاحات التي تظنها حديثة، قد ورد في كلام الفقهاء والأئمة القدماء، مما يعطينا صورة واضحة عما تحوي بطون الكتب الفقهية من فقه حركي إسلامي مجهول لدينا ينتظر من يتزعمه منها وينشره للدعاة.

اسمع قول ابن تيمية في شرعية العمل الجماعي، مما لا تكاد تصدق أنه من كلام القدماء.

(١) طبقات الشافعية للسبكي (٦/ ٦٢).

يقول ﷺ:

«وأما لفظ «الزعيم» فإنه يمثل لفظ الكفيل والقبيل والضمين، قال تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ [يُوسُف:٧٢] فمن تكفل بأمر طائفة فإنه يقال: هو زعيم، فإن كان قد تكفل بخير كان محمودًا على ذلك، وإن كان شرًّا كان مذمومًا على ذلك.

وأما «رأس الحزب» فإنه رأس الطائفة التي تتحزب، أي تصير حزبًا، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا، مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق والباطل، فهذا من التفرق الذي ذمّه الله تعالى ورسوله، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف، ونهيا عن التفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان»(١).

إنه من أثمن النصوص التي تَحج وتفنّد رأي من يرى أن العمل الجماعي بدعة غريبة على الأساليب الإسلامية.

وإنه لنص رائع يحفز الدعاة لجمع أمثاله وجعلها محور فقه الدعوة، فتحوز الدعوة رسوخًا جديدًا، بما تملكه هذه النصوص من هيبة قائليها، وبما تؤدي إليه من القيام بدور القول الفصل حين يسارع مستعجل واهم، أو خائر نائم، إلى تبديع من يعمل من دعاة الإسلام العمل الجماعي مع أصحاب له من الدعاة آخرين.

وأنى يكون في العمل الجماعي نوع بدعة وهو الأصل الموروث عن الأنبياء ﷺ؟ قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يُوسُف:١٠٨].

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٩٢).

قال ابن القيم: «قال الفراء وجماعة: ومن اتبعني معطوف على الضمير في أدعو، يعني: ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو، وهذا قول الكلبي: قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه»(١).

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عِمْرَان:١٤٦].

قال ابن القيم: «فالرِبيون هنا: الجماعات، بإجماع المفسرين، قيل: إنه من الرِبَّة، بكسر الراء، وهي الجماعة، قال الجوهري: الرِبّي واحد الرِبيين، وهم الألوف من الناس»(٢).

فالأنبياء عليهم السلام قاتل معهم الألوف وسيرة خاتم المرسلين، ﷺ، مثل واضح لذلك.

وورثة هذا النبي، وأولئك الأنبياء، لهم أسوة حسنة بهم، لا يتفردون، بل يسيرون ألوفًا.

يأمرون بالمعروف في رجال معهم، وهذا المعنى فقهه الصحابة والسلف الصالح وعيًا كاملًا، فلم يكتفوا بالدعوة الفردية، وإنما أسسوا الجماعات للدعوة إلى الله وعملوا عملًا جماعيًّا.

منهم الصحابي هشام بن حكيم بن حزام القرشي رضي الله عنه.

قال الزهري: «كان يأمر بالمعروف في رجال معه»(٣).

فانظر قول الزهري: في رجال معه، فهو قد كوّن جماعة آمرة، ودلل على أن الأمر بالمعروف لا بد له من عصبة، ومتى كانت عصبة كانت دعوة.

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٥٤).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٢٦).
(٣) تهذيب التهذيب (١١/ ٣٧).

ثم ما فتئ أفاضل العلماء يتخذون لهم جماعة وأصحابا للقيام مجتمعين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما كان أمر عبد الرحيم بن محمد العلثي البغدادي الفقيه المحدث الزاهد، قالوا: «كان شيخًا جليلًا، عالمًا، عارفًا، من أجل شيوخ الحديث، ملتزمًا بالسنة، زاهدًا ذا فضل وورع، وأدب وعلم»

وقال البرزالي عنه: محدث بغداد في وقته، موصوف باتباع السنة ونصرها، والذب عنها.

قال الذهبي: «وله أتباع وأصحاب يقومون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

نعم، شرط واحد يحدد رأس هذه الجماعة به قبول الانضمام لجماعته، وهو أن يتحرى الصالح من الرجال، المؤمن الآكل للحلال، ليكون في إعانته توفيق من الله، وأثر، وإلا فإن كان من المخلصين غير المتحرين لشروط الشرع في معاملاته وسلوكه ومعيشته رفع الله عن عمله البركة.

وهذا هو مذهب الدعاة القدماء.

قال ابن الجوزي: «قال ابن عقيل: رأينا في زماننا أبا بكر الأقفالي، في أيام القائم، إذا نهض لإنكار منكر استتبع معه مشايخ لا يأكلون إلا من صنعة أيديهم، كأبي بكر الخباز، شيخ صالح أَضَرَّ -أي صار ضريرًا- من اطلاعه في التنور، وتبعه جماعة ما فيهم من يأخذ صدقة ولا يَدنَسُ بقبول عطاء -أي هدية من رجال الحكم- صوَّام النهار، قوَّام الليل، أرباب بكاء، فإذا تبعه مُخلّط ردَّه وقال: متى لقينا الجيش بمخلط انهزم الجيش»[2].

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/ ٣١٦).
(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي (١٤٥).

وبدون مثل هذه الشروط الصعبة تغدو الجماعة الإسلامية مأوى للضعفاء، وتفقد صلابتها، ويحرمها الله نصره.

وإن مثل هذه النصوص لهي اكتشافات ثمينة يجب أن تأخذ دورها في الفقه الحركي لتبين أصوله التي استمد منها، وقد أرجأنا خبر عملين جماعيين أهم مما ذكرناه، لاحتياج ذكرهما إلى مقدمات أخرى.

لا يشترط إذن السلطة:

وقد تطرق الغزالي فبحث أمر جواز تكوين جماعة للأمر بالمعروف من ناحية موضوعية، ودلل على عدم اشتراط الشريعة إذن السلطة في ذلك، وأن ذلك الأوفق للقياس.

قال ﷺ: «قال قائلون: لا يستقل آحاد الرعاية بذلك، لأنه يؤدي إلى تحريك الفتن، وهيجان الفساد، وخراب البلاد.

وقال آخرون: لا يحتاج إلى الإذن -وهو الأقيس- لأنه إذا جاء للآحاد الأمر بالمعروف، وأوائل درجاته تجر إلى ثوان، والثواني إلى ثوالث، وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب، والتضارب يدعو إلى التعاون، فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف، ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه.

ونحن نجوز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار، قمعًا لأهل الكفر، فكذلك قمع أهل الفساد جائز، لأن الكافر لا بأس بقتله، والمسلم إن قُتِل فهو شهيد، فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله، والمحتسب الحق إن قُتِل مظلومًا فهو شهيد.

وعلى الجملة، فانتهاء الأمر إلى هذا من النوادر في الحسبة، فلا يغير به قانون

القياس، بل يقال: كل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده، وبسلاحه، وبنفسه، وبأعوانه»[1].

وهذا نص يكتب بماء الذهب.

وعلى الدعاة أن يحفظوه عن ظهر قلب.

وهو دليل على أن في كتب التراث مناجم للفقه الحركي كثيرة.

وبمثل هذه النصوص تفهم الوصف القديم للدعاة، حين وصفهم شاعرهم فقال:

وهـــم جمـــعٌ إذا هَمُّـــوا بأمـــرٍ قاطـــعٍ مَحْـــضِ

تَنَـــادَوا ثـــم ســـاروا بـ رئيـــسٍ لهـــم مُرضِـــي

وأمر الإسلام أرفع الأمور القاطعة المحضة التي يسير لها الدعاة مجتمعين برئيس يرتضونه ويرتضي الشرع أخلاقه وسيرته.

وللغزالي كلام آخر في تفنيد اشتراط إذن السلطان في الأمر بالمعروف من المفيد أن نقرنه بكلامه هذا في تجويز الاجتماع على الأمر والنهي.

قال ﷺ: «قد شرط قوم هذا الشرط، ولم يثبتوا للآحاد من الرعية الحسبة، وهذا الاشتراط فاسد، فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرًا فسكت عليه عصى، إذ يجب نهيه أينما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكُّم لا أصل له».

ثم قال: «فإن قيل: في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقًّا، فينبغي ألا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من الوالي وصاحب الأمر.

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٣٣).

فنقول: أما الكافر فممنوع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام، والكافر ذليل، فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة، وما فيه من عز السلطنة والاحتكام لا يحوج إلى تفويض، كعز التعليم والتعريف؛ إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدم على المنكر بجهله لا يحتاج إلى إذن الوالي، وفيه عز الإرشاد وعلى المعرف ذل التجهيل، وذلك يكفي فيه مجرد الدين، وكذلك النهي».

ثم خلص إلى أن «استمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض، بل كل من أمر بمعروف فإن كان الوالي راضيًا به فذاك، وإن كان ساخطًا له فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه، فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه، ويدل على ذلك عادة السلف في الإنكار على الأئمة، كما روي أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد: فقال له رجل: إنما الخطبة بعد الصلاة.

فقال له مروان: اترك ذلك يا فلان، فقال أبو سعيد، أي الخدري: أما هذا فقد قضى ما عليه، قال لنا رسول الله ﷺ: من رأى منكم منكرًا فلينكره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.

فلقد كانوا فهموا من هذه العمومات دخول السلاطين تحتها، فكيف يحتاج إذنهم؟»[1].

فهذا طرف أيها المسلم الغيور مما كان عليه السلف، رضي الله عنهم، من فقه الدعوة والعمل الجماعي.

وإلى حلقة أخرى نتناول فيها أطرافًا أخرى من فقه دعاة عصرنا هذا لنظرية العمل الجماعي.

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣١٥).

الصياغة الحديثة لنظرية العمل الجماعي[1]

نكبتان كبيرتان حدثتا في تاريخ الإسلام، أتعبتا عموم المسلمين، ولمدى أجيال، بخلاف نكبات صغيرة محدودة الأثر كثيرة.

النكبة الأولى: أحدثها هولاكو، وبلغت ذروتها باحتلاله بغداد عاصمة الإسلام.

والناظر لهذه النكبة يجد أنها ما كانت بدعة عما يصيب الأمم في فترات ضعفها. وتوقَّعها الكثير من العلماء، وحذّروا الأمة وأولي الأمر من وقوعها قبل سنين طويلة من السنة التي وقعت فيها، وهي سنة ٦٥٦هـ، لما رأوه من تردي أحوال العامة في عقيدتها وأخلاقها، وبعد جهاز الدولة عن الجد والتجرد، وضعف هيمنة الخلفاء، وعزوف جمهور العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والْتِهائهم بالجدل والمناظرات الجافة الموغرة للصدور[2].

وقد حاول بعض متأخري الخلفاء إصلاح الأحوال بنظام الفتوة الذي حرف به سيرة كثير من العامة إلى سيرة شبه عسكرية، إلا أن إصلاحه كان مخروقًا؛ لأنه لم يعتمد العقيدة أساسًا تربويًّا لنظامه، فتحول النظام إلى نوع من اللهو.

وهذا هو الذي يُفسّر لنا ذلك الذهول الذي أصاب معظم الأمة بعد تلك النكبة، وحيرتهم، ولولا أن أتاح الله للأمة الإمام ابن تيمية، بما أعاده من الثقة، وأوضحه

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١١٥)، ١٩ رجب ١٣٩٢هـ/ ٢٩ أغسطس ١٩٧٢م، ص٢٤-٢٦.

(٢) أشار الغزالي في مواضع من الإحياء إلى مثل هذه الظواهر، وكتب فيها الندوي خلال كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» في طبعته الثانية، ولأكرم العمري بحث عن أخلاق العامة آنذاك، نشره في مجلة كلية الدراسات الإسلامية ببغداد.

من فقه العمل، لكان الذهول أطول، إلا أن بعض أصحاب القلوب الحية من العلماء كانوا أسرع إلى فهم كلام ابن تيمية، فعاونوه، أو نسجوا على منواله، ورتقوا بعض الخرق الكبير.

ومع ذلك، فيجب ألَّا نبالغ في تصوير أثر الاستدراك الذي قام به ابن تيمية وصحبه، فإنه كان محدود الأثر، واستمرت أحوال العامة في التردي، واستمرت تجزئة العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة متنازعة ضعيفة.

بعد قرون من نكبة بغداد، استطاعت الدولة العثمانية في عصرها الأوسط، وبمجيء بعض السلاطين الأقوياء الذين تمكنوا من توسيع رقعتها، أن ترث هيبة العباسيين، وتعيد إلى الأذهان معنى الخلافة الأقرب إلى سمتها الأول الذي عهده المسلمون في أواسط الخلافة العباسية، إن لم نقل: سمتها الأقدم من ذلك، واستمرت الدولة العثمانية حتى نهاية حكم السلطان عبدالحميد ﷺ، جديرة بأن يوصف حكمها بأنه حكم إسلامي، على عيوب كثيرة، ونقص في تطبيق بعض الأحكام الشرعية في آخر عهدها، وعلى ظلم من بعض الولاة الذين أساء السلاطين اختيارهم أحيانًا.

ولا يقول بخلاف قولنا هذا إلا متأثر بتزييف حقائق التاريخ الحديث، ذلك التزييف الذي قامت به المجامع الاستشراقية والدوائر التبشيرية، واستخدمت فيه عملاءها من الكُتّاب أو ضحاياها من الذين تقمصهم نوع من التطرف القومي العربي.

وأما النكبة الثانية: فاحتلال الجيوش الإنكليزية والفرنسية لبلاد الإسلام في الحرب العالمية الأولى، وقضاؤهم على آخر صورة يمكن أن تُسمّى بأنها إسلامية كما قلنا ممثلة في الحكم العثماني أو بعبارة أدق: قضاؤهم على أي احتمال قريب لتقويم انحراف الحكم العثماني عن الإسلام، حين حرّف حزب الاتحاد والترقي بانقلابه على عبد الحميد قوانين شرعية كثيرة، وحرّف مناهج التربية، وأشاع الطورانية،

أي القومية التركية، ورضي السذج من أركان ذلك الحزب تدخل الأيادي اليهودية والماسونية في الحزب وسياسة الدولة.

وكما جعل هولاكو احتلال بغداد هدفًا معنويًّا مهمًّا أراد به كسر معنويات عموم الأمة الإسلامية، فكذلك جعل الحلفاء، أو الإنجليز بالتحديد، أو تشرشل نفسه احتلال بغداد والقدس هدفًا معنويًّا، مع التركيز على احتلال بغداد بالذات لكسر معنويات الأمة، وإعادة احتلال هولاكو لها إلى الأذهان، كما كشفت عن ذلك البرقيات المتبادلة بين قائد الحملة الإنكليزية لاحتلال العراق خلال الحرب العالمية الأولى، وبين وزارة المستعمرات[1].

وبرزوح البلاد الإسلامية تحت حكم الجيوش الاستعمارية، أو تحت حكم المماليك الذين نصّبوهم ووجّهوهم من وراء ستار، عادت الجاهلية إلى أرض البلاد الإسلامية، ضربت أطنابها، وتمكّنت من قياد المؤسسات السياسية، والأجهزة التربوية، والبيوت التجارية والمالية، واستطاعت بذلك من دخول القلوب بالترغيب والترهيب.

وبعودة الجاهلية، عادت الحاجة إلى من يجاهدها ويعيد حكم الإسلام.

مبادرة عاكستها الظروف:

وحين أذهلت المخلصين بدعة الانحراف الضخمة التي جاء بها حزب الاتحاد والترقي حاول بعض السذج منهم مناهضتها فورا، ففشلوا، في قصص مشهورة، إلا أن المحاولة الواعية جاءت بعد سنين من بغداد، على يد رجل من كبار العسكريين أيام عبدالحميد، ويعرفه العراقيون بالنبل والتقوى والشجاعة، ذلكم هو «محمد

(١) كتاب «حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨» لشكري محمود نديم.

فاضل باشا الداغستاني» ﷺ؛ إذ إنه أسس مع بعض خيار أعيان بغداد من آل الخطيب وغيرهم ما أسموه بـ «الحزب الإسلامي» سرًّا، ونص منهاجهم على مناهضة حكم الاتحاديين، وإعادة الحكم إلى سمْت إسلامي شرعي واضح على نحو ما كان سابقاً[1].

كانت مبادرتهم هذه سنة ١٩١٣.

ولذلك أجبرتهم ظروف الحرب العالمية على التريث والالتهاء بصد الخطر العام الذي دهم الأمة، ثم مات البطل الداغستاني فيما نحسبه شهادة بشظايا طلقة مدفع خلال معركة حصار الكوت، تلك المعركة الظافرة الرائعة التي انتهت بهزيمة الإنكليز أمام بعض بقايا جيش الأمة الإسلامية، واستسلام أربعة عشر ألف جندي إنكليزي وأخذهم أسرى، وكان الداغستاني ﷺ قائد المتطوعين غير النظاميين في تلك المعركة وما سبقها، ودفن جوار قبر الإمام أبي حنيفة ببغداد، ودفنت معه تلك الهمة الكبيرة العالية النبيلة.

تجدد الذهول:

ولكن انتهاء الحرب العالمية، وتسلط الجاهلية، تركا عموم المسلمين في ذهول شديد وحيرة.

كان الوضع الجديد بحاجة إلى رجل يبدأ فيعيد من أفراد المسلمين أمة إسلامية، ويقودها إلى حكم الإسلام ثانية، بأسلوب يناسب الواقع الجاهلي.

لكن الرياح الجاهلية كانت تصفر صفيرًا شديدًا في ديار الإسلام الخالية، وما هناك من يصرخ بالمسلمين مستنهضًا، فيعلو هتافه على صفيرها.

(١) تجد الإشارة إلى خبر هذا الحزب في كتاب «البغداديون أخبارهم ومجالسهم» لإبراهيم الدروبي.

نعم، كانت أصوات مخلصة كثيرة في بقاع الإسلام، لكنها ما كانت تعرف طريق العمل الصحيح، ولا الصفاء الإسلامي الكامل، وتتوهم الطريق مقالات تكتب أو مؤتمرات تجتمع فتقرر عودة الإسلام على الورق فحسب؛ ولذلك بدت صيحاتهم على ورق الصحف أو المنابر أو في المؤتمرات كمجموعة نغمات نشاز أمام نغمة الأوج الهدارة لنشيد الإسلام الجديد الذي كان المسلمون بشوق إلى سماعه.

كان الإسلام بحاجة إلى من يعرف طريق العودة الصحيح، ويفقه أصول نظرية العمل الجماعي عند السلف، فيدق صدره، ويعلي صوته ليسمعه المسلمون، ويقول: ها أنا، فيلتفون حوله، ويتميزون صيحته، ونبرة تكبيره.

إدراك الذات

«ها أنا» هذه عرف إقبال ﷺ حاجة الأمة لها.

إنها التعبير عن «إدراك الذات» عنده.

وفي مثل فترة الذهول تلك، التي كان يعيشها المسلمون، تعني إدراك الطريق الصحيح، الذي يبدأ من تربية الفرد، على معاني العقيدة الإسلامية الصافية، ويتطور إلى تجمع له قيادة لها خطة.

وقد صور إقبال إدراك الأمة لذاتها الحقيقية الإسلامية من بعد ذهولها كإدراك الطفل لذاته من بعد عجزه أيام طفولته الأولى.

ولأن هذه الأمة تولد من دعوة رجل واحد فقيه ذي همة، كما قال في ديوانه الذي خصصه لبيان الذات: «تولد الأمة من قلب جليل»[1]، فقد تحددت صفة الخطوة الأولى في طريق انتشال الأمة من الذهول وإرجاعها إلى الإسلام.

(١) شطر من ديوان الأسرار والرموز، ص١٠٨.

إنها الخطوة الأولى، عنوانها: أن يبادر قلب جليل فيدق صدره أمام جماهير المسلمين ويقول ها أنذا، على صفاء عقائدي، وتجرد سلوكي تلحظونه، فتجمعوا حولي.

أو، بأحرف إقبال في تصوير هذا البشير النذير حين يستفيق من الذهول:

أرأيـــت الطفل يـــا ذا البصر ما له عن نفســـه مـــن خبر

ليس تـــدري أذنه مـــا النغمة لحنـــه ثورتـــه والضجـــة

وبعيـــن الكون إنســـانا يرى كل شـــيء ما عـــداه أبصرا

بعـــد لأي طـــرف الخيط بدا بعدما حلّـــت يـــداه العقدا

فتـــراه عينـــه مســـتعلنا فيـــدق الصدر، يعنـــي: ها أنا

«أنا» هذي بـــدء مقصود الحياة نغمة اليقظة في عـــود الحياة[1]

هذا هو «المجدد» بالاصطلاح الإسلامي؛ فالإسلام لا يعرف «أن تكون السلطة بيد الجاهلية ويقف الإسلام منها موقف التابع المتخلف، ولا كان يكفيه أن يكون هنا وهناك رجال متمسكون بالإسلام في حياتهم الفردية المحدودة، وتشيع في الحياة الجماعية الواسعة أخلاط شتى من الجاهلية والإسلام.

ولذلك كان -ولا يزال- الدين الإسلامي في كل عصر في حاجة إلى رجال أقوياء يأتون ويسددون خطى الزمان ويوجهون مسيره إلى الإسلام، سواء أكان عملهم في ذلك محيطًا شاملاً أو كان على بعض نواحي الأمر مقتصرًا، وهؤلاء هم الذين يدعون بالمجددين»[2].

(١) ديوان الأسرار والرموز، ص١٣٣.

(٢) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه للمودودي، ص٢٨.

ولأن طريقهم يقتضي البذل، كان من شروطهم أن يكونوا أبطالاً من الشجعان؛ إذ إن «الذين لا يقوون على البذل في سبيل المقصد الأعلى، ولا يشجعون على مقاومة الأخطار والمشكلات والذين لا يطلبون في هذه الدنيا إلا الراحة والسهولة والرغد، وهم ينسكبون لذلك في كل قالب ويطاوعون لكل ضغط، لا تجد لهم فعالا يذكر في التاريخ الإنساني، وإنما تشكيل التاريخ يكون من شأن الأبطال وحدهم، وهم الذين قد غيّروا أبدا مجرى الحياة بجهادهم وتضحياتهم، وبدّلوا أفكار العالم»[1].

ها أنا.. يقولها حسن البنا:

وكان هذا البطل الشجاع الذي دقّ صدره وقال: ها أنذا، هو الإمام حسن البنا ﷺ، ورفع صوته عاليًا معلنًا بداية التجمع والمسير سنة ١٩٢٨، بعد عشر سنوات كاملات من الذهول الذي أصاب الأمة من جراء نتيجة الحرب العظمى، وسرعان ما تكاتفت معه تلك الطليعة المؤمنة من عمال شركة قناة السويس، فكانت الدعوة الوارثة لجماعات السلف الآمرة بالمعروف.

وكان الأستاذ المودودي يمهد آنذاك ببحوثه القيمة لمثل هذه المسيرة في الهند، ثم بدأ التجميع فعلاً سنة ١٩٣٨م.

وتلقف بعض الميامين هذه الدعوة في بعض البلاد العربية عن الإمام البنا، فكان في كل مكان رائد شجاع تجمعت حوله طليعة، وبدأوا المسير المبارك في السودان، وسوريا، وفلسطين، والعراق.

وبذلك رسم هؤلاء القادة، بريادة الإمام البنا، مع الطلائع المقدامة الذين سارعوا للعمل معهم، الصورة العملية لأصول نظرية العمل الجماعي الإسلامي

(١) نحن والحضارة الغربية للمودودي، ص٢٥١.

في العصر الحديث، وأتاحوا لبلاغة سيد قطب ﷺ أن تنطق فتصف الطريق الدائم لمسيرة الدعوات.

يدعونا أن نتذكر «كيف وقع هذا الأمر أول مرة؟»!

لقد وقف رجل واحد يواجه البشرية كلها بمنهج الله ويقول لها - كما أمر -: إنها في جاهلية، وإن الهدى هدى الله..

ثم تحول التاريخ.. تحول حين استقرت هذه الحقيقة الهائلة في قلب ذلك الرجل الواحد. تحول على النحو الذي يعرفه الأصدقاء والأعداء!

هذه الحقيقة التي استقرت في قلب ذلك الرجل الواحد ما تزال قائمة قيام السنن الكونية الكبرى.. وهذه البشرية الضالة قائمة كذلك، وقد عادت إلى جاهليتها! وهذا هو الأمر في اختصار وإجمال..

توجد نقطة البدء. نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب.. في عدة قلوب.. في قلوب العصبة المؤمنة.. ثم تمضي القافلة في الطريق.. في الطريق الطويل.. الشائك.. الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة، فيما عدا بعض الاستثناءات، ثم تصل القافلة في نهاية الطريق الطويل الشائك.. كما وصلت القافلة الأولى..

لست أزعم أنها مسألة هينة، ولا أنها معركة قصيرة.. ولكنها مضمونة النتيجة.. كل شيء يؤيدها.. كل شيء حقيقي، وفطري، في طبيعة الكون، وفي طبيعة الإنسان.. ويعارضها ركام كثير، ويقف في طريقها واقع بشري ضخم، ولكنه غثاء!

ضخم نعم.. ولكنه غثاء!»[1].

«إن نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام.. أن

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة لسيد قطب، ص١٩١.

يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق، فيشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.. ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع، ويطبقون هذا في واقع الحياة.. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان»[١].

«إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعا»[٢].

«والثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مئة، والمئة يصبحون ألفا، والألف يصبحون اثني عشر ألفا.. ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي!»[٣].

فهذا هو أسلوب الطلائع في محاولة البعث الإسلامي لتحقيق المنهج الإسلامي؛ فالمنهج «إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر، تؤمن به إيمانا كاملا، وتستقيم عليه، بقدر طاقتها، تجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين، وفي حياتهم كذلك»[٤]، ولا بد «من البعث الإسلامي مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث، وبين تسلم القيادة؛ فمحاولة البعث الإسلامي هي الخطوة الأولى التي لا يمكن تخطيها»[٥].

وهذه الطلائع، هي الطلائع الموفقة الفائزة التي سيندم من لم يلتحق بها منذ الآن، وسيتوجع كما توجع الصحابي ذو الجوشن الضبابي ﷺ، حين لم يُسلم إلا بعد فتح مكة، وقد كان رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام بعد بدر فقال له: «هل لك إلى أن تكون من أوائل هذا الأمر؟

(١) في ظلال القرآن (١٠/ ١٩١).
(٢) معالم في الطريق (٩/ ١١٨).
(٣) المرجع السابق، ص١٢.
(٤) هذا الدين لسيد قطب، ص٧.
(٥) معالم في الطريق، ص٧.

قال: لا.

قال: فما يمنعك منه؟

قال: رأيت قومك كذّبوك وأخرجوك وقاتلوك، فأنظر، فإن ظهرت عليهم آمنت بك واتبعتك، وإن ظهروا عليك لم أتبعك... فكان ذو الجوشن يتوجع على تركه الإسلام حين دعاه إليه رسول الله ﷺ»[1].

وكم من أناس اليوم لا يعدو منطقهم منطق ذي الجوشن، يدعوهم واقع المعركة الإسلامية إلى أن يكونوا الأوائل، والمقدمة، والنبلاء، والقادة، ورأس النفيضة، فيأبون إلا أن يكونوا مؤخرة؟

وكم من إصبع سيعض ندما يوم يختار الله الطلائع السائرة لإتمام نوره؟

ولا تزال اليوم في العالم الإسلامي بلاد كثيرة فيها عناصر من الأفراد الدعاة جيدة، وجمعيات إسلامية متعددة، وتجمعات لدراسة الحديث النبوي الشريف وكلام السلف، وطرق صوفية، وطلاب دراسات شرعية، وأحزاب إسلامية انتخابية لا تعتمد طريق التربية، ولكن ليس في أي من هذه الأحزاب والطرق والتجمعات والجمعيات والعناصر التصميم على سلوك طريق الدعوة التي تتجمع على أساس طاعة لأمير، وتلح في التربية، وتخطط لتغيير الواقع الجاهلي الذي يضغط عليها واستبداله بحكم إسلامي؛ فهذه الجماعات مدعوة، أينما وجدت، في شمال إفريقيا أو شرقها أو غربها، أو في منطقتنا هذه، أو في بلاد الأفغان، أو جنوب شرقي آسيا، إلى أن يراجع أفرادها أنفسهم، فيصححوا عقائدهم إن كان فيها نوع بدع، ويعلوا هممهم إن كان يعتريهم نوع خوف، ويتخلوا عن الأنانية وحب التزعم إن كان قد ولدهما فيهم

(١) طبقات ابن سعد (٦/ ٤٧).

طول العمل في تجمعات صغيرة، ثم يبايعوا حرا يتميز بهم في حركة إسلامية واضحة الهدف التغييري، متينة التوجيه التربوي، رصينة الصف التنظيمي.

فإذا بادر مقدام فقال: ها أنا، فإن لأفراد هذه الجماعات أسوة وقدوة في الحوار الشريف بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حين أمر الله إبراهيم ببناء الكعبة.

قال إبراهيم عليه السلام:

«يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربك.

قال: وتعينني؟

قال: وأعينك»[1].

فهذا هو جواب المؤمنين دومًا، بلا تلكؤ ولا تلعثم.

وإن الله قد أمر بإعادة الحكم الإسلامي ويجب أن تكون من الأعوان.

لا تتخلف، وامض، وبادر، وكن وريث إسماعيل.

لا تقعد في بيتك.

لا تسمع نداء مستقبلك الوظيفي والتجاري، فهنا في هذه الإجابة الإسماعيلية رأسمالك الحقيقي.

فإن استغربت أسلوب الطلائع، وأبيت إلا فتاوى القدماء، فاستمع إلى الإمام ابن تيمية يشرحه لك ويقول:

«كثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال الإسلام، جزع وكَلّ وناح كما ينوح أهل المصائب وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٧٥).

والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا» ثم يقول: «وقوله ﷺ، ثم يعود غريبا كما بدأ،: أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه، وقد قال تعالى: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ [المَائِدَة:٥٤]، فهؤلاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك.

وكذلك بدأ غريباً ولم يزل يقوى حتى انتشر، فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ثم يظهر حتى يقيمه الله عز وجل، كما كان عمر بن عبدالعزيز لمّا ولي قد تغرب كثير من الإسلام على كثير من الناس حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر، فأظهر الله به في الإسلام ما كان غريباً»[1].

الرواد يصفون الطريق:

فإن هداك الله، وكنت في الطلائع، فاسمع الرواد في العصر الحديث يشرحون لك الطريق.

فأول ما ينبه إليه الإمام البنا هو: «وجوب الجد والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس»[2].

ثم شرح ذلك فقال: «إن كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث: مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة، وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب.

ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٨/ ٢٩٧)، والإشارة إلى حديث: بدأ الإسلام غريباً ثم يعود..
(٢) المؤتمر الخامس المجموعة، ص٢٣٩.

ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج.

وكثيرًا ما تسير هذه المراحل الثلاث جنبًا إلى جنب؛ نظرًا لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعا، فالداعي يدعو، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك. ولكن لا شك في أن الغاية الأخيرة، أو النتيجة الكاملة، لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار ومتانة التكوين»[1].

وأما الأستاذ المودودي فيدعوك إلى التأمل في سيرة النبي ﷺ لترى كيف «قام ذلك الرجل الوحيد فتحدى الدنيا كلها، ورفض كل تلك الأفكار الخاطئة والطرق المعوجة التي كانت رائجة في الدنيا، وعرض بإزائها عقيدة من عند الله مخصوصة وطريقة معينة، وفي مدة قليلة من السنين حوّل مجرى التيار، وغير لوّن الزمان بقوة تبليغه وجهاده»[2].

«إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام، فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام، ثم إذا لم يكن من الممكن تحقيق هذا المقصد الأسمى إلا بالمساعي الجماعية، لم يكن بد من أن تكون في الأرض جماعة صالحة تؤمن بمبادئ الحق، وتحافظ عليها، ولا تكون لها غاية في الحياة إلا إقامة نظام الحق وإدارة شؤونه بغاية من الاهتمام والعناية.

ولعمر الحق إنه ولو لم يكن على وجه الأرض إلا رجل واحد مؤمن، لما جاز له أن يرضى على نفسه بتسلط نظام الباطل، حينما يجد نفسه وحيدًا فاقدًا للوسائل اللازمة، أو أن يحاول التستر وراء الحيل الشرعية، كالاقتناع بأهون البليتين، بل الحق

(١) المرجع السابق، ص٢٥٤.
(٢) نحن والحضارة الغربية، ص٢٥٠.

أنه لا يكون أمامه إلا طريق واحد، وهو: أن يدعو الناس كافة إلى منهاج الحياة الذي يرضى به الرب تعالى. فإن لم يُجب لدعوته أحد، فإن قيامه على الصراط المستقيم، واستمراره في دعوة الناس حتى يلقى ربه خير له ألف مرة من أن يتنكب الصراط الحق ويهتف بنعرات تهش لها وتفرح بها الدنيا المتسكعة في بيداء الضلالة والغواية».

وكما وعي الرجال هذه الطريقة، وعتها امرأة من الداعيات، وذلك قول الفاضلة نهال بنت الرجل الصالح علامة العراق أمجد الزهاوي ﷺ «إن ما ألمّ بالعالم الإسلامي من أرزاء، بانحرافه عن جادة الصواب وطغيان المادية، لأعظم من أن يتلافى بجهود ضئيلة، من خطب ومقالات ومحاضرات ومسائل جزئية ومقاومات فردية؛ فالسيل لا يصده إلا سيل مثله»[1].

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عِمۡرَان:٣٤]؛ فقد كان أبوها ﷺ يلهج ببيان طريق العمل الجماعي الصحيح، ويحث عليه، وأفتى بوجوبه.

ولكن هذه الحقائق ذهل عنها الفرديون وظنوا أنه طريق خطب، وصيحات منابر، وقرارات مؤتمرات، وحاول الداعية الإسلامي الكبير شكيب أرسلان ﷺ تعليمهم الطريق الصحيح فلم يُفلح.

يقول ﷺ في نص ثمين جدًّا خلال رسالة أنشأها سنة ١٩٣١م، ونشرت مجلة «المسلمون» صورتها، يخاطب أحد أبناء فلسطين:

«تأتيني كتب كثيرة من المغرب وجاوا ومصر وسورية والعراق ونفس فلسطين بلدكم، مقترحًا أصحابها عقد مؤتمر إسلامي أو انتخاب خليفة وما أشبه ذلك. ويكون جوابي دائما: يجب أن نؤسس من تحت. يجب أن نربي الفرد».

(١) مجلة التربية الإسلامية ببغداد، مجلة ٣، عدد ٤.

ثم يستطرد فيقول: «أما أن نعقد مؤتمرًا مجموعًا من ضعفاء ليس لهم إرادة مستقلة، وهم لا يقدرون أن ينفذوا قرارًا، فما فائدة ذلك؟ أتريد أن نجمع أصفاراً؟»[1].

وهذه كلمات تكشف عن قمة الوعي وعن آخر تجارب الدعاة، ولكن أصحاب شكيب خذلوه وكانوا أقصر هممًا.

ولا زلنا ننظر هؤلاء الخطباء المساكين على منابر الجمعة والاحتفالات يتألمون، وينادون المسلمين بالعمل والجهاد، ويختمون خطبهم بمثل قولهم: الإسلام يناديكم ولا يسألون أنفسهم: بأي متصد للزعامة نثق، وما ثم فيها إلا قائد مقود، ومتبجح مملوك؟

إنهم جهلوا طريق العمل الصحيح، فلا تؤدي خطبهم إلا إلى زيادة آلامهم وآلام السامعين، ولو علّموهم اليأس من قادة اليوم، وأرشدوهم إلى وجوب التجمع والأمر بالمعروف الذي جاء به الإسلام، والنهي عن المنكر الذي تقترفه الأحزاب والزعامات المملوكة، لحصل لهم المطلوب الذي يتمنونه، ولكن ما زلنا نسمع نشيج الجُمعات وقرارات المؤتمرات منذ عشرات السنين، وما ثم إلا جمع الأصفار.

إنه التأسيس من تحت كما يقول شكيب، ليس غير.

وإنها خيمة التنظيم لا قاعات المؤتمرات.

ونار الأحرار، لا أنوار الثريات.

تنصب خيمتك في صحراء جاهلية القرن العشرين، وتضرم نارك ليراها التائهون والمنقطعون فيقصدونها وينزلوا خيمتك، وتنادي ابنتك لبيني لتزيد لهب النار، وتعلمها:

(١) مجلة المسلمون (٢/ ٣٦٣).

يـــا لُبَيَنَى أوقدي طـــال المدى أوقـــدي علَّ علـــى النار هدى

أوقدي يا لُبن قد حـــار الدليل أوقـــدي النار لأبناء الســـبيل

ارفعـــي النار وأذكـــي جمرها علَّ هذا الركب يعشـــو شطرها

شـــردي هذا الـــظلام الجاثما أرشـــدي هذا الفراش الهائما

حبـــذا النـــار بليـــل توقد حبـــذا المؤنس هـــذا الموقد

حبـــذا عنـــدك هـــذا النُّزُل لو حدانـــا في ســـفار منزل

ما لذا المنزل قد ســـار الفريق إنمـــا النيـــران أعلام الطريق

زودينـــا بهيـــام ووجيـــب زودي يا لُبن مـــن هذا اللهيب[1].

(١) لعزام من قصيدة اللمعات التي ألحقها بترجمته لديوان رسالة المشرق لإقبال.



وبعد: «فقد افتضحت الجاهلية وبدت سوأتها للناس واشتد تذمر الناس منها فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام»[1].

بهذه البساطة عبر سيد قطب ﷺ عما يرى أنه يتحدث عن أمر عظيم جليل وانتقال ضخم لكنه من أمر الحقائق.

ولهذا حفته البساطة وكذلك شأن الحقائق دومًا.

فحينما يكون الأمر حقيقة لا يحتاج إلى كثير بلاغة ولا إلى إطناب أو بهرج وتزويق.

إنها الحقيقة التي يعيشها الغرب، فهذا الخواء الروحي والانحدار الجنسي والتمييز العنصري، والظلم الاستعماري، لم يعد إفلاسًا مجردًا، بل فضيحة كبيرة للحضارة الغربية.

وهي الحقيقة التي ترهق المجتمعات الشيوعية، ولو لم يكن فيها إلا الإرهاب وكبت الحريات لكفتها فضيحة.

كما أنها الحقيقة التي تشير إلى عدل الإسلام وسماحته وسكينته التي يهديها إلى القلوب التي أتعبها قلق المادة.

إن تأملًا قصيرًا يرينا بوضوح أن شعوب الأمة الإسلامية قد ملت وسئمت ما اقتبسوه لها من مادية الغرب ونظمه، وما فطنوا له فقلدوه من أساليب الإرهاب

(١) مقدمة سيد قطب لكتاب الندوي: ماذا خسر العالم، ص٢٠.

والتجويع الشيوعي وأصبحت القلوب والعقول على أتم الاستعداد لمسيرة إياب إلى الإسلام ثانية.

ولكن بينها وبين الوصول إلى دار السلام مفازة ولا بد للمفازة من دليل، فإن وجد الدليل فإن الوصول قريب.

جاذبية الدعاة:

وخير ما يكون الدليل إذا كان حاديًا يجيد الترنم.

إنه يطرب الذين وراءه فيتبعونه، وهذا هو ما تصوره بلاغتنا القاصرة، لأن من يتبع طربًا قد تعتريه غفلة أو تفجؤه عثرة أو تغلبه إغفاءة فيتوقف.

أما بلاغة إقبال فأتم وأكمل وأبدع.

إنه يجد في إدراك الذات قوة جذب تجبر الآخرين على الارتباط بها، فإذا جمع المسلم الحر الفطن ذاته فكان داعية فإنه يدير من يريد في فلكه.

يقول إقبال: شدت الأرض قواها، فالقمر في طواف حولها لا مستقر[1].

فلأن الأرض تحفزت، وخزنت من قوة الجذب ما استطاعت أجبرت القمر على الارتباط بها والدوران حولها حتى بات لا يحدث نفسه بفرار.

فكذلك التفاف الناس حول دعوة الإسلام يكون حتميًا إذا شد الدعاة قواهم حتى يعتاد الناس الدوران في فلكهم ويجدون في ارتباطهم بالدعوة نوع اضطرار.

فأنتم أنتم أيها الدعاة من يتحكم في الأمر لإنهاء أحزاب الضلال إن شددتم قواكم، ولا مناص للناس آنذاك إنما هم أسراكم، وإنما شد القوة في الاجتماع، ونتيجة الاجتماع أن يكون الصف، ومن أتى صفًا غلب إلا أن يشاء الله غير ذلك.

(١) ديوان الأسرار والرموز، ص١٥.

وتنادى السحرة الذين عارضوا موسى قبل إيمانهم فقالوا: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗا﴾ [طه:٦٤] كما أخبر الله تعالى.

وبذلك عبروا عن التجمع المنظم للجاهلية في كل عصورها من خلال هذا الشعار الذي يعطي درسًا بليغًا لمن يحزن على مصير المسلمين وليس لديه إلا التأوه.

إن الجاهلية المنظمة لا يغلبها إلا إسلام منظم، ولا ينتصر دعاة الإسلام اليوم إلا إذا جمعوا خيرهم ثم أتوا صفًا واحدًا متراصًا مقتحمًا.

ارفع للخير راية:

ولكن كيف يتم التجمع بلا مبادأة من صاحب خير؟

إنها المبادأة اللازمة تارة تكون تكبيرًا ينبه، وتارة تكون نارًا تلفت، وتارة تكون راية يبصرها أهل الخير فيتجمعون حولها.

ولا ينقص المسلمين اليوم في كثير من البلاد إلا هذه الراية، فإنهم كثير عددهم، غزير علمهم، جميل ذكرهم، إنما أضعفهم التشتت والضياع.

وقد زار عبد الوهاب عزام ﷺ، معظم بلاد الإسلام وساح في بلاد العرب وتركيا والهند، ودرس واقع المسلمين عن قرب فما خرج بغير هذه النتيجة فعاد ينادي الخيرين أن:

«لا يخدعنكم الفساد الظاهر والشر المستشري ولا يهولنكم ذكر فلان وفلان من المفسدين، ففي الأمة أخيار أكثر ممن تعدون من الأشرار، ولكنها راية رفعت للشر فأوى إليها أشرارها، وهرع نحوها أنصارها ونفر منها الأخيار فلم ينحازوا إليها ولم تسمع أصواتهم حولها، ولو رفعت للخير راية لانحاز إليها الأخيار وحفوا بها وسكنت أمة الأشرار وقل جمعهم وخفت ذكرهم.

إن في الأمم خيرًا وشرًا وفسادًا وصلاحًا ومصلحين ومفسدين، فإن رفعت راية للخير انضوى إليها الأخيار في كل طائفة، وغلب بها الخير في الأنفس التي يغلب شرها خيرها، ونبت خير في نفوس لا خير فيها، فإن الإنسان لا يخلو، وإن عظم شره واستشرى داؤه، من نزعة للحق كامنة وعاطفة للخير مستسرة[1]، وهذا الكلام من الحق والصواب الظاهر.

وكثير من أهل الخير إنما وقعوا في الوهم من هاهنا.. رأوا ضخامة الفساد في بلادهم وتغير الموازين والمقاييس وتسلط الأشرار فظنوا أن الأمر قد فلت واستحكم الكفر، واختاروا إما السكوت وإما الهجرة إلى بلد أخف شرًا يتعطلون فيه.

وقبلُ، حين استحكم أمر الجهمية والمعتزلة والشعوبية أيام المأمون والمعتصم والواثق، ووسدت الأمور إلى غير أهلها، تألم القائد العربي الغيور أبو دلف القاسم العجلي، وكان من كبار أهل الخير، صحيح العقيدة ظاهر النبل مناهضًا للشعوبية التي يرعاها بعض القادة فاندفع يقول:

ومقـــام الكريم فـــي بلد الهون إذا أمكـــن الرحيـــل محال

حيث لا رافعا الســـيف من الضـ ـيـــم ولا للكماة فيـــه مجال

في بلاد يـــذل فيهـــا عزيز الـ قوم حتـــى يناله الأنـــذال[2]

ثم هاجر إلى معسكره بمدينة الكرخ التي تقع أطلالها اليوم على الطريق الذاهب من العراق إلى خراسان، قبيل كرمانشاه، وهي غير الكرخ المعروفة ببغداد.

كان حرًا، لكنه كان فردًا ولذلك لم يأب الهجرة، أما الإمام أحمد بن حنبل فكان

(١) الشوارد لعزام، ص١٧٣.

(٢) كتاب «بغداد» لابن طيفور، ص١٣٣.

في تلك الأزمة حرًا داعية، ولذلك أبى الهجرة وأقام ببغداد ورفع الراية فكان الثبات والتثبيت فهزم جمع البدعة.

وهكذا شأن الحر الداعية دومًا يصبر على العيش والمقام في بلده ليلتقط من مجتمع مستخذ فتيانًا صباح الوجوه، لم يصب قلوبهم وأبدانهم شيء من دنس الجاهلية وأمراضها وحرامها، ويربيهم ويغرز فيهم عزة الإسلام ويجعلهم صفوفًا.

نعم، في المجتمع المستخذي الذي طال خضوعه للطغيان تجد «النفس تميل إلى الإسفاف وتخلد إلى الراحة، وتهوى الهين من كل أمر.

ولكن في النفس، على هذا، نزوعًا إلى العلاء، وشغفًا بالارتقاء، وحنينا إلى المكارم وشوقًا إلى العظائم.

إن فيها لجمرة يغطيها الرماد، وشرارة يقدحها الزناد، فإن وجدت نافخًا في جمرها وقادحًا لشرارها، استيقظت، وتحفزت، وعملت، وصعدت، وكلما ذاقت لذة العمل والرقي زادت حبًا له وهيامًا به»[1].

ولهذا فإن المهاجر مخطئ، إلا هجرة صاحب سر يخشى عليه، أو هجرة صاحب فقه إلى من يحتاج إليه، أو هجرة من يخشى الفتنة في دينه.

أما السكوت فأبعد عن الصواب «والذين يبصرون بالظلم في كل طريق ويلتقون بالبغي في كل ثنية لا يحركون يدًا ولا لسانًا، وهم قادرون على تحريك اليد واللسان، أولئك لم يعمر الإسلام قلوبهم فلو عمرها لانقلبوا مجاهدين[2].

ومن هاهنا لا يكون المؤمن العامر القلب إلا متحركًا محركًا، أما المتباطئ الذي يعد بالالتحاق بعدما تظهر بوادر النجاح فإنما يعد وعد الضعاف.

(١) الشوارد لعزام، ص٣٥٣.

(٢) دراسات إسلامية لسيد قطب، ص٢٩.

صاح ما الحر من يثور على الظل ـــــــم وقد ثارت لحقها الأقوام

إنما الحر من يســـــير إلى الظل ـــــــم فيصميه والأنـــــام نيام[1]

إنما تقدسنا الدعوة:

وكان أعيان الفقهاء القدماء يميزون مثل هذه المعاني أكثر من المتأخرين، وأرجعوا العز الذي عرفه صدر الإسلام إلى وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن ثم قالوا إنه «هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة، وعمت الفترة وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه»[2].

قال ذلك الغزالي ﷺ: فللذي رآه فتش عن المخرج والمستدرك فلم يجد إلا أسلوب الطلائع وراح يحلي الأجر لمن يكون طليعة ويحكر له درجات القرب ويرفع الأبصار إلى ذراها، ويصيح أن أيها الناس «من سعى في تلافي هذه الفترة، وسد هذه الثلمة، إما متكفلًا بعملها أو متقلدًا لتنفيذها مجددًا لهذه السنة الدائرة ناهضًا بأعبائها، ومتشمرًا في إحيائها:

كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدًا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها»[3].

(١) ديوان المثاني لعزام، ص٨٠.
(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٦).
(٣) المرجع السابق.

وأما الذي قررناه من أمر الهجرة فقد سبق إليه الصحابة ﷺ، قال ابن تيمية:

«قال أبو هريرة: لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود، ولهذا كان أفضل الأرض في حق كل إنسان أرض يكون فيها أطوع لله ورسوله، وهذا يختلف باختلاف الأحوال، ولا تتعين أرض يكون مقام الإنسان فيها أفضل، وإنما يكون الأفضل في حق كل إنسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع والحضور، وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان: هلم إلى الأرض المقدسة!

فكتب إليه سلمان: إن الأرض لا تقدس أحدًا وإنما يقدس العبد عمله وكان النبي، ﷺ، قد آخى بين سلمان وأبي الدرداء، وكان سلمان أفقه من أبي الدرداء في أشياء من جملتها هذا»[1].

فالعمل هو الذي يقدس صاحبه، وأفضل العمل: أمر بمعروف ونهي عن منكر، وأفضل الأمر والنهي: ما كان في بلد يحتاج إليه ويثمر فيه، فلا تخدع نفسك بزهد مجرد يقودك إلى الهجرة عن موطن النفع، بل أصغ لابن القيم يشرح لك أمرك حين يقول: «ليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله وأكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم؛ فضلًا عن أن يريدوا فعلها وفضلًا عن أن يفعلوها، وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله: من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها، وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته ويبذل عرضه في نصرة دينه»[2].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٨/ ٢٨٣).
(٢) عدة الصابرين، ص١٢١.

والنبي، ﷺ، «كانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا وأعظمهم عند الله قدرًا»[1].

ولك فيه، ﷺ، أسوة وقدوة.



(١) زاد المعاد (٢/ ٣٨).

معادلة.. يفهمها الرجال![1]

من ظواهر تاريخ الدعاة أنك تجد جمهوريتهم العظمى قد عملت وبذلت للدعوة الإسلامية الشيء الكثير بصمت وسكون، وشغلهم اليوم الانغماس في العمل التربوي والتجميعي عن تدوين كثير تكشف لهم من فقه الدعوة الذوقي والتجريبي، وقليل هم أولئك الذين حبوا الدعاة بتدوين وشروح.

لكنك أيضًا، بإزاء هذه الظاهرة، تجد أن الله سبحانه يلهمهم بلاغة وفصاحة غير اعتيادية، يتاح لهم بها أن يوجزوا ويجمعوا مذهبهم في الدعوة في بضع كلمات قليلات تكون لأجيال الدعاة الآتية من بعدهم أصلًا فقهيًا مهمًا، ومعلمًا بارزًا من معالم الطريق، ويكون قائلها بها، أستاذًا في الدعوة.

قد لا تتعدى كلماتهم الأسطر، لكنها تكتسب أهميتها من كونها تقيم علاقة وارتباطا بين جزيئات إسلامية على وجه يضخم حجم هذه الجزيئات تضخمًا تغدو به عظيمة الأثر.

مثلها في ذلك مثل الأعداد المجردة، ليست تحمل من القيمة المجردة إلا قليلًا، ثم أتى علماء الرياضيات وتمكنوا من إقامة أشكال من العلاقات المختلفة بين هذه الأعداد في معادلات رياضية كشفت لهم أسرار الطاقات واستخدامها، حتى إن أينشتين قد كشف على الورق المجرد، بالقلم المجرد، في أرقام مجردة، سر الطاقة الذرية، وكيفية إخراجها من مكمنها إلى مجالات الاستخدام.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١١٧)، ٤ شعبان ١٣٩٢هـ/ ١٢ سبتمبر ١٩٧٢م، ص٢٤-٢٦.

وكذلك هؤلاء الدعاة، أقاموا أشكالًا من العلاقات بين الآداب والأوامر الإسلامية كشفت عن درب واسع لمن يريد أن يسير، وحددت العوامل الحاسمة ونقاط التأثير، ودللت على ما منحهم الله تعالى من عميق الوعي، وما اكتسبوه من طويل التجربة.

ولكن كما أن معادلات الأرقام لا يفهمها إلا رياضي تأمل وحلل، فإن معادلات الدعوة لا يفهمها ولا يدرك قيمتها إلا داعية ذاق وتحمل، ويظل بمنأى عنها وعن فقهها من قبع وتعلل.

إنكار المنكر دليل الفراسة:

من هؤلاء الدعاة لبيب من الفحول، تدل المعادلة التي وضعها على كمال عقله ونفاذ بصره، لكنه مغمور مجهول، اسمه أبو بكر بن يزداينار ﷺ، سئل عن الفراسة الإيمانية ما هي؟

فقال: «نظر الصالح، بالصلاح الذي فيه نور التقى والإيمان والحقائق والصدق، بالزهد في الدنيا، والرغبة في العقبى، فينكر على أهل المنكر منكرهم»[1].

فانظر المعنى الكبير في هذا المتن الصغير.

فهو قد جعل الفراسة شدة يقين الداعي إلى الله بثوابه يوم القيامة، ومعرفته تفاهة هذه اللذات الدنيوية المحدودة المقطوعة الممنوعة، فيحمل نفسه على تغيير المنكر ومنازعة أهل المنكر بشجاعة يمدها إياه هذا اليقين.

ووالله إنها لفراسة عالية تصغر عندها كل فراسة أخرى، مهما كانت صادقة.

وانظر العناصر الأربعة التي تجتمع فتكوِّن الصلاح الذي يدفع بصاحبه إلى صيحة الحق.

(١) علم القلوب لأبي طالب المكي، ص١٩، وهو غير كتابه المشهور قوت القلوب.

تقوى، تلبي الأمر، وتقف عند الشبهة.

وإيمان، يرى به من اليقين الأخروي ما يحجب عن أموات القلوب.

وحقائق، يعيش معها صاحبها حياة الواقع، لا أوهام الدنيا القصيرة الزائلة.

وصدق القلب في ظنه، واللسان في نطقه.

وانظر دقة اتجاه إنكاره وشموله.

إنه لا ينكر المنكر فحسب، بل ينكر على أهل المنكر منكرهم.

أي إنه لا يعرف التعميم، ولا التورية.

إنه يمد إصبعه يشير إلى الطاغوت بالاتهام، ويرفع صوته يعلن فضيحة الكفر الذي أمامه، باسمه، ورقمه، وعنوانه، ثم لا يلبث الإصبع الواحد حتى تنفتح معه بقية الخمس، فتكون يد التغيير من بعـد إصبع الاتهام.

ثم انظر الربط الرائع بين المقدمات الست في طرف المعادلة الأول، وبين التخصيص في الطرف الثاني، ينكشف لك طريق استخدام الطاقة الإسلامية في الحياة البشرية وإسالتها من ينبوعها لتروي ظمأ المتعطشين.

إنها طاقة كالطاقات:

إنها مثل الضوء، والحرارة، والكهرباء وكما خلق الله سبحانه وتعالى هذه الطاقات في الكون، وأتاح من علماء الرياضيات والفيزياء من يكشف أسرارها ويذللها لخدمة الإنسان، فإنه سبحانه أنزل أيضا هذا القرآن، وجعله من مكملات سنن الكون، وأتاح من الدعاة من يكشف أسراره.

وكما يعهد الرياضي إلى المختبرات والمصانع أن تترجم معادلاته وتصميماته

إلى أجهزة توضع في الاستخدام، فإن فقهاء الدعوة، من مثل أبي بكر بن يزداينار هذا، يعهدون إلى الحركات المنظمة أن تترجم معادلاتهم إلى عمليات تصحيحية لتخبطات الإنسان.

ومن هنا تنكشف أهمية البحوث في فقه الدعوة، وما ينبني عليها من تخطيط حركي.

إن دور فقه الدعوة دومًا أن يضع الوصف الصحيح، باللفظ الصريح، للعمل الفصيح.

روعة الفقه الحركي تكمن في الأمانة والاجتهاد.

ومثلما لا يليق بعلماء الذرة الآن أن يتطاولوا على أرخميدس وفيثاغورس وغيرهم من قدماء علماء اليونان، لما نجده من تقارب قوة وأهمية معادلات أولئك ومعادلات هؤلاء في دفع عجلة العلم، وأن كلا من الجمهوريتين أتت رائعًا بديعًا في عصرها، فإنه لا يليق أيضًا بالمتأخر ممن يفتش للدعوة الإسلامية عن معادلاتها الجديدة أن يتطاول على من سلف من فقهاء الأمة وقادة الدعوة، ولا أن يتنكر لهم، ولا أن يدلس على من يخاطبهم، بل يجب عليه أن يكون وفيًا أمينًا، فيذكر نص حروفهم حيث أغنت وكفت للتعبير عما يريد، ويكون له دور الإحياء والربط والتحليل، وإبراز المهم وشرحه وبيان حصول الإجماع فيما أجمعوا عليه، والأسطر الخفية المنسية إن أرجعها الباحث إلى ميدان التداول، وأوقع الأبصار عليها، وفتح أبواب القلوب إليها، فكأنما أحياها من بعد موت، واصطادها من بعد فوت.

وواجب المتفقه أن ينتبه لمثل هذا السمت الواجب لبحوث الدعوة، فلا يضيق صدرا بالنقول، بطرًا وترفًا، ولا يسأم تكرر المراجع، فإن الفقه منحة الوهاب، حبا به قوما قليلين.

وأثناء ذلك، لا تخف الاجتهاد والرأي الجديد، فإن فقه الدعوة لا ينمو إن حرصت على التعميم الذي يبقيك في دائرة ما لا خلاف فيه، ولكن تصلب في منهج البحث لا تتسامح فيه، واحرص على الأصول لا تدع مستعجل السير أو هياب الصراع أن يتلاعب فيها، فيخرج إلى نوع تهور أو تخذيل، ولا من استفزه الرعاع أن يسارع إلى تكفير.

ويعجبني جدًا في هذا المجال استعراض داعية في مجلة «المجتمع»، لم يكشف عن اسمه ولا أعرفه، لدور سيد قطب في توضيح وتحديد المنهج التربوي الحركي، ودور عبد القادر عودة في تحديد المنهج التشريعي، من بعد اليقظة التي أوجدها الإمام البنا في تعميماته ومهد لهما بها، والتثبيت الذي قام به الهضيبي بصلابته في موقفه، ثم استعراضه لما يصاحب كل توضيح وتحديد وتفصيل من اختلاف اجتهادي بدافع الحرص والإخلاص والاستجابة للواقع المتغير، ودور الإجماع دائما في حل الخلاف، وختم كلامه بأن تساءل: «ترى، أتعود الحركة إلى التبسيط والتعميم خروجًا من المتاعب وأمانًا من المخاوف، أم تمضي شوطًا أبعد فـــي التفصيل وتتحمل ضريبة هذا التقـدم والانتشار؟»[1].

وهو تساؤل يكمن خلفه وعي صحيح لدور بحوث فقه الدعوة في تقدم الدعوة حتى وإن ردت بعـــض اجتهادات الباحثين من بعد.

فان لم تقدم هذه البحوث اجتهادًا جديدًا فإنها لا تخلو من تعبير يزيد الوضوح، أو اصطلاح يخصص الدلالة، أو فتوى فقيه قديم مهاب يبين أصل ما نظنه جديدًا، أو، على الأقل، تقريب اجتهاد الآخرين، بالإقرار والموافقة، من تناوش الإجماع.

وحين تصدأ القلوب، وتتعكر النفوس، وتبرد الهمم، يكون ما تحمله هذه البحوث في ثناياها من قصص الحماس، ومجاز الخطاب، ومنظوم الألفاظ، نعم

(١) مجلة «المجتمع» الكويتية، العدد (١١٥)، ص١١.

العلاج اللطيف، فيه التجلية، والترفيق، والتصفية، والإشعال.

نبدأ بالمنكر الأكبر:

والمنكر الأكبر يعنونه في كلامهم:

منكر الحكم بغير الإسلام.

«إن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولًا إلى الأمر بالمعروف الأكبر، وهو تقرير ألوهية الله وحده سبحانه، وتحقيق قيام المجتمع المسلم.

والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولًا إلى النهي عن المنكر الأكبر، وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله، عن طريق حكمهم بغير شريعة الله، والذين آمنوا بمحمد ﷺ هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة، فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي، ولم ينفقوا قط جهدهم، قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل!

ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع، فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم»[1].

لا يعني ذلك أن يمتنع الدعاة عن تعليـــم أنفسهم وتعليم من معهم آداب الإسلام وأحكام العبادات، ولا النهي عن منكر فرعي يمكن إزالته بهذا النهي، لكنها دعوة واضحة لعدم خداع النفس وتلهيتها بالاكتفاء بالنهي عن المنكرات الصغيرة

(١) في ظلال القرآن (١١/ ٥٠).

والعزوف عن منكر الحكم بغير الإسلام، والقناعة برتبة الوعظ في مباحث إزالة النجاسة وسجود السهو دون الجهر بالحق، والإشارة إلى الطاغوت، وتجميع المسلمين، وتربيتهم، وتنسيق جهودهم وتوجيهها للنهضة الشاملة.

لقد أرسل الله تعالى نبيه ﷺ ليحرر الناس ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وإنها أغلال أي أغلال، ثم أعاد اليهود هذه الإنسانية إلى عذابها وأغلالها مرة أخرى، بهذه الأحزاب التي زرعوها في كل مكان، ولا بد أن تقوم نهضة إسلامية لتضع هذه الأغلال عن المغلولين، وترفع هذا الحرج والضيق الذي يرهق أبناء المسلمين.

«إنه الأمر الهائل العظيم، أمر رقاب الناس، أمر حياتهم ومماتهم، أمر سعادتهم وشقائهم، أمر ثوابهم وعقابهم، أمر هذه البشرية، التي إما أن تبلغ إليها الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد في الدنيا والآخرة، وإما ألا تبلغ إليها فتكون لها حجة على ربها، وتكون تبعة شقائها في الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف التبليغ فلم يبلغ.

فأما رسل الله عليهم الصلاة والسلام فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل.

وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها، مع هذا، قدوة ممثلة في العمل، وجهادًا مضنيًا بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق، سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك، وضلالات تزين، أو كانت قوى طاغية تصد الناس من الدعوة وتفتنهم كما صنع رسول الله ﷺ خاتم النبيين.

وبقي الواجب الثقيل على من بعده، على المؤمنين برسالته، فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده، ﷺ.

وتبليغ هذه الأجيال منوط بعده بأتباعه، ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة -تبعة إقامة حجة الله على الناس، وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا- إلا بالتبليغ والأداء، على ذات المنهج الذي بلغ به رسول الله ﷺ وأدى، فالرسالة هي الرسالة، والناس هم الناس، وهناك ضلالات وأهواء وشبهات وشهوات، وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة، وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة.

الموقف هو الموقف، والعقبات هي العقبات، والناس هم الناس، ولا بد من بلاغ، ولا بد من أداء، بلاغ بالبيان، وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعية مما يبلغون.

أنه الأمر المفروض الذي لا حيلة في النكوص عن حمله، وإلا فهي التبعة الثقيلة، تبعة ضلال البشرية كلها، وشقوتها في هذه الدنيا، وعدم قيام حجة الله عليها في الآخرة، وحمل التبعة في هذا كله، وعدم النجاة من النار.

فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعة؟ وهي تبعة تقصم الظهر وترتعد الفرائص وتهز المفاصل؟»[1].

هو شأن الرجال!

فكذلك هو الأمر الواقع.

الإسلام هو الإسلام، لا زال مستعدا أن ينهي شقاء البشر، ولكن تبليغ هذا الإسلام والقيام به، هو الذي ضعف ولذلك «كان بعض السلف الصالح يقول: يا له من دين لو أن له رجالًا»[2].

فالرجال الرجال نريد.

(١) المرجع السابق (٣١/ ٦).
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٣٠٢).

الرجال الذين هم بمستوى هذا الإسلام في شموله.

وهذا الواحد المتأسف إنما كان في عصر السلف، أي أنه كان يرى أمامه جحافل فقهاء الفروع، وجحافل الزهاد، لكنهم لم يكونوا ليملؤوا نظره.

كان يريد آخرين، الفقه والزهد من صفاتهم، لكن يذهبون إلى مرحلة أبعد.

يريدهم دعاة، همهم هداية الخلق، وإنفاذ حكم الله، والإنكار على من يحكم الناس بهواه، وهي مرحلة لا يبلغها إلا من أوتي من أخلاق الرجولة مقدارًا، ويأنف من كان رجلًا أن يقف دونها، مهادنًا ومصالحًا، أو مكتفيًا بالتوريات.

ولذلك لما قيل لأحد فحول الرجال: «لنا حويجة»، تصغير حاجة، أي جئناك تقضيها لنا، أبى وقال: «اطلبوا لها رجيلًا»[1].

فالرجيل تشبع نفسه بعمل اليسير.

أما هو فهمته عالية، قد رصد نفسه لضخام الأعمال، ويأنف من صغارها.

وإن هذه الدعوة والله لهي شأن الرجال حقًا، الذين يضم سربهم كل مقدام.

أما أهل الحذر والهلع من الصدام وعقباته، فليس فيهم إلا رويجل.

فعند الرجال، لا يكون الخوف إلا من الغفلة، كما قال العمري الزاهد: «إن من غفلتك عن نفسك، وإعراضك عن الله، أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه، ولا تأمر فيه ولا تنهى عنه، خوفًا ممن لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا»[2].

فمن ثم كان ابن تيمية يكثر تقريع الخائفين من الصالحين، وبيَّن مرارًا أن «هؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون في إزالتها، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي، ص٢٥١.

(٢) الجواب الكافي لابن القيم، ص٤٤.

فتدبر هذا، فإنه كثيرا ما يجتمع في كثير من الناس هذان الأمران: بغض الكفر وأهله، وبغض الفجور وأهله، وبغض نهيهم وجهادهم، كما يحب المعروف وأهله ولا يحب أن يأمر به ولا يجاهد عليه بالنفس والمال، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجُرَات:١٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التَّوْبَة:٢٤][(١)].

وربما تظن أنك بحاجة إلى مزيد نقاش مع مثل هؤلاء المفرطين لكن يوسف القرضاوي قد سبق وجادل، وحج وفند، ببلاغة وجمال لفظ، فكفاك.

قالوا: السعادة في السكون ... وفي الخمول وفي الخمود

في العيش بين الأهل لا ... عيش المهاجر والطريد

في المشي خلف الركب في ... دعة وفي خطو وئيد

في أن تقول كما يقال ... فلا اعتراض ولا ردود

في أن تسير مع القطيع ... وأن تقاد ولا تقود

في أن تصيح لكل وال ... عاش عهدكم المجيد

قلت: الحياة هي التحرك ... لا السكون ولا الهمود

وهي الجهاد، وهل يجا ... هد من تعلق بالقعود؟

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥/ ٣٤٠).

وهـــي التلـــذذ بالمتاعـــب لا التلـــذذ بالرقـــود

هـــي أن تذود عـــن الحياض وأي حـــر لا يـــذود؟

هـــي أن تحس بـــأن كأس الـــذل مـــن مـــاء صديد

هـــي أن تعيـــش خليفـــة في الأرض شـــأنك أن تســـود

وتقـــول: لا، ونعـــم، إذا ما شـــئت في بصـــر حديد[1]

(١) ليوسف القرضاوي، من قصائده القديمة، وهذه الأبيات من قصيدة طويلة أعادت مجلة التربية الإسلامية ببغداد نشرها في مجلدها السادس، ص٢٧٨.

الميثاق[1]

كل سطر إلى زوال، إلا هذا القرآن، فإنه خالد.

وكل نتاج عقول البشر في تغير وتبدل دائمين، وتعتريه الرجرجة، إلا نتاج عقل يقتبس من مشكاة هذا القرآن، فإنه يقتبس أيضًا شيئًا من ذلك الخلود، ويكون فيه الاستقرار والثبات.

فمن ثم تجد وحدة الفهم، ووحدة الوصف والتشخيص والمعالجة تجمع من تكلم في الإسلام ونقد المجتمع، ابتداء بمن رأى النبي ﷺ، وانتهاء بمن آمن به ولم يره في هذا القرن، بل حتى إنك لتجد في كلامهم بوضوح وحدة الأسلوب البلاغي، ووحدة الاصطلاح.

إن هذا الحفاظ والثبات وإن رآه الواهمون جمودًا ووقوفًا، إلا أنه في الحقيقة هو الإبداع كله.

فحين يضع الفيلسوف، أو عابد عقله، نظرية أو حلولًا لمشكلة إنسانيه، يكون حماسه والحماس الذي يتمكن أن يبعثه في تلامذته بسحر بيانه من عوامل تغطية ما يعتور حوله من العيب، وينسيهم الإرهاق الذي ترهقهم به مثاليته، ثم يفضح طول التطبيق نظرياته، فينتدب مغرور آخــر نفسه ليغير الأوصاف والحلول، ويأتي بنظريات جديدة، ويظن هو ومن معه أن ذلك هو الإبداع ودليل الحيوية.

لكن حلول الإسلام، لأنها تنطلق من حقائق الفطرة، ومنزلة ممن خلق الفطرة،

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١١٨)، ١١ شعبان ١٣٩٢هـ/ ١٩ سبتمبر ١٩٧٢م، ص٢٤-٢٥.

لا يزيدها طول التطبيق وتبدل المجتمعات إلا رسوخًا، ويبرز في كل جيل مثل تطبيقي يشير للناس إلى مصداقها، وهذا هو عنصر الإبداع، فإن ثبات الإسلام، وتقلب غيره في التخبط والتبدل إبداع في الإسلام وإعجاز.

ولهذا، فإن عرض الأقوال المتشابهة التي فاه بها السلف والخلف من فقهاء الأمة وإن كان يكرر المعنى والمبنى، فإنه من جانب آخر ينبه على وحدة المنهج والفهم والأداء، وإبراز الوحدة بحد ذاته عنصر يجب على بحوث فقه الدعوة أن تحرص عليه، لما يتضمنه من الإشارة إلى أصالة الخلف وعراقة مذهبه.

صراحة الإسلام لا استفزاز الظروف:

فانظر من قول السلف الأول القديم مثالًا.

قالوا: «سئل حذيفة ﷺ عن ميت الأحياء، فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه»[1].

وانظر معه تعابير سيد قطب في وصف من لا ينكر.

هل تستطيع بعد النظر أن تقر من يطيل لسانه على حذيفة بن اليمان ﷺ ويتهمه بأن كلماته وليدة استفزازات الظروف الصعبة التي كان يعيشها؟ إنه يصف غافل القلب الأخرس بالموت.

فإن تنبه قلبه وظل صامتا فإن حاله عند حذيفة يقتضي أن نصفه بالمرض الشديد.

والشلل القريب من الموت.

وما زادت تعابير سيد والمعاصرين فيما يُظن أنه من عنف التعبير على حروف حذيفة.

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣١١).

إنه ليس إفراطا في حماس الدعاة، بل هو وضوح الدعوة الذي يفرض نفسه، ولذلك نرى المعتنق لها بصدق سرعان ما ينشأ نشأة أخرى غير التي كان عليها تمامًا، وتتحور مفاهيمه، ويخرج من صومعته ليقود الناس، كالذي كان من أمر التابعي وهب بن منبه اليماني، عرفه اليمن راهبًا معنيًا بسجع الرهبان وعلوم أهل الكتاب المحرفة، فلما أسلم وسئل عن صفة المسلم قال: «يقتدي بمن قبله، وهو إمام لمن بعده»[1].

فوصَفه بالإمامة والتصدي للقيادة بعد إذ كان هو نفسه منعزلًا، وما هو بفهم يبتدعه، لكنه حين أسلم لم يجد مهمة المسلم المتعلم إلا بهذه الصفة، ووجد القرآن يصف إبراهيم عليه السلام بأنه كان أمة، وفي أحد تفسيري هذا الوصف أنه من الاقتداء والائتمام، كما ذكر ابن القيم، فإنه قال: «الأمة هو القدوة الذي يؤتم به. قال ابن مسعود: والأمة: المعلم للخير وهي فعلة من الائتمام، كقدوة، وهو الذي يقتدى به[2].

البيعة القديمة والحديثة:

وما كان جيل من أجيال المؤمنين القدماء الذين أحاطوا بالأنبياء القدماء يفهم إيمانَه على أنه تصديق قلب مجرد، إنما فهموه إعانة ومساعدة باليد والمال، ونصر بضم قوة المؤمن إلى قوة جماعة المؤمنين في معاركها وصراعها مع الكافرين، وكان إبراهيم، وموسى، وعيسى، وكل النبيين عليهم السلام يأخذون البيعة ممن يؤمن بهم على أن يؤمنوا بمحمد ﷺ.

ينصرونه في صراعه مع الكفر إذا بعث نبيًا وهم أحياء يرزقون، كما أخبر الله تعالى عن ذلك في قوله:

(١) كتاب الزهد للإمام أحمد، ص٣٧٢.
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٤).

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عِمْرَان:٨١]؛ «قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على امته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه»[(١)].

وإذن. فالبيعة علينا نحن الآن من ورثة محمد ﷺ أوجب وأظهر إلزامًا وأولوية. واعتمادًا على هذا الميثاق القديم فهم ابن تيمية «أن الصادقين في دعوى الإيمان هم: المؤمنون الذين لم يعقب إيمانهم ريبة، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين»[(٢)].

لا مناص ولا فكاك من تأييد الدعاة، ومن لم تسعفه ظروفه أو كفاءته أو مقدار علمه في أن يكون داخل الصف المجاهد فإنه لا يعذر بالقعود، بل عليه أن يعين من يأمر وينهى ويجاهد، ويكون مؤيدًا مساندًا.

وبذلك قال الفقيه الإمام الشاطبي، فإنه يتصدى لشرح معنى قول الفقهاء: إن فروض الكفاية إن قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين، وخصص وسمى من فروض الكفاية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب العلم، والولاية والإمامة، أي الخلافة وطلبها وسياسة الناس بالشرع، وبين ﷺ أنها وإن سقط وجوبها عن القادر عليها، فإنه مطالب بالتفتيش عن القادر وحثه وإعانته على القيام بها، بل إجباره على القيام بها، وساق أمر الولاية كمثل ينسحب ليشمل ما نص عليه هو من العلم والأمر والنهي، وعلى ما لم ينص عليه مما يوصف عند الفقهاء أنه من فروض الكفاية.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ١٢).
(٢) المرجع السابق.

«لكن قد يصح أن يقال: إنه -أي فرض الكفاية- واجب على الجميع على وجه من التجوز، لأن القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة وذلك من كان أهلا لها، والباقون وإن لم يقدروا عليها قادرون على إقامة القادرين، فمن كان قادرا على الولاية فهو مطلوب بإقامتها، ومن لا يقدر عليها مطلوب بأمر آخر، وهو إقامة ذلك القادر وإجباره على القيام بها، فالقادر إذن مطلوب بإقامة الغرض، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر، إذ لا يتوصل إلى قيام إلا بالإقامة، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[1].

وهذا كلام صريح لا يعذر أحدًا من المسلمين في قعوده عن تأييد الدعوة الإسلامية، مهما كان له من ظروفه العائلية والصحية والوظيفية والدراسية وأمثالها، عذرٌ يمنعه من الانتساب الفعلي.

عرف الشاطبي ذلك لمتانة منهجه في البحث وفهمه السليم لمقاصد الفقهاء الأوائل وهم يضعون القواعد العامة. ولأن عبد القادر عودة كان يسير على نفس المنهج، ولم يكن ليحرفه هوى النفس، فقد توصل إلى نفس النتيجة، وواجب على الجماهير في كل وقت أن تؤيد الحركة الإسلامية في الأمر بالمعروف، وحمَّل الجماهير مسؤولية تسلط أعداء الإسلام، فقال:

إن جماهير المسلمين قد ألفت الفسق والكفر والإلحاد حتى أصبحت ترى كل ذلك فتظنه أوضاعًا لا تخالف الإسلام، أو تظن أن الإسلام لا يعنى بمحاربة الفسق والكفر والإلحاد، ولا يعنيه من أمر ذلك كله شيء.

إن الإسلام يوجب على المسلمين أن يتعلموا الإسلام وأن يتفقهوا فيه وأن يعلم بعضهم بعضًا ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ

(١) الموافقات للشاطبي (١/ ١١٤).

قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التَّوْبَة:١٢٢].

ولقد طالما نفرت طوائف من المسلمين أنذروا قومهم وحاولوا تفقيههم في الدين، ولكن الحكومات الإسلامية أخذت على نفسها أن تحارب هذه الطوائف، وأن تحُول بينها وبين ما يوجبه الإسلام، إرضاء للاستعمار، وإطاعة للطواغيت، وموالاة لأعداء الإسلام، ورضيت الجماهير هذا الوضع من الحكومات، -وما كان لها أن ترضاه- فشارك الجمهور الحكومات في خنق الإسلام وهدم الجماعات العاملة للإسلام»[١].

ومثلما يكشف هذا القول عما كان في قلب عبد القادر عودة من لذعات، فإنه يشير أيضا إلى أن قادة الدعوة لا يصطنعون ولا يغتصبون لأنفسهم حقوقًا يطالبون بها جماهير المسلمين، وإنما يبنون مطالباتهم على أساس بيانات ومستندات تثبت لهم حقهم، كهذا البيان الشاطبي الثمين.

قمة الوعي يرتقيها الإمام البنا.

وبتدبر كلام الشاطبي تفهم أيضا سر اعتداد الإمام البنا ﷺ بطريقته ومنهجه حين فاصل المضطربين وصارحهم أن: «إن أبيتم إلا التذبذب والاضطراب، والتردد بين الدعوات الحائرة والمناهج الفاشلة، فإن كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلة ولا بكثرة، وما النصر إلا من عند الله»[٢].

فبيَّن مفاصلة الأسلوب ومنهج العمل مع الواهمين ممن يعمل للإسلام، وهي غير مفاصلة العقيدة مع أهل الكفر والبدعة، فإنه هنا يتحدث عن المنهج الفاشل الذي يزينه الخوف لأصحابه أو توقعهم فيه البساطة والسذاجة، والمنهج الفاشل عنده ما

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه، ص٦٨.
(٢) إلى الشباب للإمام البنا، ص١٦.

غاير منهجه، أو اكتفى بجزئية من منهجه فحسب دون ما يكملها، فإن عرفت منهجه عرفت ما يخالفه، وإن أحطت بشمول وسائله استبنت قصور وسائل الآخرين.

وهو، لذلك، يوجز سمت الجِد العام لمنهجه في العمل، فيقول: «إن رواسب القرون الماضية، ونتائج الحوادث الخالية، لا يمكن أن تزول بأمنية تختلج في الصدور، أو كلمة تكتب في الصحف، أو خطب تلقى على الجماهير، بل لا بد من طول الأناة ودوام المثابرة وعظيم المصابرة، والدأب على العمل»[1].

إذن ليست هي كلمة أو خطبة أو غير ذلك من وسائل الفرديين، بل لا بد من وسيلة أوجبها الإسلام لظهور أحكامه في التطبيق، يجب أن تجعلها الحركة الإسلامية هدفاً لها.

لا بد عنده «أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة تعمل بأحكام الإسلام، وتطبق نظامه الاجتماعي وتعلن مبادئه القويمة، وتبلغ دعوته الحكيمة للناس.. ما لم تقم هذه الدولة فإن المسلمين جميعا آثمون مسؤولون بين يدي الله العلي الكبير من تقصيرهم في إقامتها وقعودهم في إيجادها. ومن العقوق للإنسانية في هذه الظروف الحائرة أن تقوم فيها دول تهتف بالمبادئ الظالمة وتنادي بالدعوات الغاشمة ولا يكون في الناس من يعمل لتقوم دولة الحق والعدالة والسلام»[2].

وكرر هذا المعنى بحروف أوضح فقال: «قد يكون مفهومًا أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله وتنفيذًا لأحكامه، وإيصالا لآياته وأحاديث نبيه ﷺ. أما والحال كما نرى: التشريع الإسلامي في واد، والتشريع الفعلي والتنفيذي في واد آخر، فإن قعود المصلحين

(١) مجلة «الدعوة» المصرية في العدد (٦٧).
(٢) بين الأمس واليوم، ص٢٢٥ المجموعة.

الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف»[1].

وتعتبر سيرة الإمام العملية، وبناوه للحركة الواسعة المنظمة، خير شرح يفهم منه العاملون مذهبه في العمل الجماعي لتحقيق قيام هذه الدولة.

المودودي يشرح المراحل:

أما الأستاذ المودودي فكان أكثر تبسيطاً لتصوراته، ورسم في كلامه كثيرًا صور الحركة الإسلامية التي يظنها أهلًا لتحقيق هذه المهمة الجبارة، مهمة تحقيق الاستحلاف في الأرض وبناء الدولة الإسلامية.

ينبه إلى وجوب الجماعية أولًا، ويدعو إلى «ألا يغيب عن البال أن نظام الاستخلاف في الأرض لا يمكن أن يتغير ويتبدل بمجرد وجود فرد صالح أو أفراد صالحين مشتتين في الدنيا، ولو كانوا في ذات أنفسهم من أولياء الله تعالى، بل وأنبيائه ورسله.

إن الله تعالى لم يقطع ما قطع من المواعيد لأفراد متفرقين مشتتين، وإنما قطعها لجماعة منسقة متمتعة بحسن الإدارة والنظام»[2].

وتكون التربية داخل هذه الجماعة الحركية «مبنية على نظرية الحياة الإسلامية وفكرتها، وعلى قواعد وقيم خلقية وعملية توافق روح الإسلام وتوائم طبيعته»[3].

ثم تلح الجماعة على نفسها في تربية أفرادها على هذا الأساس لتنتج دعاة يقومون بمهمة نشر الفكرة من الذين «لهم حظ وافر في القانون والسياسة في كل فروع العلوم والفنون، من الذين امتزجت الفكرة الإسلامية بلحومهم ودمائهم،

(١) المؤتمر الخامس، ص٢٧٢ المجموعة.
(٢) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، ص٣٤.
(٣) منهاج الانقلاب الإسلامي (٨٢/ ٨٣) مجموعة نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور.

والذين تثقفت أذهانهم واتسعت مداركهم اتساعًا يؤهلهم لتدوين نظام للأفكار والنظريات، ومنهج كامل للحياة العملية مبني على مبادئ الإسلام وقواعده، والذين آتاهم الله من الموهبة والمقدرة ما يمكنهم أن يقارعوا به أئمة الفكر ممن لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ويجاذبوهم بحبل، حتى يبسطوا سلطان سموهم الفكري على عقولهم وأذهانهم، ويرغموهم على الاستسلام لزعامتهم الفكرية والعقلية»[١].

فإذا ما سارت الحركة شوطا في هذا المضمار التربوي والتبشيري تدخل مرحلة الصراع مع الفكر «مكافحة ومقاومة للنظام الباطل المعوج السائد في المجتمع الإنساني»[٢].

ذلك «أن نظام الإمامة لن يحدث فيه أي تغير بمجرد وجود فئة مثل هذه في الأرض، بحيث إنها إذا تألفت وأخذت في الوجود مكانها، تنزلت من السماء الملائكة ونحَّت الفاسقين الفاجرين من كرسي السيطرة والسلطان وبوَّؤُوا هؤلاء الصالحين المؤمنين، بل مما لا مندوحة عنه لهذه الفئة المؤلفة أن تستمر في المكافحة والمناضلة لقوى الكفر والفسق»[٣].

وخلال هذا الصراع «يمتحن القائمون بالدعوة وحاملو لوائها بأنواع من المصائب والشدائد، فيقاسون الآلام والأهوال، ضربًا وقتلا وإجلاء عن الوطن، ويبذلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر وجلد وإخلاص وعزم قوي، ويبتلون بالشدائد ويفتنون»[٤].

ولكن ثباتهم يؤدي إلى احتدام صراع معاني الحق والباطل في نفوس أفراد

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الأسس الأخلاقية، ص٣٤.
(٤) منهاج الانقلاب الإسلامي، ص٨٤.

المجتمع الذين يرقبون ثباتهم، ويصل الصراع إلى أوجه وذروته في نفوس بضعة أفراد كل يوم جديد، فيقررون بشجاعة الانحياز إلى جماعة الدعاة الثابتين، وهكذا تستمر جمهرة الدعاة في ازدياد مطرد، «أما أصحاب الطباع الفاسدة والذين في قلوبهم مرض ممن يتبعون الأهواء والشهوات فسوف تختفي أصواتهم ويضمحل نفوذهم شيئًا فشيئا بإزاء تيار الحركة الجارف وسيرها الحثيث»[1].

أنس الطريق:

وإنها لمسيرة طويلة، لكن يسلي أثناءها حداد الحادين.

وإنها لمهمة صعبة، لكن تهونها وتبدد تعبها بلاغة الصادقين حين ينادون.

قم نُعد عدل الهداة الراشـــدين ... قم نَصل مجد الأبـــاة الفاتحين

شـــقي الناس بدنيـــا دون دين ... فلنعدهـــا رحمـــة للعالمين

لا تقل: كيف؟ فإنا مســـلمون ... يا أخا الإسلام فـــي كل مكان

قم نفـــك القيد قـــد آن الأوان ... واصعد الربـــوة واهتف بالأذان

وارفع المصحف دســـتور الزمان ... واملأ الآفـــاق: إنا مســـلمون

مسلمون مســـلمون مسلمون ... حيث كان الحـــق والعدل نكون

نرتضي المـــوت ونأبى أن نهون ... في ســـبيل الله ما أحلى المنون[2]

(١) المرجع السابق.

(٢) ليوسف القرضاوي مما أعيد نشره في مجلة التربية الإسلامية ببغداد في مجلدها السادس، ص٣٩٥.

مفهوم التجمع الحركي ومبرراته عند سيد قطب

(القسم الأول)[1]:

وصل سيِّد قطب ﷺ، غاية المتانة والعمق والوضوح في وصفه عقيدة الإسلام وإظهار محاسنه والحثّ على التمسك به والعمل له، بأسلوبه الأدبيِّ السلس الذي مكَّنه من اصطياد المعاني وهي في تدفُّقها السريع عليه خلال مدَّة ليست بالطويلة من حياته الإسلاميَّة الحركيَّة.

ولكنَّ الداعية يدرك أنَّ أثمن ما صاغه سيد هو كلامه في الفقه الحركيِّ الإسلاميِّ، التربويّ والتنظيميّ والسياسيّ، فقد أطنب، في ثنايا الأجزاء الثلاثة عشر الأولى التي استطاع أن يعيد تدوينها، في أكثر دقائق هذه الجوانب، وأتى فيها بجديد كثير، واستطاع أن يدوِّن تراث التجربة الواسعة التي مارستها الحركة وأن يتوسَّع فيما بدأ به الذين قبله من الكتَّاب الدعاة.

إنَّ كلامه في الظلال مثلما يكشف عن تأمُّل طويل في معاني القرآن الكريم وفقَّه الله له، وأعانه سجنه الطويل عليه، فإنَّه يمثِّل أيضًا استفادته من هذه التجربة ومن تلك البدايات الإبداعيَّة. وهذه الاستفادة يظنُّها المتبطر حين نثبتها لسيِّد ﷺ، محاولة ثلم لشخصيَّته الفقهيَّة، لكن المنغمس في الدعوة، المواكب لتطوُّرها، يدرك ما في تلك الاستفادة من دلائل الأصالة، بل إنَّها لتكشف سرَّ تلقِّي جماهير الدعاة لمدوَّنات سيِّد بالقبول.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١١٩)، ١٨ شعبان ١٣٩٢هـ/ ٢٦ سبتمبر ١٩٧٢م، ص٢٤-٢٦.

لقد جاء سيِّد قطب على قدر، مع انتهاء الجولة الحركيَّة الأولى، ليدرس ويزن ويغربل إنتاجها الفكريّ والتربويّ وتجاربها العمليّة، بصفاء روح، وبسكينة أمدَّه إياها عيشه التأمليُّ مع القرآن، واختلاء السجن المبارك، فكانت هذه الدراسات القيِّمة.

تجمُّع الصفوة المفاصلة:

ومن يتمُّ خطوة سيِّد ﷺ في جمعه في «معالم في الطريق» لما تفرَّق من كلامه في الفقه الحركيِّ في «الظلال» تتَّضح له نظريَّة حركيَّة إسلاميَّة ذات ثلاثة أركان متكاملة، تجتمع فتكوِّن الوصف الذي يراه للعمل الإسلاميِّ الناجح الملائم للإرشاد القرآني وتطبيقات السيرة النبويَّة الشريفة.

العمل الصائب عنده هو: تجمُّع الصفوة التي تتَّخذ لها سياسة المفاصلة مع الجاهليَّة.

فهو يرى أنَّ تغلُّب الجاهليَّة هو ثمرة عملها المنظم وتجمُّع أفرادها وتنسيقهم لجهودهم، وأنَّ المسلمين لا يمكن لهم أن يدحروها ويتغلَّبوا عليها إلَّا إذا «تجمَّعوا» حول قيادة تنظِّم جهودهم بالمقابل.

فإذا تجمَّع بعض المسلمين وتكتَّلوا فيجب أن يقوم هذا التجمُّع قبل مباشرته التجميع الواسع النطاق بتربية «صفوة المؤمنين» الَّتي سارعت للانضمام إليه وكانت طليعة لغيرها، تربية عميقة طويلة، لتكون هذه الصفوة «قاعدة صلبة» يثبُت عليها التجمُّع أمام المحن الخارجيَّة الَّتي تصيبه خلال الصدام المقبل مع الجاهليَّة، وأمام الفتن الداخليَّة الَّتي يثيرها من يُتاح له الانضمام بسهولة خلال التوسُّع العدديِّ قبيل النصر وبعده.

ثمَّ إنَّ على هذه الصفوة المتجمِّعة، وهي في سيرها تنتظر توسُّع عددها إلى ما يكفي لبدء صراعها مع الجاهليَّة، أنْ «تفاصل» الجاهليَّة الَّتي من حولها، فتهجُرها وتستقلُّ عنها في الشعور والعمل، ليتمَّ تميُّز المعسكرين ويتَّضح سير كلِّ فرد، إمَّا إلى المسلمين أو إلى الجاهليِّين، ولا بدَّ من «استعلاء على الجاهليَّة» يسبق هذه المفاصلة ويقوم بدور التثبيت النفسيِّ خلالها.

هذه هي الأركان الثلاثة لنظريَّة سيِّد الحركيِّة، وأمَّا بقيَّة الموضوعات الَّتي تطرَّق لها سيِّد فيُمكن إلحاق كلٍّ منها بركن من هذه الثلاث، وأكثرها استدراكات وتكميلات، فكلامه في المسؤولية وطلبها وسياسة التأمير يلحق بركن التجمُّع، وكذا كلامه في التخلُّف ونقض البيعة، وكلامه في المنازعة وسياسة التغيير يلحق بركن المفاصلة، وهكذا.

وكنَّا قد أتينا في مقالة «استعلاء في الطريق العالي» ومقالة «العبد الحرّ» على بعض خبر هذه المفاصلة، ولنا عودةٌ إليها.

وسنعرج في مقالات أخرى على حديث التربية.

ونفرد هذه المقالة لتقصِّي مفهوم التجمُّع ومبرِّراته عند سيد، بعد أن عرفنا أصول نظريَّة العمل الجماعيِّ عند السلف، وصياغة الإمام البنا والأستاذ المودودي وغيرهم لها في العصر الحديث.

وهذا الجمع والترتيب، في هذا المكان الواحد، لما تناثر من كلام سيِّد في التجمُّع الحركيِّ يعتبر أكمل في تفهيم مذهبه فيه من أيِّ نصٍّ مُفرَد له، وإن كنَّا قد حُرمنا من زيادة تعبيرات نافعة أهملنا النصوص القصيرة الَّتي وردت فيها لتكرارها معاني ما نقلناه.

المسلم بشير نذير:

يؤكِّد سيد ﷺ، في أوَّل ما يؤكِّد على تطبيق المؤمنين لما وصفهم القرآن به من أنَّهم: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٨١].

فهم دعاة إلى الحقِّ، لا يسكتون عن الدعوة به، وإليه، ولا يتقوقعون على أنفسهم، ولا ينزوون بالحقِّ الذي يعرفونه، ولكنَّهم يهدون به غيرهم، فلهم قيادةٌ فيمن حولهم من الضالِّين عن هذا الحقِّ، المتنكِّرين لذلك العهد، ولهم عمل إيجابيٌّ لا يقتصر على معرفة الحقِّ، إنَّما يتجاوز إلى الهداية به والدعوة إليه والقيادة باسمه[1].

وقوله ﷺ: «لهم قيادة فيمن حولهم..» أي عمليَّة قيادة، أي أنَّهم يقودون الضالِّين إلى الصواب.

جاء الإسلام ليحكم:

وتوصَّل سيِّد إلى ما توصَّل إليه جميع السائرين على منهج البحث السليم من الدعاة من تقرير لزوم صفة الحكم للإسلام، «فما جاء هذا الحقُّ ليكون مجرَّد علم يُعرَف ويُدرَّس، ولا مجرَّد وعظ يُهدَى به ويُعرَّف، إنَّما جاء هذا الحقُّ ليحكم أمر الناس كلِّه، يحكم تصوُّراتهم الاعتقاديَّة فيصحِّحها ويقيِّمها على وفقه. ويحكم شعائرهم التعبديَّة فيجعلها ترجمة عنه في صلة العبد بربِّه. ويحكم حياتهم الواقعيَّة فيُقيِّم نظامها وأوضاعها وفق منهجه ومبادئه ويقضي فيها بشريعته وقوانينه المستمدَّة من هذه الشريعة.

ويحكم عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم وسلوكهم فيقيِّمها كلَّها على التصوُّرات الصحيحة المستمدَّة منه.

(١) الظلال (٩/ ١٢٠).

ويحكم مناهج تفكيرهم وعلومهم وثقافتهم كلَّها ويضبطها بموازينه، وبهذا كلِّه يوجد هذا الحقّ في حياة الناس، ويقوم العدل الذي لا يقوم إلَّا بهذا الحقّ»[1].

ويرى أنَّ الآية الكريمة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمْرَان:١٠٤]، تتضمَّن معنى وجوب السلطة.

«والذي يقرِّر أنَّه لا بدَّ من سلطة هو مدلول النصِّ القرآنيِّ ذاته، فهناك دعوة إلى الخير، ولكن هناك كذلك أمر بالمعروف، وهناك نهيٌ عن المنكر. وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإنَّ «الأمر والنهي» لا يقوم بهما إلَّا ذو سلطان.

هذا هو تصوُّر الإسلام للمسألة، إنَّه لا بدَّ مـن سلطة تأمر وتنهى، سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشرِّ، سلطة تتجمَّع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوَّة في الله، سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر، وتحقيق هذا المنهج يقتضي دعوة إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج. ويقتضي سلطة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتُطاع، والله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء:٦٤].

فمنهج الله في الأرض ليس مجرَّد وعظ وإرشاد وبيان، فهذا شطر، أمَّا الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشريَّة، وصيانة تقاليد الجماعة الخيِّرة من أن يعبث بها كلّ ذي هوى وكلّ ذي شهوة وكلّ ذي مصلحة، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كلّ امرئ برأيه وبتصوِّره، زاعمًا أنَّ هذا هو الخير والمعروف والصواب.

(١) المرجع السابق (٩/ ١٢١).

والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -من ثمَّ- تكليف ليس بالهيِّن ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم، وفيهم الجبَّار الغاشم، وفيهم الحاكم المتسلِّط، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد، وفيهم المنحلُّ الذي يكره الجدَّ، وفيهم الظالم الذي يكره العدل، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة، وفيهم ممَّن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر، ولا تفلح الأمَّة، ولا تفلح البشريَّة، إلَّا أن يسود الخير، وإلَّا أن يكون المعروف معروفًا، والمنكر منكرًا، وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنتهى.. وتُطاع»[1].

صفة الجاهلية:

لكنَّ هذه السلطة غير موجودة الآن في بقعة من بقاع الأرض التي يعيش فيها أفراد المسلمين، فإنَّها قد أُقصيت وأُبعدت إبعادًا بالقوَّة الجاهليَّة وبانحراف الحكَّام، وهذا يعني عند سيِّد قطب أنَّ صفة أساسيَّة لازمة للمجتمع المسلم قد افتُقِدَت، وهي صفة السلطة الحاكمة بالإسلام، فلم يعد مجتمعًا مسلمًا، بل مجتمعًا غير مسلم، وكلّ ما غاير الإسلام فهو من الجاهليَّة، وبذلك جاز وصفه عنده بأنَّه مجتمع جاهليٌّ، وأنّه حوى جمهرة إسلاميَّة من الأفراد المسلمين، وظلَّت هذه الجمهرة تتضاءل ويقل عددها مع الأيَّام، بينما نسبة المنحرفين من الأفراد في ازدياد، بسبب التربية التي مارستها أجهزة السلطة الجاهليَّة، فازدادت صفةُ الجاهليَّة اللاصقة بالمجتمعات التي تسكن ما يعرف بالعالم الإسلاميِّ وضوحًا وتأكُّدًا، وإن بقيت جمهرة الأفراد المسلمين الملتزمين بأركان الإسلام موجودة، تكثُر في بقعة، وتقلُّ في أخرى.

(١) المرجع السابق (٤/ ٢٥).

ويمكن أن نكتشف هذا المفهوم للمجتمع عند سيِّد بتفحص التعريف الذي وضعه للمجتمع الجاهليّ.

قال: «هو كل مُجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده متمثِّلة هذه العبوديَّة في التصوُّر الاعتقاديّ، وفي الشعائر التعبُّديَّة، وفي الشرائع القانونيَّة»[1].

فالمجتمع عنده يوصف بوصف مَّا حسب صفة هذه الأركان الثلاثة: التصوُّر الاعتقاديُّ الذي يسوده، والشعائر التعبديَّة التي يمارسها، والشرائع التي تحكمه.

وفي الثلاثة تكون العبرة بالأغلب السائد فيه، وإلَّا ففي المجتمعات السوفييتيَّة بقايا من الرأسماليَّة اقتضتها المرحليَّة، ومع ذلك تُوصَف بأنَّها شيوعيَّة.

وفي المجتمع البريطانيِّ تطبيقات اشتراكيَّة كثيرة، ومع ذلك يُوصَف بأنَّه رأسماليّ. وفي البلاد الشيوعيَّة أعداءٌ للشيوعيَّة، وفي البلاد الرأسماليَّة جمهرة شيوعيَّة، ومع ذلك لم يغيِّر هؤلاء ولا هؤلاء وصف المجتمع الذي يعيشون فيه.

وتعريف سيِّد ﷺ، للمجتمع يتضمَّن ركنًا رابعًا وإن لم يذكره صراحة، إلَّا أنَّ الركن الثالث يقتضيه، وكلامه الكثير في الظلال والمعالم يكشفه، وهو: الحاكم وجهاز تنفيذ أحكامه، وإلَّا فمِن أين تصدر هذه التشريعات لو لم يكن حاكم، وكيف تُطبَّق لو لم يكن جهاز؟

فمن رأى تعريفه الواضح، واستدراكنا هذا، لا يجد أيَّ مخالفة للواقع في وصفه المجتمعات الحاضرة الَّتي تسكن أرض البلاد الإسلاميَّة بأنَّها مجتمعات جاهليَّة، فهو لم يتطرَّق للأفراد ولم يقل إنَّهم من الجاهليِّين كلِّهم، بل كلامه الكثير الَّذي سننقل بعضه والذي يصف فيه كيفيَّة نشأة المجتمع المسلم داخل المجتمع الجاهليِّ يقتضي بالبداهة أن يكون هناك أفراد مسلمون الآن، ويؤكِّد هذا تقريعه للمؤمن الَّذي لا ينضمُّ

(١) معالم في الطريق، ص٨٨.

للحركة. ما جرَّده عن الإيمان، لكنَّه وصفه بالنقص وبخداعه لنفسه وبالفشل، لكن تبرؤ الأفراد من الجاهليَّة لا يعني أن نغالط أنفسنا فنصف المجتمعات الحاضرة بأنَّها إسلاميَّة.

هذا هو تبرير سيِّد الذي استند عليه في تجهيل المجتمع الحاضر، ومعرفة تبريره تُبطل كلَّ اتّهام وُجِّهَ إليه يلصق به تكفير المسلمين الذين لم يدخلوا صف الحركة الإسلاميَّة.

إنَّه يتحدَّث عن المجتمع، والشرائع المطبَّقة في كلِّ مجتمع عنصر أساسيّ عنده في وصف المجتمع، ولم يتطرَّق إلى الأفراد، ولم يسحب عليهم صفة الجاهليَّة بإطلاق، وإنَّما يكون أحدهم مسلمًا أو جاهليًّا حسب اعتقاده، ويكون المسلم منهم مسلمًا يعيش في مجتمع جاهلي، ولا يكون مسلمًا إلَّا إذا اعتقِد بطلان ما تحويه تشريعات المجتمع الجاهليّ ممَّا يخالف أحكام الحلال والحرام الإسلاميَّة، فإنَّ رضيها واعتقد صوابها في ما تحلّلِه من الحرام الإسلاميِّ الوارد تحريمه بدليل قطعي أجمع فقهاء المسلمين القدماء على قطعيته، أو أن اعتقد صواب التشريعات الجاهليَّة في تحريمها ما تحرِّمه من الحلال الإسلاميِّ الوارد تحليله بدليل قطعي مجمع عليه، فهو كافرٌ وجاهليٌّ، لا عند سيِّد، بل بإجماع فقهاء المسلمين الأوائل.

وإن اعتقد بطلانها ودفعته الشهوة إلى اقتراف ما تبيحه تشريعات المجتمع الجاهليّ من الحرام، وتقاعس عن القيام بما يفرضه ويوجبه الإسلام ممَّا أهمل المجتمع الجاهليُّ الأمر به، فهو مسلم عاص، في درجات من المعصية عديدة تغلظ وتخفّ حسب أهمية ما يقتَرف، إن كان من اللَّمم والصغائر، أو الكبائر والموبقات، وحسب أهمية ما يتقاعس عنه، إن كان من الفروض أو الآداب، فإن اعتقد بطلان التشريعات الجاهليَّة، وغالب شهوته وكسله، بكف جوارحه عن الحرام الذي

يحرِّمه الإسلام، وتبيحه الجاهليَّة، وبالقيام بفروض الإسلام وواجباته الَّتي تهمل الجاهليَّة أمره بها، كان مسلمًا كامل الإسلام، لكنَّه محروم من درجات الفضل ومن كثير من صفات الإيمان، ولا يكمل فضله وإيمانه إلَّا بأن يدعو إلى الإسلام، ويتكتّل مع أمثال له، يتخذ ويتخذون له ولهم أميرًا يدينون له بالولاء، ويكونون بذلك صورة مصغرة لمجتمع مسلم يعيش داخل المجتمع الجاهليِّ مفاصلًا له في الشعور، معلنًا إباءه لإباحاته الباطلة، مغيظًا له بإظهار شعائر الإسلام الَّتي يريد محوها ورفعها، دائبًا في التوُّسع عن طريق الإلحاح على المسلمين السائبين للانضمام إليه، حتَّى إذا بلغ عددًا من الأفراد تكفي قوَّتهم لمنازعة سلطة الجاهليَّة نازع وغير.

هذا مجمل ما أوضحه سيِّد، ولم يظهر التفتيش الدقيق لأسطر الظلال والمعالم نصًّا يرمي من لا يعمل هذا العمل الحركيِّ الإيمانيّ الفاضل بالكفر أو الجاهليَّة إذا لم يجتمع معه سبب الكفر الذي ذكرناه آنفًا.

الجاهليَّة منظمة:

وهو يرى أنَّ الجاهليَّات قديمها وحديثها ليست نظريات مجرَّدة، بل تمتاز بالتنظيم ووجود الولاء في مجتمعاتها بين الأفراد والقيادات، كما قال الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ [الأنفال:٧٣].

«إنَّ المجتمع الجاهليَّ لا يتحرَّك كأفراد، وإنَّما يتحرَّك ككائن عضويٍّ، تندفع أعضاؤه، بطبيعة وجوده وتكوينه، للدفاع الذاتيِّ عن وجوده وكيانه، فهم بعضُهم أولياء بعض طبعًا وحكمًا»[1].

(١) الظلال (١٠/ ٧٣).

«هذه الجاهليَّة، الَّتي واجهها كل رسول بالدعوة إلى الإسلام لله وحده، والَّتي واجهها رسول الله ﷺ بدعوته، هذه الجاهليَّة لم تكن متمثِّلة في نظريَّة مجرَّدة، بل ربَّما أحيانًا لم تكن لها نظريَّة على الإطلاق، إنَّما كانت متمثِّلة دائمًا في تجمُّعٍ حركيٍّ.

متمثِّلة في مجتمع، خاضع لقيادة هذا المجتمع، وخاضع لتصوُّراته وقيمه ومفاهيمه ومشاعره وتقاليده وعاداته، وهو مجتمع عضويٌّ بين أفراده ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون العضويّ، الذي يجعل هذا المجتمع يتحرَّى -بإرادة واعية أو غير واعية- للمحافظة على وجوده، والدفاع عن كيانه، والقضاء على عناصر الخطر الَّتي تهدِّد ذلك الوجود وهذا الكيان في أيَّة صورة من صور التهديد»[1].

لا بدَّ من إسلام منظَّم:

«ومن أجل أنَّ الجاهليَّة لا تتمثَّل في نظرية مجرَّدة، ولكن تتمثَّل في تجمُّع حركيّ على هذا النحو، فإنَّ محاولة إلغاء هذه الجاهليَّة، ورد الناس إلى الله مرَّة أخرى، لا يجوز -ولا يجدي شيئًا- أن تتمثَّل في نظرية مجرَّدة، فإنَّها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهليَّة القائمة فعلًا والمتمثِّلة في تجمُّع حركيٍّ عضويٍّ، فضلًا على أن تكون متفوِّقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل، لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسيَّة في طبيعته وفي منهجه وفي كلِّياته وجزئيَّاته، بل لا بدَّ لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثَّل في تجمُّع عضويٍّ حركيٍّ أقوى في قواعده النظريَّة والتنظيميَّة، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك التجمُّع الجاهليِّ القائم فعلًا»[2].

(١) المرجع السابق (١٠/ ٦٨).
(٢) المرجع السابق (١٠/ ٦٨).

«إنَّ وجود المجتمع المسلم لا يتحقَّق إلَّا بهذا، لا يتحقَّق بمجرَّد قيام القاعدة النظريَّة في قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم، لا يتمثَّلون في تجمُّع عضويٍّ متناسق متعاون، له وجودٌ ذاتيٌّ مستقلٌّ، يعمل أعضاؤه عملًا عضويًّا -كأعضاء الكائن الحيِّ- على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه، وعلى الدفاع عن كيانه ضدّ العوامل الَّتي تهاجم وجوده وكيانه، ويعملون في هذا تحت قيادة مستقلَّة عن قيادة المجتمع الجاهليِّ تنظِّم تحرُّكهم وتنسِّقه وتوجِّهه لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلاميِّ ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهليِّ»[1].

«وقيام مملكة الله في الأرض، وإزالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد، وردِّه إلى الله وحده، وسيادة الشريعة الإلهيَّة وحدها، وإلغاء القوانين البشريَّة، كلّ أولئك لا يتمُّ بمجرَّد التبليغ والبيان، لأنَّ المتسلِّطين على رقاب العباد، المغتصبين لسلطان الله في الأرض، لا يسلمون سلطانهم بمجرَّد التبليغ والبيان، وإلَّا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وتاريخ هذا الدين على ممرِّ الأجيال.

إنَّ هذا الإعلان العام لتحرير الإنسان في الأرض من كلِّ سلطان غير سلطان الله، بإعلان ألوهيَّة الله وحده وربوبيَّته للعالمين، لم يكن إعلانًا نظريًّا فلسفيًّا سلبيًّا، إنَّما كان إعلانًا حركيًّا واقعيًّا إيجابيًّا، إعلانًا يُراد له التحقيق العمليّ في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله، ويُخرجهم بالفعل من العبوديَّة للعباد إلى العبوديَّة لله وحده بلا شريك، ومن ثمَّ لم يكن بُدًّا من أن يتَّخذ شكل الحركة إلى جانب شكل البيان، ذلك ليواجه الواقع البشريَّ بكلِّ جوانبه بوسائل مكافئة لكلِّ جوانبه.

(١) المرجع السابق (١٠/ ٧٠).

والواقع الإنسانيِّ، أمس واليوم وغدًا، يواجه هذا الدين -بوصفه إعلانًا عامًّا لتحرير الإنسان في الأرض من كلِّ سلطان غير سلطان الله- بعقبات اعتقاديَّة تصوُّريَّة، وعقبات ماديَّة واقعيَّة، عقبات سياسيَّة واجتماعيَّة واقتصاديَّة وعنصريَّة وطبقيَّة، إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصوُّرات الباطلة، وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقَّدة شديدة التعقيد.

وإذا كان البيان يواجه العقائد والتصوُّرات، فإنَّ الحركة تواجه العقبات الماديَّة الأخرى، وفي مقدِّمتها السلطان السياسيّ القائم على العوامل الاعتقاديَّة التصوُّريَّة، والعنصريَّة والطبقيَّة، والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة المعقَّدة المتشابكة، وهما معًا -البيان والحركة- يواجهان الواقع البشريَّ بجملته، بوسائل مكافئة لكلِّ مكوِّناته. وهما معًا لا بدَّ منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض»[1].

(١) المرجع السابق (٩/ ١٧٠).

مفهوم التجمع الحركي ومبرراته عند سيد قطب

(القسم الثاني)[1]:

وإذن، فلا بد من تجمع حركي إسلامي يواجه التجمع الجاهلي.

«لم يكن بد أن ينشأ تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي، منفصل ومستقل عن التجمع العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الإسلام إلغاءه»[2].

«إن التصور الاعتقادي يجب أن يتمثل من فَورِه في تجمع حركي، وأن يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلًا صحيحًا وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي»[3].

«والحركة بهذا الدين حركة في واقع بشري، والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع نظري يقابل بنظرية، إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع وسلطة، ولا بد كي يقابلها هذا الدين بوسائل مكافئة أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة، ولا بد بعد ذلك أن يجاهد ليكون الدين كله لله، فلا تكون هناك دينونة لسواه»[4].

إخلاص وهجرة:

ولكن كيف يتم بناء هذه الحركة الإسلامية المكونة للمجتمع المسلم؟

يجيب سيد ﷺ: «إن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٢٠)، ٢٥ شعبان ١٣٩٢هـ/ ٣ أكتوبر ١٩٧٢م، ص٢٥-٢٦.
(٢) الظلال (١٠/ ٧٠).
(٣) المرجع السابق (٧/ ٩٣).
(٤) المرجع السابق (٩/ ٢٩١).

عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله، لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور، ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر، ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع، ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة، تنقي ضمائرها من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله معه أو من دونه، وتنقي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله معه أو دونه، وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله معه أو من دونه، عندئذ، وعندئذ فقط، تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلمًا كذلك.

فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله على النحو الذي تقدم فإنهم لا يكونون مسلمين.

وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلمًا، ذلك أن القاعدة الأولى التي يقوم عليها الإسلام، والتي يقوم عليها المجتمع المسلم هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لم تقم بشطريها.

وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام اجتماعي إسلامي، وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام، ينبغي أن يتجه الاهتمام أولًا إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله في أية صورة من صورها التي أسلفنا، وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة، وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله، اعتقادًا وعبادة وشريعة، هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم، وينضم إليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التي تتمثل فيها العبودية لله وحده، أو بتعبير آخر: تتمثل فيها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأول. وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة، وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم.

إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله معه أو من دونه إلى العبودية لله وحده بلا شريك، ثم من تقرير هذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية، وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد، مشتق من المجتمع الجاهلي القديم، ومواجه له بعقيدة جديدة، ونظام للحياة جديد، يقوم على أساس هذه العقيدة، وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريه، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»[1].

ويرى سيد أن هذا الانتقال الذي تحدث عنه، انتقال الأفراد من المجتمع الجاهلي المعاصر إلى المجتمع الإسلامي الناشئ، هو الهجرة الثانية في التاريخ الإسلامي.

«لقد ظل شرط الهجرة قائمًا حتى فتح مكة، حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادته، وانتظم الناس في مجتمعه، فلا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد وعمل، كما قال رسول الله ﷺ.

غير أن ذلك إنما كان في جولة الإسلام الأولى التي حكم فيها الأرض ألفًا ومائتي عام تقريبًا، لم ينقطع فيها حكم شريعة الإسلام، وقيام القيادة المسلمة على شريعة الله وسلطانه.

فأما اليوم وقد عادت الأرض إلى الجاهلية، وارتفع حكم الله سبحانه عن حياة الناس في الأرض، وعادت الحاكمية إلى الطاغوت في الأرض كلها، ودخل الناس في عبادة العباد بعد إذ أخرجهم الإسلام منها. الآن تبدأ جولة جديدة أخرى للإسلام كالجولة الأولى تأخذ -في التنظيم- كل أحكامها المرحلية، حتى تنتهي إلى إقامة دار

(١) معالم في الطريق، ص٨٧.

إسلام وهجرة، ثم تمتد ظلال الإسلام مرة أخرى بإذن الله فلا تعود هجرة، ولكن جهاد وعمل، كما حدث في الجولة الأولى»[1].

وفي استطرادات سيد في هذا المجال يبدو بوضوح تام خطأ قول من يتهمه بتكفير المسلم غير الحركي، فإنه يميز اعتمادًا على هذه الهجرة بين مسلم عضو في المجتمع الحركي، وبين من يدعوه بالمسلم، بل المؤمن الذي ليس بعضو، ففي تعقيبه على الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ [الأنفال:٧٢]، يقول ﷺ: «وهذا الحكم منطقي ومفهوم مع طبيعة هذا الدين التي أسلفنا ومع منهجه الحركي الواقعي، فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء في المجتمع المسلم، ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية، ولكن هناك رابطة العقيدة، وهذه لا ترتب وحدها على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد، اللهم إلا أن يُعتدى عليهم في دينهم، فيفتنوا مثلًا عن عقيدتهم، فإذا استنصروا المسلمين في دار الإسلام في مثل هذا، كان على المسلمين أن ينصروهم في هذه وحدها، على شرط ألا يخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع معسكر آخر، ولو كان هذا المعسكر هو المعتدي على أولئك الأفراد في دينهم وعقيدتهم، ذلك أن الأصل هو مصلحة المجتمع المسلم وخطته الحركية وما يترتب عليها من تعاملات وعقود، فهذه لها الرعاية أولًا، حتى اتجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلي لهذا الدين المتمثل في التجمع الإسلامي، وهذا يعطينا مدى الأهمية التي يطلقها هذا الدين على التنظيم الحركي الذي يمثل وجوده الحقيقي»[2].

(١) الظلال (١٠/ ٧٤).

(٢) المرجع السابق (١٠/ ٧٣).

فهذا نص صريح لم يجرد فيه سيد ﷺ غير الحركيين من الإيمان.

وجوب الولاء لقيادة إسلامية:

ثم إن هذا المجتمع الإسلامي الذي أنشأه التجمع الحركي لا بد أن يقوم على ولاءين مزدوجين في آن واحد يتكاملان، ولاء لقيادة النبي ﷺ باتباعه، وولاء للقادة الذين يقودون التجمعات الحركية مهما تعاقبوا، بالمقدار الذي لا يعارض نص القائد الأول، ﷺ.

إن هذا «الدين هو الاتباع والطاعة للقيادة الربانية التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع، ومنها وحدها يكون التلقي، ولها وحدها يكون الاستسلام، فالمجتمع المسلم مجتمع له قيادة خاصة كما له عقيدة خاصة وتصور خاص، قيادة ربانية متمثلة في رسول الله ﷺ، وفيما يبلغه عن ربه مما هو باق بعده من شريعة الله ومنهجه.

وتبعية هذا المجتمع لهذه القيادة هي التي تمنحه صفة الإسلام وتجعل منه مجتمعًا مسلمًا، وبغير هذه التبعية المطلقة لا يكون مسلمًا بحال. وشرط هذه التبعية هو التحاكم إلى الله والرسول، ورد الأمر كله إلى الله، والرضى بحكم رسوله وتنفيذه مع القبول والتسليم»[1].

ثم «من بعده في كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وتشريعه، وأن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ولاءه من التجمع العضوي الحركي الجاهلي، أي التجمع الذي جاء منه، ومن قيادة ذلك التجمع، في أية صورة كانت، سواء كانت في صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن إليهم، أو في صورة قيادة

(١) المرجع السابق (٤/ ٢١٤).

سياسية واجتماعية واقتصادية كالتي كانت لقريش، وأن يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي الإسلامي الجديد وفي قيادته المسلمة»[1].

بالتجمع والولاء تتكون الأمة الإسلامية:

وبهذا التجمع الإسلامي، والولاء لقيادته، تتكون الأمة الإسلامية «بالمصطلح الإسلامي للأمة، وهي: الجماعة تدين بعقيدة واحدة، وتتجمع على آصرتها، وتدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة.

فهذه الأمة الثابتة على الحق، العاملة به في كل حين، هي الحارسة لأمانة الله في الأرض، الشاهدة بعهده على الناس، التي تقوم بها حجة الله على الضالين المتنكرين لعهده في كل جيل»[2].

التجمع بيئة ضرورية للمسلم:

«إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته، فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية. هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير، المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل، والمنكر فيه هو الشر، والرذيلة، والباطل، والظلم.

عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر، والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة، والحق فيه أقوى من الباطل، والعدل فيه أنفع من الظلم. فاعل الخير فيه يجد على الخير أعوانًا، وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلانًا. ومن هنا قيمة هذا التجمع.

إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد، لأن كل ما حوله وكل من

(١) المرجع السابق (١٠/ ٧٠).
(٢) المرجع السابق (٩/ ١٢٠).

حوله يعاونه، والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه.

والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافًا جوهريًّا أصيلًا.

فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة. لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي، ومن بيئة غير البيئة الجاهلية.

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له، فيحيا فيه هذا التصور، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية، وينمو نموه الذاتي»[1].

هذا أو الفساد:

«هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجابي لهذا الدين، لا ما يقوله المهزومون والمخدوعون، ولو كانوا من المخلصين الطيبين الذين يريدون أن يكونوا من المسلمين»[2].

«وهكذا وجد الإسلام، هكذا وجد متمثلًا في قاعدة نظرية مجملة، ولكنها شاملة، يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوي حركي مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه لهذا المجتمع، ولم يوجد قط في صورة نظرية مجردة عن هذا الوجود الفعلي.

وهكذا يمكن أن يوجد الإسلام مرة أخرى، ولا سبيل لإعادة نشأته في ظل المجتمع الجاهلي في أي زمان وفي أي مكان بغير الفقه الضروري لطبيعة نشأته العضوية الحركية»[3].

(١) المرجع السابق (٤/ ٢٧).
(٢) المرجع السابق (٩/ ٢٩١).
(٣) المرجع السابق (١٠/ ٧٠)

«إن البشرية كلها في حاجة إلينا، في حاجة إلى عقيدتنا، وفي حاجة إلى مبادئنا، وفي حاجة إلى شريعتنا، وفي حاجة إلى نظامنا الاجتماعي، الذي يكفل الكفاية لكل فرد، ويكفل الكرامة لكل إنسان، ويكفل سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع، كما يكفل السلام الدولي العام.

ومن هذه الحاجة الإنسانية بعد عقيدتنا في الله نحن نستمد قوتنا وثباتنا على الدعوة إلى عقيدة الإسلام وشريعته ونظامه الاجتماعي الخاص، وسنثبت بعون الله ولو تَخَطَّفَنا الشر والطغيان من كل مكان.

إن البشرية كلها في حاجة إلينا، ومن ثم تبدو جسامة الجريمة التي يرتكبها من يحاولون أن نذوب في أية حركة أو أية منظمة أو أي اتجاه، في داخل الوطن الإسلامي وخارجه على السواء»[1].

وإن الانخلاع عن الفردية، وعن الكبرياء، وتطويع النفس لطاعة قائد إسلامي وموالاته شرط ضروري جدًّا للحفاظ على سلامة الدعاة، وإلا «فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلي لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلي المتكافل أفرادًا، وتقع الفتنة في الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده، ويقع الفساد في الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام، وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله»[2].

«والمسلمون الذين لا يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوي الحركي ذي الولاء الواحد والقيادة الواحدة، يتحملون أمام الله فوق ما يتحملون في حياتهم ذاتها تبعة تلك الفتنة في الأرض، وتبعة هذا الفساد الكبير»[3].

(١) نحو مجتمع إسلامي، ص١٢.
(٢) الظلال (١٠/ ٧٣).
(٣) المرجع السابق (١٠/ ٧٤).

بل أشد من هذا إن لم يكن التجمع، «لأن الأفراد المسلمين نظريًّا، الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتمًا للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية. سيتحركون طوعًا أو كرهًا، بوعي أو بغير وعي، لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده، وسيدافعون عن كيانه، وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه، لأن الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا. أي أن الأفراد المسلمين نظريًّا سيظلون يقومون فعلًا بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون نظريًّا لإزالته، وسيظلون خلايا حية في كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد، وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا ويقوى، وذلك بدلًا من أن تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي، لإقامة المجتمع الإسلامي»[1].

(١) المرجع السابق (١٠/ ٦٩).

المشَمِّرون[1]

مقدمة طريق الدعوة، وأول خطوة فيه: أن يؤسس الدعاة لأنفسهم همة عالية، وإنها وصية أبي القاسم الجنيد ﷺ إذ يقول: «عليكم بحفظ الهمة، فإن حفظ الهمة مقدمة الاشياء»[2].

همة تخرجهم من الفتور واللامبالاة إلى انشغال تام بالتبشير بالدعوة، والتفكير بمصالحها.

وهمة تبعدهم عن تتبع الرخص والأعذار، وتحملهم على الإقلال من التمنيات، وتعليق القلب بمستقبل الدعوة، وتحريك العزيمة وإثارتها للوصول إلى الهدف.

وهي الهمة التي تجعل صاحبها يستهين كل صعب، ويعاف كل دعة، وتقر عينه بالتضحية، ويطرح كل جاهلية من قلبه دفعة واحدة، بلا انتظار، ولا توان، ولا تردد، ولا تعليق على شرط، ويعود يحزن من بعد إذا استوى يوماه.

وهذه هي تجاربنا تنطق: إن من بدأ من الدعاة بحزم وعزم ضمن له الاستمرار. ومن بدأ بلين وتراخ لزمه هذا اللين، وظل حرجا متأرجحا، وربما لم ينفعه الاستدراك إذا أراد مهما حاول، وإذن، فإنها الأيام الأولى تحدد السمت ليس غير.

الرسول المشمِّر:

وللداعية في كل ذلك اقتداء حسن برسول الله ﷺ، فإنه، كما تقول عائشة ﷺ،

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٢١)، ٣ رمضان ١٣٩٢هـ/ ١٠ أكتوبر ١٩٧٢م، ص٢٤-٢٥.
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٦٨).

من كان يراه: يراه «غاديا رائحا، لم يضع لبنة على لبنة، ولكن رفع له علم فشمر إليه».

فلم يكن النبي ﷺ ليفتر أو يقعد، بل هو في حركة دائبة ونشاط، يدعو، ويربي أصحابه، فرسم بذلك الخطة اليومية لكل داعية يريد أن ينتسب إلى طريقته. خطة يومية عنوانها: الحركة الدائبة والغدو والرواح للاتصال بالناس وتبشيرهم بمعاني الإسلام، وتأديب وتربية من يستجيب منهم، وعائشة رضي الله عنها إنما عبرت بعدم وضعه لبنة على لبنة عن عزوف قلبه الشريف ﷺ عن كل المطامع الدنيوية، واستغراق عمله الديني والتربوي لكل أوقاته.. ما بنى دارا من لبن، ولا تعلق قلبه بمال ولا أبقاه في يده، إن حصل عليه، ولا شغف قلبه حب حسناء، وبذلك فتح طريقًا يعرفها الموفقون لها، ويعيش بلذة السير فيها من يرى قلق وأسى واضطراب من هرب عن الدعاة إلى الإسلام حرصًا على دنيا زائلة.

لا تلتفت للوراء:

فطريقك واضح أيها الداعية، ووجهك مرفوع لعلم قد رفع لك، فشمر إليه، لا تلتفت للوراء.

سير الداعية بلا التفات، كما قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه يوم خيبر لما أعطاه الراية.

قال له: «امش ولا تلتفت، حتى يفتح الله عليك»[1].

فسير الداعية إلى الأمام أبدا حتى يفتح الله له، ومتى التفت فلت أمره، وفُت في عضده، وربما تلف، وما تأخر من تأخر إلا من هذا الالتفات.

أو كما قال ابن القيم رحمه الله: «لا وقوف في السير، بل إما تقدم وإما تأخر، كما قال

(١) صحيح مسلم (٧/ ١٢١).

تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المُدَّثِّر:٣٧]، فلا وقوف في الطريق، إنما هو ذهاب وتقدم، أو رجوع وتأخر»[١].

وإنما المؤمن هارب من الشيطان إضافة لتقدمه، وهو في هربه كالظبي في هربه من ذئب أو أسد، كما يصفه بعض الصالحين، متى استمر الظبي هاربًا فلن يلحق به الذئب أو الأسد، فإذا التفت التفاتة بسيطة إلى الخلف رأى المنظر المفزع، فتزيد رهبته، ويضعف عن مواصلة سرعته، ويدركه الطالب، كما هو مشهور من أمره عند الصيادين.

لذلك فإن سيد قطب ﷺ، ظل ينادي من وراء قضبان السجون في قصيدته الرائعة كل داعية:

أخي فامض لا تلتفـــت للوراء طريقـــك قد خضَّبتـــه الدماء

ولا تلتفـــت ها هنـــا أو هناك. ولا تتطلـــع لغير الســـماء[٢]

والالتفات دليل عدم الجد، كما قال البحتري:

أرى ســـيري إلى أقصى سبيلي لفرط الجد يمنعنـــي التفاتي[٣]

وهذا تاريخ الإسلام يرينا دوماً أن القانع قابع، والتواق سباق.

والذي يريد السبق، ودخول الجنة في الزمر الأولى، فإنه يأبى المنزل، ويأبى القناعة بالدرجة التي وصل إليها من الخير، ويكون ديدنه أن يتابع السير، ويرتقي مدارج الفضل، وينتسب إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ حين رفض القناعة فقال:

«إن لي نفسًا تواقة، لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها، حتى

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١٤٥).
(٢) كتاب «الشهيد سيد قطب» (٤/ ٦٩).
(٣) ديوان البحتري (١/ ٣٧٧).

بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة»[١].

فكن متحركاً للأمام أيها الداعية، وإلا هو الموت أو شبهه، كما جرب إقبال قبلك فنادى: «وجودي السير، والقدم السكون»[٢].

والداعية لا يهدأ إذا أبصر فعلًا الغابة الجميلة الرائعة، وهو النابض الذي لا يسكن أبدا، وهو الذي يسير في الطريق أبداً، لا يتخذ الجزء منه مرحلة وغاية، بل يمشي وينشد:

ماذا أقول وفطرتي ... لا ترتضي دعة المنازل

قلبي على قلق كما ... تهفو الصبا حول الخمائل

فإذا نظرت إلى جميل ... رائع حلو الشمائل

خفق الفؤاد إلى الذي ... يعلوه حسنا في المحافل

إني ليهلكني القرار ... فما أعوج على المراحل[٣]

فهي جنة عالية قد رفعت لك أيها الداعية والله بر رحيم، ودود غفور، فشمر للوصول إليه وإلى جنته، واجمع قلبك وباطنك على التحديق إليها، واركب مركب التبشير والتبليغ ودعوة الناس وتأديبهم للوصول إلى ربوعها.

لا بد من بينونة كبرى!

ولا بد للداعية من أن يصير: «كائناً بائناً، داخلاً خارجاً، متصلاً منفصلاً» عن هؤلاء الناس، كما يقول ابن القيم[٤].

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص٥٣.
(٢) ديوان رسالة المشرق لإقبال، ص٦٤.
(٣) المرجع السابق، ص٦٣.
(٤) مدارج السالكين (٣/ ٤٢٥).

فهو كائن مع الناس، يعيش بينهم لينتقي ويربي، بائن عنهم بقلبه، مزايل لما هم فيه من عرض الدنيا.

ولقد وصل بعض أئمة الإسلام الذروة في هذه البينونة الكبرى، حتى وصف الإمام الفقيه الكبير المحدث محمد بن إسحاق بن خزيمة صاحب الصحيح المشهور بأنه كان:

«لا يدخر شيئا جهده، بل ينفقه على أهل العلم، ولا يعرف صنجة الوزن، ولا يميز بين العشرة والعشرين»[1].

لا يعرف كم الكيلو والغرام!

أتراه عن قلة ذكاء وهو العالم الفقيه الإمام؟

لكنه وهب جميع فكره للإسلام.

وكذلك كان أمر الإمام المحدث إسحاق بن راهويه الحنظلي، إمام خراسان كلها وشيخ البخاري ومسلم، فقد وصفه تلميذه أبو يحيى الشعراني فقال: «كنت إذا ذاكرت إسحاق في العلم وجدته فردًا، فإذا جئت إلى أمر الدنيا وجدته لا رأي له»[2].

لا ينظرون إلى الدنيا على أنها حرام، فتحريمها بدعة، ولكن لأنهم يرونها تشغل عن السير إلى الله، ولأنهم انغمسوا في العلم والعمل، فنسوها، وسلموا كلهم لله، فما عادوا يذكرونها، كما سلم فروة بن عمرو الجذامي رضي الله عنه نفسه، وكان ملكًا على العرب الذين في مدينة معان وما حولها من أسفل الشام، فلما أسلم وأرسل رسولا منه إلى النبي، ﷺ، يعلمه بإسلامه أخذه الروم فحبسوه، واجتمعوا لصلبه في فلسطين فلما «قدموه ليقتلوه قال:

(١) طبقات الشافعية للسبكي (٣/ ١١٩)

(٢) المرجع السابق (٢/ ٨٨).

بلغ ســـــراة المســـــلمين بأنني ســـــلم لربي أعظمـــــي ومقامي

ثم ضربوا عنقه»[1].

فتسليم الكل حدٌ حدَّه فروة، ومنع به أن يقتصر من بعده على دون هذا الحد.

ولا يكون داعيةً اليوم من لم يسلم كله لله.

وأما إنه داخل خارج، فهو أنه داخل في مجتمع هؤلاء الناس، يعيش بينهم، وينتسب إلى قبائلهم وعوائلهم، لكنه خارج على قوانينهم المخالفة للشريعة، لا يطبقها، ولا تغره.

إنه الخارج على القانون حقًا، لكنه الداخل إلى القلوب حقًا. يدخله بالدعوة والنطق بالحق وبانتسابه إلى حزب الإمام الغزالي إذ يقول: «ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالحق، وقد حق علي أن أبوح بالحق، وأنطق به، وأدعو إليه»[2].

فلا ينزوي:

ليس منا من ثـــــوى في صومعة يحبس الأعمـــــال والفكر معه

ضاق نفسًـــــا عن مجال وسعا فثوى فـــــي ضيقه قـــــد خنعا

ليس شـــــيئًا أن تـــــرى معتزلًا عابدا، تخشـــــى البرايا، وجلا

إنما العابد من خـــــاض الحياة موضحاً فيه ســـــبيلًا للنجاة[3]

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٥).

(٢) طبقات الشافعية (٦/ ٢١٠).

(٣) ديوان رسالة المشرق، ص١٤٣.

والناس قد أضلتهم الأحزاب، وامتصت أخلاقهم وعقائدهم المبادرات الجماعية للمراهقين والعملاء، فكيف يقعد المسلم؟ المسلم لا يقعد، لكن كان من شرطه أن تستفزه بلاغة الدعاة حين يقولون:

أيـــــه دعاة الحق أنتـــــم معقد الـ أمل المضـــــيء، فبالظلام أطيحوا

ضل القطيع وزمجـــــرت ذؤبانه تغـــــدو على أشلائـــــه وتروح

إنـــــي أعيذ بهاءكـــــم أن ينزوي في ركن بيـــــت، والجواد جموح

قودوا الجموع إلى السماء وخلفوا من شـــــاء تعلوه الزمان سفوح

المجد مجدكم فعـــــار أن يرى يعـــــدو إليه مغامـــــر وطموح[1]

فعار، والله، أن يسبق الدعاة مغامر، ومراهق، وطموح لمصالح شخصية، ومنفذ لخطط ماسونية.

وأما الانفصال عن الناس في وقت الاتصال فهو الانفصال بمرتبة الهمة، فالمنتسبون إلى الإسلام لاهون، والداعية ذو قلب مهموم بمصالح المسلمين.

ومن حوله يجمع الدينار والدرهم، وهو يدخر الحسنات عند الله.

وغيره: «يتوكل في حصول مال أو زوجة أو رياسة» وهو قد استجمع «التوكل في نصرة دين الله وإعلاء كلمته، وإظهار سنة رسوله، وجهاد أعدائه» كما يقول ابن القيم[2].

والله سبحانه يفصل الدعاة عما الناس فيه «إذا صلح القلب لله عز وجل لا يدعه مع الخلق والأسباب، لا يدعه مع البيع والشراء، والأخذ والعطاء بالأسباب. يميزه ويخلصه»[3].

(١) مجلة التربية الإسلامية (٧/ ٤٢٩).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٨٠).
(٣) الفتح الرباني للشيخ عبدالقادر، ص٢٣٦.

إنما يبقى جسمه فقط مع البيع والشراء، أو وراء منضدة مكتبه الوظيفي، أو أمام كشف رصيده في البنوك، أما قلبه فهناك...

«إن هذه الدعوة لا يصلح لها إلا من حاطها من كل جوانبها ووهب لها ما تكلفه إياه من نفسه وماله ووقته وصحته.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التَّوْبَة:٢٤].

فهي دعوة لا تقبل الشركة، إذ إن طبيعتها موحدة، فمن استعد لذلك فقد عاش بها وعاشت به، ومن ضعف عن هذا العبء فسيحرم ثواب المجاهدين، ويكون مع المخلفين، ويقعد مع القاعدين، ويستبدل الله لدعوته به قوماً آخرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المَائِدَة:٥٤][1].

أو كما وصف الجنيد ﷺ هؤلاء الذين انفصلوا عن الناس، فقال: «إن لله عباداً صحبوا الدنيا بأبدانهم، وفارقوها بعقود إيمانهم أشرف بهم علم اليقين على ما هم إليه صائرون، وفيه مقيمون، وإليه راجعون...

فانظرهم.. ترأرواحاً تتردد في أجساد قد أذبلتها الخشية، وذللتها الخدمة، وتسربلها الحياء... وأسكنها الوقار، وأنطقها الحذار، شغلها بالله متصل، وعن غيره منفصل»[2].

(١) للإمام البنا المجموعة، ص٩٧.
(٢) حلية الأولياء (١٠/ ٢٦٢).

إن قول ابن القيم ذاك، وهذه الأقوال والسير التي شرحته، تبين أصل جانب المفاصلة الشعورية، ومفاصلة الفرد الداعية السلوكية، مما ذكره سيد قطب من المفاصلة الحركية.

الاتباع جماع الخير:

وجماع كل هذا الخير: الاتباع والقيام بحقيقة التوحيد.

اتباع النبي، ﷺ، وتقليده والسير في طريقه.

فبهمة الاتباع: شابه عبد الله بن مسعود ﷺ، وهو راع قليل الشأن في العرف الجاهلي، أرفع العباد شأنا وأعلاهم وأشرفهم منزلة، رسول الله ﷺ، حتى قال حذيفة ﷺ: «إن أشبه الناس دلا وسمتا وهديا برسول الله ﷺ لابن أم عبد، من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه»[1].

وبهمة الاتباع غفر الله لجليس المتبعين الذاكرين لله، الذي جالسهم لحاجة له معهم، كما ورد في الحديث الصحيح فيقول الملائكة ممن أحصوهم: «فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة» جاء لحاجة، يريد مالًا أو يقتضي ديونًا، فيقول الله تعالى: «هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»[2].

فانظر أيها الداعية: هو الله البر الرحيم الذي يغفر في الآخرة لجليس الذاكرين، أليس هو الكفيل بهداية هذا الجليس وجعله ينطلق معهم في الحياة الدنيا؟

والله سبحانه الذي يحشر معهم هذا الجليس في الجنة في الآخرة، أليس هو الله القادر على أن يدخله جنة تجمعهم في الدنيا؟

(١) صحيح البخاري (٨/ ٣١)

(٢) المرجع السابق (٨/ ١٠٨).

بلى إنه القادر..

وإذن.. إن أمر الدعوة والتبشير أيسر مما تظن.. جالس الناس فقط واذكر الله بينهم، واذكر دينه وأمره ونهيه وقرآنه، يكونوا جلساء ذاكرين وإن لم يرغبوا، ويدخلهم الله صفك فيهتدوا.

لا تحتاج إلا أن تخرج من القوقعة وتتحرك.

لا يراد منك إلا أن تجهر بذكر الله في مجالس الناس يأتونك أفواجا، ويدخلون معك، غير ملتفتين إلى وراء، وبخطوة جازمة ليس معها رجعة، ولا استئناف، ولا انثناء.



لا نغبن أنفسنا[1]

أظهر ما في المؤمن أنه كيِّس فطن، وما هو ممن ترتادهم الغفلة.

والفطنة والكياسة تجعله يتحرى مصالح نفسه فيطلبها ويحرص عليها ويجتهد في نوالها، والغفلة على عكس ذلك، تجعل الذي تعتريه يغش نفسه المرة بعد المرة، لأنها من الشيطان، فتفوت عليه الفرص، ويغره البهرج الكاذب.

وهذا هو في الحقيقة موطن الافتراق، فإن طلب المصالح طبيعة فطرية، ولكن صاحب الكياسة يعرف المصالح الحقيقية فيطلبها، وصاحب الغفلة تغشه المظاهر والآمال القصيرة والصور، فيظن أنه قد جمع شيئًا وهو خالي الوفاض.

ومن عجيب أمر هذه الغفلة أنها تترصد للسائر من أول طريقه إلى آخره، وأنها تسير بمحاذاته كما يسير الذئب المتلصص الذي يريد أن ينقض على راع سائر بغنمه، فمتى وجدَت مجالًا وفرصة هجمت، فإن طردها فإنها لا تلبث أن تحاول التلصص ثانية، ولا تتركه إلا أن يصل داره.

ومن ها هنا فإن أحدنا قد يقع في غش نفسه وهو لما يزل ينوي السير، وقد يغش نفسه أثناء الخطوات الأولى التي يفارق بها الطرق الأخرى، فيغشها في الاعتقاد، فإذا توغل في السير فقد يغش نفسه في طبيعة أمانيه وتوكله.

صلابة النية.. وصلاحها:

فقبل كل شيء، نحن بحاجة إلى نية جازمة يتضح فيها صلابة الافتراق والتغاير

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٢٢)، ١٠ رمضان ١٣٩٢هـ/ ١٧ أكتوبر ١٩٧٢م، ص٢٤-٢٥.

عما حولنا من طرق ومذاهب، ولا بد من كونها جازمة، وإلا فالنية الهينة الرقيقة لا توصل إلى الغاية عندنا نحن دعاة الإسلام أو عند الكافرين، فما من صاحب عمل يقر له بأن نيته الهينة اللينة ستوصله إلى النهاية، وإنما الإجماع منعقد على أنه لا يصل إلا الصلب في نيته، الجازم في رغبته، الحازم في أمانيه، وما لم تكن نيتنا كذلك فقد غششنا أنفسنا أي غش، وتحولنا عن ركن متين، وهذا بعض ما أشار إليه ابن القيم في قوله إن:

«المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة، فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إليه، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره، وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه.

فالنية تفرد له الطريق، والهمة تفرد له المطلوب، فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته وإذا كانت همته سائلة تعلقت بالسفليات، ولم تتعلق بالمطلب الأعلى وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة إليه.

فمدار الشأن على همة العبد ونيته، وهما: مطلوبه وطريقه»[1].

بل إن الهمة والنية لترفع المسلم وهو قاعد في بيته إلى صف المجاهدين، إن كان لقعوده عذر وسببه نوع اضطرار، كما كان أمر أولئك الصحابة الضعفاء الذين لم يخرجوا إلى تبوك مما بهم من الضعف وقال فيهم النبي ﷺ: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم».

قال ابن القيم: «فهذه المعية هي بقلوبهم وهممهم»[2].

ولكن لابد من نقلة بعد هذا الجزم في النية إلى شرط إسلامي فيها نفارق فيه

(١) الفوائد لابن القيم، ص١٤٣.
(٢) زاد المعاد لابن القيم (٣/ ١٧).

الكافر، فاحرص على أن تكون نيتنا لله خالصة، لا لطلب جاه، ولا حمد، ولا مكانة، ولا نفع عاجل، وإلا فإن النية المدخولة لا يقبل الله ما بعدها من عمل، ومن رضي أن يعمل بلا حصول على ثمرة من عمله فقد خدع نفسه.

وحصول هذه النية الإيمانية يجعل صاحبها في غير حاجة إلى كثير تفقه وشرح ودراسة لإدراك حدود العقيدة الصحيحة وسبل العمل القويم، وإنما يقوم النور الذي تقذفه هذه النية في قلبه بتصحيح خطواته، ويريه حسن الثواب، فيستهين كل صعب من أجله، ويعود يتلذذ بالتعب، «فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة، وقطع عقبات متعبة، ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، وهو لشدة نور باطنه يجتزئ بأدنى بيان، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار»[1].

عقيدتنا محضة.. ترفض الامتزاج:

فإن استقامت نية الداعية كان أحوج ما يكون للاستقامة في العقيدة، فإنه لا ينبغي للداعية إلا ما هو صاف نقي غير مشوب، وليعرف أنه:

ما النبع في مغرســـــه كالعوسج ولا الصريح المحض كالمُمَزَّج[2]

ففكره صريح محض، ليس فيه كدر، ولا شائبة، ولا جزء غريب، ومن أبى لنفسه أن تقبل ثوبًا مرقعًا ورضي لها أن تحمل عقيدة مرقعة فقد ظلم نفسه، عقائد الدعاة تستمد من «قال الله تعالى» ومن «حدثنا وأخبرنا» فحسب، ولا يخلطون بها تناقضات مهووس من أهل الفلسفة، ولا زيادات مصرف من أهل البدع، ولا مغلق على نفسه أبواب الرحمة والحلم والغفران ممن ينكر صفات الله من أهل التجهم، ولا أماني

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤).

(٢) النبع: نبت مستقيم الأغصان ينبت في أعالي الجبال والتلال، تتخذ منه الرماح، ولذلك تعده العرب أشرف الشجر، والعوسج نبات صغير كثير الشوك ينبت في المنخفضات.

واطئة قصيرة يدندن بها في أفقه الضيق حاقد من أهل الاشتراكية، ولا مشاعر باردة قنع بها أحد من أهل الوطنية والقومية، فإن دعاة الإسلام قد رفضوا الأخلاط مذ علموا أنه: ليس الصريح المحض كالممزج، وشأن الفكر الممتزج، أن يظل صاحبه قلقًا دائمًا، كما قال الشاعر:

من لك بالمحـــــض وكل ممتزج وســـــاوس في الصدر منه تعتلج

فهي الوساوس، أي القلق، والاضطراب، وما يجران إليه من استمرار تبدل الاجتهادات والمواقف.

وإن كنت داعية نبها فلا تجمع في صفك إلا من هو صرف خالص الإيمان والعقيدة غير ممزوج.

فقليـــــل الجمع صرفًـــــا خالصًا لك خيـــــر من كثيـــــر قد مزج

فإن حظي داعية الإسلام بالصفاء فليعلم أنه قد حظي بكنز كثر من يطمع فيه، وإن اللصوص من شياطين الجن والإنس قد تخالفوا لسرقته، بالترغيب والتغرير، أو بالعنف والترهيب، ولا بد أن يكون بخيلًا شحيحًا غير متنازل عن حرف من فكرته، فما ذكر الناس للبخل من فضيلة إلا في مثل هذا الموطن، ومدحوا الذين هم:

قوم شـــــحاح علـــــى اعتقادهم بالفـــــوز مما يخاف قـــــد وثقوا

هكذا صفة دعاة الإسلام: قوم شحاح بخلاء على اعتقادهم، لا يساومون فيه، ولا يتنازل أحدهم فيعطي السائل ويوزع عقيدته ها هنا وها هنا، يمنة ويسرة، كل من أراد منه تسوية سوى معه وتصالح، وكل من أراد منه حلًا وسطًا وقف له حيث أراد، بل يكون له خلق الشحيح، من الحراسة والحذر، وتكرار المراجعة والفحص، فإن لم يحذر فسينتهي إلى ضياع.

استعلاء في التوكل أيضاً:

فهذه استقامة العقيدة قد عقب بها الداعية المسلم استقامة النية، وصار له جناحان يطير بهما ليمارس الحياة الإسلامية الفعلية، ويطلب زيادة الإيمان والعلم، ويسعى لنصرة الدين والتأثير في العالم تأثير خير، بدفع فساد المفسدين، وتحصيل المصالح الدينية، وفتح بصائر القلوب، والدعوة إلى أن يعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد.

ولا يعرف الداعية غير هذه القمم الشامخة يطير بمحاذاتها، ولا يعرف لسانه غير هذه المعاني البليغة يدندن حولها، فيتوكل على الله في تحصيل مطالبه هذه، فإن نزل عن هذا العلو إلى الواطئ من الدرهم والدينار والجزئيات فقد ظلم نفسه.

واسمع ها هنا كم لكلام ابن القيم ﷺ في وصف هذه الأعالي من حلاوة وطلاوة إذ يقول: «كثير من المتوكلين يكون مغبونًا في توكله، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون، كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله، ويمكنه نيلها بأيسر شيء، وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيرًا.

فهذا توكل العاجز القاصر الهمة، كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين»[1].

ثم اسمعه يقول: «فأفضل التوكل: التوكل في الواجب- أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس- وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة الدين، ودفع فساد

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥)

المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم»[1].

فهذا فن توكل الدعاة، ونجده أصدق ما كان وتمثل في الصحابة ﷺ «فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم، فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد، فملأوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيمانًا، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان، وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقينًا وإيمانًا، فكانت همم الصحابة ﷺ أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي، فيجعله نصب عينيه، ويحمل عليه قوى توكله»[2].

وهذا من رفيع الكلام، وإنما يفهمه من يطلب المنزل الرفيع، وقد أجمل ابن القيم ﷺ بهذه الأسطر دستور الداعية المسلم في الحياة كلها، وإنما أورده بمناسبة التوكل لدخول التوكل في الأخلاق الإيمانية وتماسِّه بها جميعًا واحتياج المؤمن في كل لحظات حياته إليه.

طبائع الدعاة:

ويتوسع التوكل العالي ليطبع الداعية بسمات ثمان لا تنفك عنه، وتكون الصفة منها دليلًا على علو توكل صاحبها، وترسم باجتماعها حدود نظرية، شروط التوثيق في التجمعات الإسلامية.

قالوا: إن الداعية:

شـــــهاد أندية، شـــــداد ألوية قتال طاغيـــــة، فـــــكاك أقياد

(١) المرجع السابق (٢/ ١١٤).
(٢) المرجع السابق (٢/ ١٣٥).

قوال محكمة، نقـــاض مبرمة رفاع أبنيـــة، فتاح أســـداد

«شهاد أندية»: يتجول بين الناس ونواديهم ودواوينهم، لا ينزوي ولا يقعد، فإن من عالج قلبه وصحح نيته، ثم كافح حتى استقامت له الفكرة الصافية لا ينبغي له الانزواء، وإنما هو الظاهر في المجالس، يشهدها ويوجه أهلها، ويصدع بكلمة الحق فيها.

أو كما يقول أبو الحسن الندوي: إن «تحويل التيار من شر إلى خير، ودفع غربة الإسلام في وطنه وأهله، لا يكون إلا بالحركة والتنقل وتحمل المشاق ونشر الدعوة والجهاد في سبيلها»[1].

«شداد ألوية»: فترى همة الدنيوي ملك دنانير الناس، وهمة الداعية الأخروي ملك قلوب الناس، يرفع لها راية خير فتنتظم الجموع تحتها، ويتفرس في الوجوه، فما رأى من وجه فيه عزيمة وشجاعة وذكاء انتقاه ورباه وجعله ينتظر واللواء فوقه خافق.

«قتال طاغية»: وذلك كما قال الإمام ابن تيمية ﷺ، قال: «وسيوف المسلمين تنصر هذا الشرع، وهو الكتاب والسنة، كما قال جابر بن عبد الله: «أمرنا رسول الله صلى الله عيه وسلم أن نضرب بهذا؛ يعني السيف، من خرج عن هذا؛ يعني المصحف»، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد:٢٥].

فبين سبحانه وتعالى أنه أنزل الكتاب وأنزل العدل وما به يعرف العدل ليقوم الناس بالقسط، وأنزل الحديد، فمن خرج عن الكتاب والميزان قوتل بالحديد[2].

(١) مذكرات سائح في المشرق العربي، ص١٢.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٥/ ٣٦٥).

فهذا الأمر النبوي الشريف دل على أنه:

ما كان للمؤمن أن يستكيـــــن أو يرغب العيش ذليلا مهيـــــن

في حمأة الظلم ولا أن يلـــــين مع الطغاة الغُبُر الملـــــــحدين

بل يهتك الســـــتر عن الظالمين بفجره لا بـــــد يأتـــــي الغد[1]

و«إن المنهج خير وما يصد البشرية عنه إلا أعدى أعداء البشرية، الذين ينبغي لها أن تطاردهم، حتى تقصيهم عن قيادتها.

وهذا هو الواجب الذي انتدبت له الجماعة المسلمة، فأدته مرة خير ما يكون الأداء، وهي مدعوة دائمًا إلى أدائه، والجهاد ماض إلى يوم القيامة تحت هذا اللواء»[2].

«إن وقوع المعركة بين جند الحق وجند الباطل، واستعلاء سلطان الحق في عالم الواقع، بعد استعلائه في عالم الضمائر، إن هذا كله مما يعين على جلاء الحق للعيون والقلوب وعلى إزالة اللبس في العقول والنفوس، بحيث يتبين الأمر بهذا الفتح ويتجلى[3].

و«هي معركة لله، لتقرير ألوهيته في الأرض، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية، وإذن فهي معركة لتكون كلمة الله هي العليا، لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي»[4].

«فكاك أقياد»: إذ الناس أسارى الأوهام، وتقيدهم المطامع الدنيوية والأهواء، وليس غير الداعية المسلم يحررهم من عبوديتها.

(١) أغاني المعركة، ص٧٨.
(٢) الظلال (٤/ ٤١).
(٣) المرجع السابق (١٠/ ٢١).
(٤) المرجع السابق (١٠/ ٢٦).

«قوال محكمة»: ينطق بالحكمة، وبالنافع، وبالذي يصلح أمر الناس، وتلك هي البلاغة مهما كانت لغة الداعية سهلة، وهذا القول المحكم هو أحد أنواع الجهاد كما يقول المودودي «فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد، وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت: إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم وإحداث انقلاب عقلي وفكري بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع الجهاد»[1].

«نقاض مبرمة»: فأعداء الإسلام يبرمون أمرهم، ويضعون الخطط لحرب الإسلام، فيأتي الداعية ينقض ما أبرموا، ويفضح ما وضعوا.

«رفاع أبنية»: يرفع ويبني أبنية الإسلام المعنوية ويؤسس مؤسسات الإيمان في القلوب، يرفع بناء قول الله تعالى، وبناء قول رسول الله ﷺ، وبناء قول السلف الصالح، ويعمرها ويعليها لتكون منارات يهتدي بها التائه في ظلام الجاهلية، مثلما يساعد في رفع أبنية المساجد والمدارس الشرعية.

«فتاح أسداد»: له مفتاح من الوعي والبصيرة والاطلاع على تجارب الدعاة الآخرين يفتح به مغاليق الأمور وأبواب أسوار الحصار الكفري التي أوصدها حول الدعاة.

تلك هي الشروط الثمانية، فمن قصر في واحدة منها فقد غبن نفسه، ومن قصر فيما تقتضيه من التنسيق والتخطيط فقد غبن نفسه.

إنها مهمة جبارة مهمة الداعية المسلم، لا يليق معها تغيب عن الميدان وترك للحيارى في تيههم دونما اتصال وإرشاد، مهمة جبارة لا يستقيم معها طلب راحة.

وهكذا صح بهذه الثلاثة أنا قوم لا نغبن أنفسنا الغبن الذي حذر منه ابن القيم.

(١) رسالة الجهاد للمودودي، ص١٣.

- لا نغبنها في النية وطبيعة الهمة.
- ولا نغبنها في الاعتقاد.
- ولا نغبنها في التوكل والعمل.

وهكذا يصح أن تترجم كل صفات الداعية في شرط واحد جامع: إنه لا يغبن نفسه مرة.

اتزان التوسع[1]

أول ثمرات العزة الإيمانية التي يحسها المؤمن: إدراكه ما في الإسلام من قوة الحقيقة التي يكفي لكي تعلن عن نفسها، أن تتمثل في فرد واحد، وما في الآراء الجاهلية المخالفة من زيف الباطل، واحتياجها إلى سواد كثير وعدد كبير من الأفراد، يأسر منظرهم كل ساذج، فيغتر، وينطلي زيف الباطل عليه، دون أن يدرك ما هم فيه من الضلال.

ومن ها هنا رأينا تَمثُّل الأمة الإسلامية أكثر من مرة بمؤمن واحد فقط، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النَّحل:١٢٠]، قال ابن تيمية: «أي كان مؤمنًا وحده وكان الناس كفارًا جميعهم»[2].

وفي صحيح البخاري أنه قال لزوجه سارة: «يا سارة: ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك»[3].

ثم كما تمثلت حينًا بمحمد، ﷺ، وحده.

ومن ها هنا أيضًا انسد باب شعور المؤمن بالغربة، فهو، لأنه يمثل الإيمان والحقيقة، يشعر بأن الناس جميعًا وهم في ضلالهم هم الغرباء التائهون.

ولذلك، فإنه لمّا توهم واهم فوصف عبد الوهاب عزام بالغربة، كان جوابه سريعًا، فقال:

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٢٣)، ١٧ رمضان ١٣٩٢هـ/ ٢٤ أكتوبر ١٩٧٢م، ص٢٤-٢٥.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤٣٦/ ١١).
(٣) صحيح البخاري (١٧١/ ٤).

قال لي صاحـــــب: أراك غريبًا بين هـــــذا الأنـــــام دون خليل

قلت: كلا، بل الأنـــــام غريب أنا في عالمي، وهذي ســـــبيلي[1]

أما غربة الغرباء الذين ذكروا في الحديث الشريف: «طوبى للغرباء» فهي غربة بالنسبة للواقع، أي لندرتهم وقلتهم بين غثاء ضال، أما في عالم الضمير والشعور فإن للمؤمن الفرد من إيمانه أنيسًا ورفيقًا وخليلًا يبعد الغربة.

ليس علينا غير البلاغ:

وهذا التباين في شعور الداعية إلى الإيمان عن شعور الداعية إلى الباطل جعل دعاة الباطل في تعب دومًا، وفي تبديل لصور باطلهم حين لا تنطلي على الناس، ويبررون ذلك بالتطور الفكري والديالكتيك ويرون، بعقلية تجارية بحتة تضع حساب الأرباح والخسائر المادية فحسب، أن من يتكلم ويكتب لإشاعة فكرة معينة ولا يستجيب له الناس عليه أن يسارع إلى تبديلها بأخرى تجد لها تصريفًا.

أما الداعية المسلم فهو يعتقد بأن عليه تحري القول الصائب الموافق للشرع، واتباع الأسلوب الملائم حسب اجتهاده، ثم الله هو الذي يتولى ما بعد ذلك، فإن لم يستجب أحد فلحكمة ربانية، ولو شاء الله لهداهم، ولكن كره الله انبعاثهم مع الدعاة، ولا يسع الداعية المسلم إلا الثبات على ما يعتقد.

وبهذا الوعي لهذه الحقيقة الإيمانية أجاب يوسف القرضاوي من اعترض عليه، فقال:

عَجِبْـــــتُ لهم قالـــــوا: تماديت في وفي المثُلِ العُليا، وفي المرتقى الصعبِ

فأقصـــــر ولا تُجْهِـــــدْ يراعَك إنما ســـــتبذر حَبًّا في ثرًى ليس بالخصبِ

(١) ديوان المثاني، ص٣٤.

فقلت لهم: مهلاً، فما اليأس شيمتي ... سأبذر حَبي، والثمارُ من الربِّ

إذا أنا أبلغت الرسالة جاهدًا ... ولم أجد السمع المجيب فما ذنبي[1]؟

وهذا من قوانين الدعوة الإسلامية.

إننا إذا لم نصل إلى ما نبغي ونريد، فحسب عملنا أن يشجع الجيل اللاحق على مواصلة السير، فإن النجاح في الابتداء دليل على إمكان الانتهاء، أو كما يقول الرافعي:

«البدء في تحقيق الشيء العسير: حسبه أن يثبت معنى الإمكان فيه»[2].

ووجود هذه النماذج الجيدة من دعاة الإسلام في كل مدينة من مدن الإسلام حسبه أن يثبت معنى إمكان تطبيق المثل العليا الإسلامية من خلال تجمع حركي في وسط جاهلي مظلم قاتم.

وهذا الإثبات هو منطلقنا لمواصلة السير، والإكثار من تربية مثل هذه النماذج، حتى نصل حدًّا عدديًّا كافيًا لهداية الجاهلية التي من حولنا.

فإن لم يستطع الدعاة اليوم اقتلاع هذه الجاهلية فحسبهم أنهم كانوا، كما يقول سيد قطب: «أجراء عند الله، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا: عملوا وقبضوا الأجر المعلوم! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر؛ لا شأن الأجير»[3].

نريد أن نكون أئمة:

وإنما ذاك ما يقتضيه الإيمان.

(١) مجلة «المباحث المصرية» عدد (٣١) لسنة (١٩٥١).
(٢) وحي القلم (٢١/ ١).
(٣) معالم في الطريق، ص١٨١.

وإلا فإن في الفطرة ميلًا إلى كثرة الأنيس، والعين تحب أن تقر بتسلط الإيمان على الكفر، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

وهذا ما يجعل الداعية حريصًا كل الحرص على تعلم فنون الدعوة، لينجح في نقل مزيد من الشباب من التيه إلى الطريق المستقيم، وتراه ينتشي ويبلغ أقصى اللذة حين يأخذ بيعة جديدة، ويكون من أحب أدعية القرآن لديه أن يقول: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفُرْقَان:٧٤].

وما دعاؤه هذا من الاستشراف للمسؤولية والتزعم وحب الظهور بحيث يكون مكروهًا، بل كما قال ابن القيم: «هو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا، يقتدي به المتقون، كما اقتدى هو بالمتقين.

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلًا، وفي قلوبهم مهيبًا، وإليهم حبيبًا، وأن يكون فيهم مطاعًا لكي يأتموا به ويقتدوا أثر الرسول على يده: لم يضره ذلك، بل يحمد عليه، لأنه داعٍ إلى الله يحب أن يُطاع ويُعبد ويوحد، فهو يحب ما يكون عونًا على ذلك موصلًا إليه، ولهذا ذكر، سبحانه، عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه، فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفُرْقَان:٧٤].

فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته، فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فإنما سألوه ما يعينون به المتقين على مرضاته وطاعته، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين»[1].

(١) الروح لابن القيم، ص٢٥٢.

سعة التجميع تتناسب مع طاقة التربية:

ولكن حب الإمامة في الدين يجب ألّا يخرجنا إلى نوع تساهل في الصفات الإيمانية والطبيعية التي نشترطها لمن يريد أن يكون مع الركب، ويجب أن يكون هناك، على طول الخط، تناسق وتوازن بين سعة التجميع وسعة طاقة التوجيه التربوي التي تملكها، فإن من أخطر الأخطاء أن تتوغل الدعوة في تجميع واسع قبل أن تكون هناك صفوة من الدعاة قادرة على أن تتولى تربية كل الذين يتجمعون حولها، بل يجب أيضًا أن يبقي رجال الصفوة بعض أوقاتهم لمواصلة تربية أنفسهم هم بالعلم والعبادة، وإلا قست قلوبهم من بعد لذة الابتداء، وإذا قست القلوب فقدت شيئًا من معاني الأخوة.

هذا التوازن ليس بخاص في بداية الدعوة، وإنما يجب أن يكون هو المسيطر على سعة التجميع في أدوار الدعوة كلها، وإلا تسرب الخطر.

ومن هنا فإن الخطة لا تتصور احتمال حيازة رجل الشارع واستقطاب الجماهير الواسعة، بل لا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا خرجنا إلى نوع تساهل في الشروط، ومن المزالق أن تسير الدعوة وراء رجل الشارع حريصة عليه قبل حصول المقدار اللازم من الوعي الإسلامي والعدد الكافي من أصحاب التربية الصلبة.

إن المتولعين بالسياسة من الدعاة يريدون للدعوة أن تدخل في سباق مع الأحزاب لاكتساب رجل الشارع، في الوقت الذي أبان رجل الشارع في البلاد الإسلامية كلها عن طبيعته في قلة استعداده للسير الطويل مع جماعة معينة.

رجل الشارع «*»، والغوغاء، والدهماء، والمصفقون: هم مادة الأحزاب الجاهلية الأرضية وعنصر حياتها، لأن هذه الأحزاب تستطيع أن تبدل وتحور برامجها وفق طلبات هؤلاء وتبعًا لاستهلاك السوق.

أما الدعوة الإسلامية فما بمثل هؤلاء تنتصر، وما بمثل هؤلاء تغير مجرى الحياة من الجاهلية إلى الإسلام.

إن التجميع القطيعي ممكن، لكنه لا يستمر طويلًا.

هذا فضلًا عن أن التجميع الواسع ينتقل بالدعوة إلى وضع جديد تحتاج فيه إلى كفايات ضخمة تستخدمها في الإدارة، وإلى قدوات عالية المستوى لإدامة بقاء التجمع في رحاب الحياة الروحية أثناء انغماس الجميع بكثرة الأحداث.

وإذا لم توجد مثل هذه الكفايات والقدوات قبل بدء التجميع الواسع والعمل مع رجل الشارع فإن الدعوة تكون قد عملت على إيجاد جماهير تنتسب إلى الإسلام، لكنها ذات رغبات ساذجة، تنفر من الخطوات الحكيمة وتندفع اندفاعات غير موجهة ولا هادفة، وربما طوعت الإسلام لقبول ما ليس منه، وحملت مفاهيم مشوبة بنظريات الكفر وعقائد مختلطة بالبدع.

الدعوة إلى الله ينبغي أن توجّه لكل الناس.. فمن بين صفوف الناس العاديين تخرج نماذج رفيعة تسبق من حمل إليها الهدى.. في طريق العمل والسمو الروحي.. ولقد عاتب الله، سبحانه، نبيه محمدًا، ﷺ، في حادث ابن أم مكتوم (وهو رجل أعمى وفقير ومن عامة الناس) حين جاء يطلب من الرسول أن يعلمه مما علمه الله فانشغل الرسول، عليه الصلاة والسلام، بأمر جماعة من كبراء قريش، انشغل بهدايتهم وعرض الإسلام عليهم.. وأعرض عن ابن أم مكتوم.. هنالك جاء الوحي على عجل يحمل هذا العتاب: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا

تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ [عَبَس:١-١١].

وبهذا تقرر توجيه الدعوة إلى عامة الناس، حتى في فترة النشأة والتكوين، والعمل داخل صفوفهم.. فلعلهم يزَّكون.. أو يذَّكرون.

شباب يحفظون أمر الإسلام[1]

ألذ لحظات لدى الداعية تكون حين يوفقه الله لاكتشاف شيء من فقه الدعوة، وما أن يذوق حلاوة هذه اللذة حتى تجده يطلب المزيد منها، ويحرص عليها، وتصبح ديدنه.

وهنا، إذ يعيش حالة التطلع هذه، سيحس بالحاجة إلى معرفة الطريق الذي يوصله إلى اكتشاف هذا الفقه.

إنه يرغب أن يكون فقيهًا في أمر دعوته، ويريد أن تتلاحق بسرعة اكتشافاته لجزئيات فقه الدعوة، فيتأمل ويبغي المركب السريع.

وإذا بالقرآن يجيبه بوضوح: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ [البَقَرَة:٢٨٢]، إنها التقوى توصلك إلى هذا الفقه.

اتق الله، تأتك الإلهامات الربانية، والخواطر الرحمانية، من دون أن تحتاج إلى مكتبة ضخمة.

والله، سبحانه، لا يفتح لك باب فقه الدعوة لتنهل ما لم يجد عندك ما أراده من شروط، أو بعبارة يقولها الشيخ القدوة الداعية عبد القادر الكيلاني ألطف وأبلغ من عباراتنا هذه: «همك ما أهمك.. خواطرك من جنس همك».

ما يعمل خاطر الحق عز وجل، ولا يجيء إلا إلى قلب خال عما سواه، كما قال: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يُوسُف:٧٩].

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٢٤)، ٢٤ رمضان ١٣٩٣هـ/ ٣١ أكتوبر ١٩٧٣م، ص٢٠.

إذا كان الله عز وجل وذكره عندك فلا جرم يمتلئ قلبك من قربه، وتهرب خواطر الشيطان والهوى»[1].

وهو هنا قد استعمل نوعًا من المجاز البلاغي لا بأس به، إن شاء الله، وإنما يعاب المجاز إذا صرف آيات صفات الله عن معناها الظاهر.

دموع.. على الربوع الخالية:

ولكن العمل قرين التقوى، والمعاناة اليومية للعمل التجميعي والتربوي هي التي تفتح باب الفقه التجريبي الصحيح.

ولذلك كان خير ما يعمله الذي يريد أن ينصف نفسه ولا يغبنها، ويحرص على فقه الدعوة، أن يدعو الناس إلى مثل ما هو عليه من الخير.

وإذا انغمس في الدعاية حقيقة فلن تجده إلا أشعث أغبر، لكثرة التجوال.

وفي أثناء تجواله سيمر بقرى، أو محلات أو مجرد مجموعة بيوت يتوسطها مسجد، فلا يرى في بعضها أثر دعوة ولا دعاة، وتأخذه الغيرة، فتنحدر دمعاته بصمت وسكون على خديه.

يسأل صاحبه عن دموعه، فيجيب لسان الصدق أن: كلما أبصرت ربعًا خاليًا فاضت دموعي، فهذه الدموع علامة قرب توارد الفقه عليه.

ولقد أدركنا، والله، رهطًا من الدعاة كان منظرهم يربينا أكثر من قولهم.

نرى أحدهم نظيف الثياب والحذاء، فإذا هو بعد ساعة أشعث أغبر، من كثرة تجواله على قدميه وذهابه إلى بيوت من يُسمعهم كلمة الحق، ونرى يده ترتعش وهو الشاب من طول ما أتعبها في مصالح المسلمين، ونراه يلبس المرقوع، ويأكل

(١) الفتح الرباني، ص٢١٣.

المفضول، وهو صاحب الدخل الحسن، لكثرة ما أنفق في سبيل الله، وما بذله من نفقة لتغطية ضيافته وتحركه اليومي ومواساة الضعفاء من أصحابه، فكان بعدُ إذا نطق سمعنا منه كل يوم جديدًا لم نره -ولن نراه- في الكتب، وتكون الدقائق الخمس التي يتكلم لنا فيها أنفع لنا من مطالعة مجلد.

في الشباب ضمانة:

ومثلما كان في التدرج ومراعاة التناسب بين المقدرة التربوية والعملية التجميعية ضمانة اتزان التوسع، فإن في الحرص على عنصر الشباب ضمانة رسوخ وثبات للدعوة، فتتولد ضمانة أخرى لذاك الاتزان متمثلة في صلابة القاعدة، وإنما يعتمد اتزان كل شيء على قاعدته وحجمه.

من هنا كان تخير الشباب والبدء معهم سمة واجبة لصاحب الدمعة، لا يصدنه عنهم الذين يستصغرونه، فإن الجهال هذا شأنهم تجاه دعاة الإسلام كل حين، وليس في هذا العصر فقط.

وقديمًا، كان للمحدث الثقة الإمام سليمان الأعمش ﷺ ولع بتربية الأحداث الناشئة والشباب، وكان يعتقد ما نعتقد من الضمانة فيهم، فدخل عليه ساذج ممن حبسوا أنفسهم مع فقه الفروع وبعدوا عن فقه الدعوة فرآه يتوسطهم في مسجد الكوفة، فقال: «هؤلاء الغلمان حولك!»؛ أي قالها استصغارًا لهم، وإنكارًا عليه أن يجلس معهم وهو الشيخ الوقور.

فقال الأعمش: «اسكت، هؤلاء يحفظون عليك أمر دينك»[1].

(١) حلية الأولياء (٥/ ٥٢).

وصدق ﷺ، ومن يتأمل في حال الإسلام اليوم، وجهل أبنائه، وعجز علمائه، يدرك أنه ليس غير الشباب يحفظ أمر الدين الآن، دين الحياة والحكم لا دين المناظرات والبحوث.

وقبل الأعمش الذي توفي سنة ١٤٨هـ كان لأمير المحدثين وأعلم من ظهر في جميع طبقات المحدثين محمد بن شهاب الزهري الذي توفي سنة ١٢٤هـ وعي أيضًا لدور الشباب الفعال في حياة الأمة، فكان يجمعهم ويوصيهم فيقول: «لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب ﷺ، كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الشبان فاستشارهم، يبتغي حدة عقولهم[١].

كان هؤلاء الأئمة على قرب من عهد الفتوح، وخالطوا أجيال الجهاد الأولى، وأجيال الذين بنوا وأرسوا قواعد الجهاز الإداري للدولة الإسلامية الأولى، وأخذوا عنهم الوعي الصحيح.

واستمر مثل هذا الوعي في القرن الذي تلاهم، ولذلك نجد الكثير من مثل عمل وقول السري السقطي الزاهد البغدادي حين جمع ابن أخته الجنيد وأقرانه من شباب بغداد فخطب بهم فقال: «أنا لكم عبرة يا معشر الشباب، اعملوا فإن العمل في الشبوبية»[٢].

فمثله ما كان من أمر الزاهد الكوفي الثقة محمد بن كناسة، فإن الولع عنده تجاوز مجرد الكلام العابر حتى بات يعتني بوضع الأناشيد الإسلامية التربوية للناشئة الإسلامية، في نظم متين وأبيات من غرر الشعر العربي كنشيد «الصلاة» اللطيف حين

(١) المرجع السابق (٣٦٤/ ٣)
(٢) المرجع السابق (٢١١/ ٨).

يقول فيه:

ينبيك عن عيب الفتى تـــــرك الصلاة أو الخدين

فإذا تهـــــاون بالصلاة فما له فـــــي الناس دين

ويُزن ذو الحدث المريب بمـــــا يزن به القرين

إن العفيـــــف إذا تكنَّفه المريـــــب هو الظنين[1]

واستمرت هذه العناية بالشباب في القرون التي تلت القرون الفاضلة الأولى أيضًا، فكان لعبد الكريم بن هوازن القشيري الزاهد، صاحب الرسالة القشيرية، عناية مذكورة، وعاد فوضع نشيدًا ثانيًا في «الصلاة» هو بدوره من عيون الشعر، ويقول فيه:

جنبانـــــي المجون يـــــا صاحبيا واتلوا ســـــورة الـــــصلاة عليا

قد أجبنا لزاجـــــر العقل طوعًا وتركنـــــا حديث ســـــلمى وميًا

ومنحنا لموجب الشـــــرع نشرًا وشـــــرعنا لموجـــــب اللهو طيًا

إن مـــــن يهتدي لقطـــــع هواه فهو في العز حـــــاز أوج الثريا[2]

ويستجيش آخر حماسهم لحفظ القرآن، فضرب لهم مثلًا أعلى في نموذج من الدعاة الشباب يصفه فيقول:

درس القران لخمس عشرة حجة ولِداتُـــــه عن ذاك في إشـــــغال

قعدت بهم هماتهم وســـــمت به همم الدعاة وسَـــــورة الأبطال

وفي كل هذا معنى آخر يجب انتباه الدعاة الذين يربون الناشئة إليه، وهو وجوب حجب الناشئ عن غير ذكر الصلاة، وتعلم الأدعية، وحفظ القرآن والحديث الصحيح

(١) الأغاني (٣٤٣/ ١٣)، يزن أي يتهم، والظنين هو المتهم.
(٢) طبقات الشافعية للسبكي (١٦٢/ ٥).

وأوليات التوحيد، وإلا فإن قلبه يقسو.

إن من أخطر الأخطاء أن تدع الناشئ المسلم يدندن في السياسة، والخلافات الفقهية، وتفاصيل أنظمة الإسلام الاقتصادية والسياسية، قبل أن يتضح له المعنى العقائدي، وقبل أن يترتب قلبه بالتوحيد وذكر الله والعبادة وتلاوة القرآن.

إن هذه الأخطاء إذا تورط فيها المربي أو التلميذ في بداية العملية التربوية فإنها تؤثر تأثيرًا واسعًا على مستقبل التلميذ، وربما سببت له نكوصًا وسقوطًا في الطريق، أو أبقته ضعيفًا جامدًا قاسي القلب.

تخرج الحي من الميت:

والداعية صاحب الوعي إذا بشر ودعا فإنه لا يهمل أبناء المترفين، بل ولا أبناء الملاحدة، لوهم يتوهمه أنهم لا يهتدون، فإنا لا ندري أيهم أقرب نفعًا للدعوة من هؤلاء الشباب، والله، سبحانه، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ورب متواضع زاهد أبوه مترف ماجن، في يومنا هذا، وفي العصور الحالية.

هذا «جوان بن عمر بن أبي ربيعة»، لبث أبوه يتغزل ويشبب بالنساء في شعره ليس له غير ذلك، حتى إنه كان ليتعرض بهن في المسجد الحرام، لكن جوانا هذا نشأ على النقيض من أبيه، وكان فتى صالحًا عفيفًا متدينًا زاهدًا من أصحاب العبادة والأمانة، حتى كان أهل مكة يأتونه ليحكم بينهم، ويعافون قضاة الدولة[1].

وبالمقابل، نرى سفهاء من أبناء الصالحين، مثل الشاعر المعروف الأحوص واسمه عبد الله، وهو ابن محمد بن عبدالله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري، جده عاصم من الصحابة رضي الله عنه، وقتل يوم الرجيع شهيدا مع خبيب بن عدي

(١) الأغاني (١/ ٦٩)

الذي يقول: ولست أبالي حين أقتل مسلمًا.

وعاصم هذا هو الذي أقسمت امرأة من قريش أن تشرب الخمر بقحف رأسه لقتله أهلها في معركة، فأقسم هو أن لا يمسه المشركون حيًا أو ميتًا، فلما قتل حماه الله بالزنابير تلدغ من يمد يده إلى جثته، حتى مطرت السماء وجاء سيل أخذ جثته الزكية فدفنها ولم يعثروا عليها، وكانت زوجته هي أخت حنظلة الغسيل ﷺ، الذي استشهد يوم أحد وهو جنب، فرأى النبي، ﷺ الملائكة تغسله، هؤلاء الكرام خلفوا الأحوص الذي كان يوصف بالسفاهة ويتهم بأمور قبيحة منكرة، وله شعر فخر فيه بأجداده وتعالى بهم على النبي ﷺ مما يوجب الكفر والعياذ بالله[1].

فكم من الأمثلة من مثل جوان والأحوص.

إنه لا قاعدة عامة في الهداية.

وإنما هو التوفيق:

وحَّد قس بن ساعدة وما رأى النبي ﷺ، ونافق ابن سلول وقد صلى معه.

وسيق تابوت موسى إلى بيت فرعون، فجاء طفل منفرد عن أم، إلى امرأة خالية عن ولد.

ودخل الرسول ﷺ بيت يهودي يعود ابنه، فقال له: أسلم، فنظر المريض إلى أبيه فقال: أجب أبا القاسم، فأسلم وهو ينازع الموت، فنجا في آخر لحظة.

وانقلب عمر ليفتك بأخته، فلما دنا من الصفا صفا.

لما عم نور النبوة الآفاق، رآه سلمان ﷺ من خلف الصحاري، وحجب عن

(١) المرجع السابق (٢٣٤/ ٤).

عمه وبعض عشيرته.

فسبحان من أعطى ومنع، فإن سُلَّم التوفيق قريب المراقي، وبئر الخذلان بلا قعر»[1].



(١) المدهش لابن الجوزي، ص٣٠٤، مع حذف وتصرف.

استغلال الظاهرة التربوية[1]

«فعل من حكيم في ألف رجل أنفع من موعظة ألف رجل في رجل، وإنما هي مصادفات القلوب من حيث صفاء القلوب عندما يطرقها من واردات الغيوب من المسموعات والمنظورات، فإذا اتفقت قويت، وإذا اختلفت وتضادت ضعفت، إلا لأهل الاستقامة والصدق والكمال، فإنهم قد جاوزوا ذلك، وسقطت عنهم رؤية التمييز، فلا يتغيرون، ولكن ربما تجدد لهم أذكارهم بما يسمعون، وتصفو لهم المشاهدات وقتًا بعد وقت، وذلك زيادة صفاء تجدد لهم عند سماع الحكمة» (أبو عثمان الحيري).

ظاهرة التأثير التربوي:

من الحقائق السارية التي ظهرت منذ بداية الحياة الاجتماعية الإنسانية ويغفل عنها البعض؛ أن التقليد والمحاكاة من صفات الإنسان الاجتماعي، وأنه قابل للتأثر بغيره تأثرًا لا يشعر به، حتى إذا بلغ التأثر حدًا في الكثافة كبيرًا تحول إلى عقيدة وفكرة ومفهوم ثابت، ينقل المتأثر إلى مرحلة تمحيص عقلي لما عند الغير، فيزداد أخذًا لما يوافق عقيدته المتكونة، ويرفض ويعاف ما يضادها.

إن «السمع» و«البصر» هما الأداتان الرئيستان اللتان يتم بهما هذا التأثير اللاشعوري، فالشخص يسمع شيئًا، ويتكرر لديه هذا السماع، فينشغل في التفكير بما سمعه، حتى يأخذ عليه تفكيره وقتًا يزداد كلما زاد السماع، وعن طريق دوام التفكير بما سمعه تتحول الأفكار المسموعة إلى عقائد ذاتية عند الشخص يعتنقها ويحملها، وغالبًا

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٢٦)، ١٦ شوال ١٣٩٢هـ/ ٢١ نوفمبر ١٩٧٢م، ص٢٩-٣١.

ما يصل هذا الاعتناق إلى التعبير عنها بنفس المصطلحات والكلمات التي سمعها.

ومثل التأثير السمعي: التأثر البصري، فإن الشخص إذا رأى شيئًا من المناظر، وتكررت عليه مشاهدتها؛ انشغل تفكيره بها، وصار ميالًا إلى تقليدها ومحاكاتها.

وفي هذا التأثير تستوي المناظر الحسنة أو الكلام الحسن مع المناظر القبيحة والكلام القبيح إذا وَزنَّا الحسن والقبح بميزان الإسلام؛ يستوي الخير والشر في قدرتهما على التأثير في المقابل، لأن النفس الإنسانية بَذَر الله فيها، كما قال في كتابه العزيز: كلا المعدنين، وألهمها الفجور والتقوى معًا.

وهذا التقرير هو الذي يفسر استمرار المجتمعات المختلفة في المحافظة على عقائدها، فليس هو الاجتهاد المحض يقود سكان أوروبا إلى اعتناق النصرانية، فيتواطأ الجميع على الوصول إلى نتيجة واحدة، وإنما هو التأثر من اللاحق بالسابق، وليس هو الاجتهاد الذي يقود سكان الهند إلى عبادة البقر، ولا هو الذي يقود الزنوج إلى عبادة الأصنام والأشباح، إنما هو تأثر السمع والبصر.

إن التأثير اللاشعوري العفوي يسبق التأثر الشعوري الإرادي عند الشخص، ويظل ملازمًا له حتى عند ظهور إمكانية التأثر الإرادي عنده، ذلك أن الأول يبدأ منذ الطفولة، بينما الثاني، وهو الإرادي المبني على نتائج محاكمات عقلية عند الشخص، لا يكون إلا من بعد حيازته بعض الأفكار التي يجعلها أساسًا لوزن ما يسمع وما يرى بها، ويكون قد حازها بتأثر لاشعوري سابق.

وإلى هذا أشار رسول الله، ﷺ، حين قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه، كما تنتجون البهيمة، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟»[1].

(١) صحيح البخاري (٨/ ١٥٣).

وقال النبي ﷺ أيضًا: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[1]؛ وهذا يعني أن الشخص الذي وصل إلى درجة حيازة أفكار وعقائد معينة وانتقل إلى مرحلة التأثر الإرادي، بإمكانه أن يوجه الكلام والمناظر العملية باتجاه معين يوافق أفكاره وعقائده، كي يسمع كلامه ويري مناظره من لا زال في مرحلة التأثير اللاشعوري، فيتأثر بها ويقلدها.

إن هذه العملية في توجيه الكلام والمناظر باتجاه معين واحد يعضد فكرة وعقيدة معينتين تسمى عملية «التربية».

إذن، فإن بإمكان أي شخص ذكي لبق إذا اعتنق فكرة معينة وتلبس بعقيدة خاصة ومفهوم خاص عن الحياة أن يكون «قائدًا» و«يربي» الآخرين عن طريق دعوتهم بالكلام إلى مشاركته الرأي وحمل عقيدته، فيشرح عقيدته، ويمدحها، وينقد غيرها، ويريهم بعض المشاهد العملية التي تترجم فيها مفاهيمه إلى وقائع محسوسة بالبصر.

هذا هو الغالب في الحياة البشرية، ولكن الله سبحانه حين خلق، آدم عليه السلام، علمه التوحيد وجعله نبيًا، وبعث في أجيال أبنائه أنبياء آخرين، وبذلك صارت عقيدة التوحيد الإسلامية محل تربية، فمنهم من قدَّر اللهُ أن لا يرى ولا يسمع غير حملتها وكلامهم فأسلم ووحد، ومنهم من ضل عنها بإغواء الشيطان ووسوسته الخفية التي لا ترى، وصار يربي غيره وفق ضلاله، وساعده الشيطان ثانية فأضل معه جمهرة، ومنهم من نشأ في هذه الجمهرة الضالة، لا يرى ولا يسمع غير ما يصدر عن دعاتها، ولكن الله سبحانه يقذف في قلبه من المعاني ما هو أقوى من تأثير كلامهم ومناظر أفعالهم، فيهتدي ويوحد بمنحة من الهداية، هي دون النبوة، يختص بها بعضًا دون بعض لحكمة نجهلها نحن، فالاستثناء دائر في هذا العدد الذي يختصه الله سبحانه

(١) رواه أبو داود، والترمذي، فيما ذكر منصور علي ناصف في التاج الجامع للأصول (٧٤).

بمنحة الهداية، ويبقى ما قلناه من تأثير الكلام والمنظر ساريًا في الآخرين، وخير هذا التأثير وشره إنما يسري بقدر الله تعالى، فإن كان الكلام والمنظر يدعوان إلى التوحيد والإسلام وأثَّرا في البعض فبقدر الله كان هذا التأثير، ولكن المتكلم كان سببًا لظهور قدر الخير هذا، وفق قانون التأثير الساري في الحياة الاجتماعية الذي قلناه، ومن ضل فبقدر الله ضل، واكتسبوا ضلالهم وفق قانون التأثير أيضًا في الصورة الظاهرة، وإن كان الله سبحانه قد جعل إغواء الشيطان الخفي سببًا لا نراه. ونخلص من هذا كله إلى أن التحليل الإسلامي للهداية والضلال لا ينقض ما ندعيه من وجود التأثير التربوي، السمعي والبصري، في الحياة البشرية الجماعية، وأن هذا التأثير هو ستار القدرة الربانية الذي تتمثل به.

وعبّر أبو عثمان الحيري عن هذه القدرة الربانية التي تتقمص شكل التأثير التربوي المشاهد بأنها «واردات الغيوب من المسموعات والمنظورات»، وإنما القدر من الغيب الذي لا نعلمه، ولا يجوز الاتكال عليه.

فوجب إذن أن نجعل قانون التأثير التربوي المذكور طريقًا للعمل وميزانًا لتحليل الظواهر الاجتماعية، وحين أخبر النبي، ﷺ، بأن الله سبحانه قد كتب الهداية والضلال لكل واحد من قبلُ وكتب جزاءه سألوه: «ألا نتكل يا رسول الله؟ فقال: «لا، اعملوا ، فكل ميسر»[1]، وقال: «كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له»[2]، ومن العمل الذي يدخل في هذا الأمر النبوي الكريم: العمل بهذا القانون التربوي المبني على ظاهرة مشاهدة، تصاحب العيش الجماعي، فإنه من الواقع الملموس، وقد أشار النبي، ﷺ، إلى مثل هذه المعاني في قوله: «ما استخلف خليفة إلا له بطانتان، بطانة

(١) صحيح البخاري (٨/ ١٥٤).
(٢) المرجع السابق (٨/ ١٥٣).

تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله»[1]، فأقر أن التأثير موجود، ومثل هذا كثير، بل إنه لأمر بديهي، وإنما ذكرناه لغياب بعض البديهيات أحيانًا عن البعض.

عوامل القوة والضعف في التأثير التربوي:

إن قوة التأثير التربوي للكلام والمنظر وسرعة ظهوره في المقابل تخضع لمؤثرات عديدة، أهمها:

أ- نوع الصفات الطبيعية التي يملكها المربي، والتي خلقه الله عليها، كمدى الذكاء، والشجاعة، والصبر، والغضب، وكذا ما يتبع هذه الصفات، كاللباقة، وقوة الشخصية.

إن الذكي الصبور الشجاع اللبق الذي لا يغضب؛ أقدر على التربية من صاحب الذكاء القليل، الجبان الغضوب، الذي لا يصبر، وليست عنده لباقة، والأمر ظاهر.

ومثل هذا يصدق أيضًا على التلميذ، فهو أسرع إلى التأثر عند وجود هذه الصفات.

ولكن تتبع أحوال المجتمعات واستقراء مستويات رجالها يرينا أن أصحاب الصفات الطبيعية الجيدة أقل بكثير من أصحاب الصفات المفضلة، وهذا يعني بالتالي أن المربين القادة أقل بكثير من أصحاب قابلية التأثر.

وكأن هذا المعنى هو الذي أشار إليه النبي، ﷺ، حين قال: «تجدون الناس كأبل مائة، لا يجد الرجل فيها راحلة»[2]، والراحلة: القوية السهلة السريعة السير، وهي نادرة الوجود، فذكر شراح الحديث أن النبي، ﷺ، يشير بذلك إلى ندرة أصحاب المعدن الجيد.

(١) المرجع السابق (٨/ ١٥٦).

(٢) رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما، فيما ذكر صاحب التاج الجامع للأصول (٥/ ٦٤).

ب- وكذا تحكم سرعة التأثر وقوته تلك التربيات السابقة التي يصادفها التلميذ وخضع لها، والتي تخالف التربية الجديدة التي يراد له أن يتأثر بها، أي أن حيازة التلميذ لأفكار وعقائد معينة يجعل عملية تحويله وصرفه عنها إلى ما يناقضها عملية صعبة تستدعي قوة وكثافة في الكلام والمناظر أكثر من تلك التي أكسبته العقائد الأولى، فإن كان الأمر كذلك فأصعب منه وأندر أن يحدث رفض العقيدة الأولى تلقائيًا اعتمادًا على قوة التفكير والمحاكمات العقلية الذاتية، لدى صاحب العقيدة التي اعتنقها بتأثير لم يشعر به، ولا يحدث هذا التبدل الذاتي إلا عند أفراد قلائل جدًا، وإنما الغالب أن يكون الرفض من بعد خضوع جديد لتربية مضادة جديدة، والعكس صحيح أيضًا، فإن زيادة التربية في اتجاه معين تؤدي إلى زيادة اعتناق، وإن ثبات صاحب العقيدة المعينة على عقيدته إزاء ضغط تربوي جديد مخالف لها قليل أيضًا، وإلى هذا المعنى ذهب الحيري حين قال: «إذا اتفقت قويت، وإذا اختلفت وتضادت ضعفت، إلا لأهل الاستقامة والصدق» فأشار إلى أن الغالب هو القوة عند الاتفاق، وضعف التربية الأولى عند التضاد، وأن الاستثناء نادر، وعبر عنهم بأهل الاستقامة والصدق، لأنه يتحدث عن التربية الإسلامية.

جـ- وتؤثر الظروف الخارجية والفرص الحياتية التي تحيط التلميذ على مدى تأثره وسرعته، كالصحة والمرض، فالمريض منعزل لا يرى ولا يسمع إلا قليلًا، وكالفقر والغنى، فالفقير يساكن الفقراء، والغني يساكن الأغنياء، وكلاهما يحرم من سماع كلام الآخر ورؤية مناظر أفعاله، أو قد يلهي الفقير ما قد يبذله من مجهود مهني عن السماع الكثير، بينما فرص المشافهة والمناطقة لدى الغني أكثر، كذلك الحزن والفرح، فإن نفس الإنسان تتأثر إذا خولفت نزعاتها الطبيعية الغريزية، فتحزن إذا لم تشبع غرائزها، وتفرح عند إشباعها، وأكثر ما تكون استعدادًا للتربية العقيدية عند

الفرح، وأبعد ما تكون عند الحزن، وعندما يشاكل الحزن، من السأم والملل والخوف.

هذه هي أهم المؤثرات، ولذلك كان الناس على درجات في التأثر.

اختراعات تربوية:

أثناء الاستخدام التربوي للكلام والمنظر واستغلال قادة التربية لتأثيرها وجدوا أن الكلام أصناف، وأنهم يمكنهم تحويره بشكل ما والتفنن في صياغته ليوافق نزعة حب الجمال الأصيلة في الإنسان، وبذلك صار الانفتاح لاستخدام «الأدب»، وسخروا البلاغة النثرية والشعرية في شرح الأفكار والعقائد، بكل ما في البلاغة من إيجاز وإطناب وتشبيه وجناس، وبكل ما في الشعر من تعدد الأوزان، ليوافق كلامُهم أيَّ طور تكون عليه نزعة حب الجمال عند الأفراد، ولا تلائم كل الأذواق، ثم صاغوا الكثير من أدبهم الفكري في صورة ألحان تزيد التأثير.

ولما رأوا في البعض نزعة أخرى للتمحيص والموازنة مبعثها الشك الذي يكاد أن يكون من الأخلاق الطبيعية في الإنسان، لجأوا إلى استخدام «المنطق» ليقدموا الكلام بشكل متناسق بريء من العيوب الظاهرة، كي يبدد الشك.

ثم وضعوا «الاصطلاحات» ذات المدلول المعين لزيادة مدى التفهيم، واستخدموا «التاريخ» لزيادة الإقناع عن طريق ضرب الوقائع السابقة كأمثلة على صدق أفكارهم.

وهكذا صار «الأدب» و«المنطق» و«اللغة الاصطلاحية» و«التاريخ» من آلات التربية.

قد لا يكون المربون هم الذين اخترعوها، إلا أنه من المسلّم به أنها وضعت في الاستخدام التربوي منذ القدم.

اختلاط التربيات:

إن العمليات التربوية ليست عمليات ميكانيكية، إذ لم تبدأ في وقت واحد خلال هذا التاريخ البشري، ولم ينطلق المربون في لحظات واحدة كما ينطلق المتسابقون في ساحة السباق ليجربوا جهودهم التربوية لمعرفة الأقدر منهم على إقناع الآخرين، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإنه، في الغالب، ما من مرب يستطيع أن يحجز كل وقت تلاميذه ليربيهم، وإن ضرورات الحياة وطلب العيش تجعل التلميذ أعجز من أن يهب لقائده ومربيه كل وقته.

فمن هاتين الناحيتين وجدت ظاهرة «اختلاط التربيات»، وصار المجتمع خليطًا عجيبًا من أشخاص تتنازعهم تربيات عديدة، فإن الدرجات العديدة التي عليها أصحاب كل وجهة تربوية بحسب مدى السماع والرؤية، والدرجات المتعددة التي عليها أولئك الذين تتنازع التربية الجديدة عندهم مع التربية القديمة، كل ذلك جعل المجتمع، وكان لكل عضو فيه تربية خاصة معينة، أو أن أصحاب السمت الواحد هم عدد قليل.

ولا شك أن هذه الظاهرة في اختلاط التربيات تحد كثيرًا من تأثير الجهود التربوية، ولذلك لجأ المربون إلى علاج هذه الظاهرة ووضع الحلول لها.

من هذه الحلول: «التخصص» في استخدام آلات التربية، لعدم استطاعة القوة البشرية عند الفرد البراعة في استخدامها كلها، وهكذا ظهر في جماعة المربين الناثرون البلغاء، والشعراء، والمؤرخون، والممثلون المسرحيون، والمغنون، وغيرهم؛ طلبًا للبراعة والإتقان.

ومن هذه الحلول: «التربيات المرحلية»، فقد وجدوا أنهم بحاجة، بسبب من انتصار إحدى التربيات المخالفة وطغيانها على غيرها، إلى أن يركزوا على مجال واحد يكون أكثر تأثيرًا في إبطال مفعول التربية المنتصرة، أو يكون أضمن لاستمرار التلاميذ في صراعهم مع التربية المنتصرة الغالبة ويمدهم بقوة تثبيت.

ومن هذه الحلول: «التركيز على المظهر العملي»، لما وجدوه من زيادة تأثيره على تأثير الكلام، وقد ورد في القرآن والسيرة ما يشير نوع إشارة إلى أن المشاهدة أبلغ في التربية من الكلام المجرد.

قال ابن القيم: «بين الخبر والعيان فرق، وفي المسند مرفوعًا: ليس الخبر كالعيان، ولهذا لما أخبر الله موسى أنه قد فتن قومه، وأن السامري أضلهم: لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح ما حصل له عند مشاهدة ذلك»[1].

ومثله طلب إبراهيم عليه السلام اطمئنان القلب بالمنظر حين قال (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) (البقرة: ٢٦٠).

وقريب من هذا ما ورد في السيرة أن رسول الله، ﷺ، لما فرغ من كتابة هدنة الحديبية مع موفد المشركين سهيل بن عمرو، قال لأصحابه: «قوموا فانحروا واحلقوا وحلوا- أي من الأحرام حين نووا العمرة-، فلم يجبه أحد إلى ذلك، فردها ثلاث مرات، فلم يفعلوا- أي لشدة حزنهم لما رأوا في ظاهر شروط الهدنة ضيمًا للمسلمين-، فدخل على أم سلمة ﵂ وهو شديد الغضب، فاضطجع، فقالت: مالك يا رسول الله؟ مرارًا، وهو لا يجيبها، ثم قال: عجبًا يا أم سلمة! إني قلت للناس: انحروا واحلقوا وحلوا مرارًا، فلم يجبني أحد من الناس إلى ذلك، وهم يسمعون

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٣٨) وذكر محمد ناصر الدين الألباني صحة حديث مسند الإمام أحمد الوارد في كلام ابن القيم، وفي شرح العقيدة الطحاوية (٣١٥) مثل هذا المعنى.

كلامي وينظرون في وجهي! فقالت: يا رسول الله: انطلق أنت إلى هديك فانحره، فإنهم سيقتدون بك، فاضطبع بثوبه- أي أدخله تحت إبطه الأيمن وغطى به الأيسر- وخرج، فأخذ بالحربة ويمم هديه، وأهوى بالحربة على البدنة رافعًا صوته: بسم الله والله أكبر، ونحر، فتواثب المسلمون إلى الهدى، وازدحموا عليه ينحرونه حتى كاد بعضهم يقع على بعض»[1].

هذا هو التحليل البسيط للظاهرة التربوية بعيدًا عن المصطلحات المعقدة التي يستعملها الذين يحللونها اليوم، وتحليلنا هو الذي ينسجم مع نظرة الإسلام إلى الفرد العقائدي كقوة يمكنها تغيير مجرى الحياة متى استعمل الطريقة التربوية ونظر إلى كل أفراد المجتمع على أنهم تلاميذ له.

إن كل المحاولات الإسلامية التي غيرت مجرى التاريخ أو عدلته وقومته بدأت بفرد واحد، فإبراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد، وكل الرسل، صلى الله عليهم وسلم، بدأوا أفرادًا، وعن طريق التأثير التربوي آمن بهم البعض، فعاونوهم، فتوسع التأثير حتى غيروا مجرى الحياة، وخبر المصلحين المسلمين المجددين من بعد الأنبياء مشهور مستفيض.

وكذلك كل المحاولات غير الإسلامية.

فأصحاب البدع في التاريخ الإسلامي بدأوا أفرادًا ثم انتهوا إلى تكوين طوائف واسعة، وماركس وهتلر، كل منهما بدأ فردًا واستعمل التأثير التربوي؛ فكوّن حزبًا واستلم الحزب السلطة فتغير مجرى التاريخ، ولا مغير إلا الله، ولا من حركة في هذا الكون إلا بإذنه، وكذلك هرتزل ووايزمن وأصحابهما، بدأوا أفرادًا، واستغلوا التأثير التربوي المزدوج في اليهود وشعوب العالم أجمع؛ فتغير مجرى تاريخ اليهود.

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ٢٩٩).

والمبشرون النصارى في لبنان في نهاية القرن التاسع عشر، وأساتذة الجامعة الأميركية بدأوا أفرادًا، واستعملوا التأثير التربوي وتركيز المشاعر القومية؛ فغيروا مجرى حياة العرب من الإسلام إلى القومية. وكل تربية، حين تصل إلى السلطة، تعضد تربيتها بحجب الفكر المخالف لها عن تلاميذها أفراد المجتمع الذين تحكمهم، لينشأ الجيل الجديد في سماع ورؤية لكلام ومناظر التربية المتسلطة الحزبية الآن والدكتاتوريات.

وهكذا يتضح المنطلق التربوي للحركة الإسلامية الحاضرة، فإن انطلاقتنا انطلاقة تربوية غايتها التأثير في الناس عن طريق السمع والبصر.

وهكذا يتضح أن المعركة التي نخوضها هي معركة تربوية أولًا وآخرًا.

خضوع التخطيط الحركي للحقيقة التربوية:

إن هذا التحليل لظاهرة التربية مفيد جدًا للعاملين في الحركة الإسلامية، ذلك أنه يمكننا بواسطته تفسير كل المشاكل التي نلاقيها في العمل الحركي، ويتيح لنا التعرف على أصولها، ووضع الحلول لها، كما سنرى في مقال آخر.

ويكفي هنا أن نقرر وجوب التربية المرحلية في الخطة الحركية استمدادًا من هذه الحقيقة وتبعًا للتربيات المضادة التي تجابه الإسلام اليوم، وإذا جمدت الخطة على الأصول التي وضعها الرعيل الأول من الدعاة فإنه سيفوتنا خير كثير، وتهدر جهود كثيرة.

ومن هذه الحقائق أيضًا نستمد وجوب اعتماد الحركة في عملها على جهاز متكامل الاختصاصات يمهر في وضع «النثر البليغ» و«الشعر الفصيح» و«علم التاريخ» و«أسلوب الاستدلال العلمي» في خدمة عقيدة التوحيد وأحكام الإسلام،

ومخطئ من يرى غير ذلك.

ويظن أن البعد عن ذلك من سمت البساطة الإسلامي، وأثر الإعجاز القرآني البليغ يفضحه.

وظاهرة اختلاط التربيات تلح على الحركة أيضًا أن تصنع مجتمعًا خاصًا للجدد والناشئة يستهلك أوقاتهم كلها ويضمن ابتعادهم عن التلبس بتأثير تربوي جاهلي.

وفضل المنظر والفعل على الكلام في التأثير يحدو بالدعاة إلى الإسراع في سيرهم إلى الحكم الإسلامي، ليرى الناس تطبيقًا يجذبهم ويفضح تخبط الجاهليات وهدرها لمصالح الأفراد والمجتمعات وعجزها عن كفالة ضرورياتهم.

الانتقاء يقي المصارع[1]

من أول المعاني التي نستمدها من الدراسة التحليلية للظاهرة التربوية، أن «الإنسان العقائدي» هو من تمكنت منه مفاهيم معينة، واستولت عليه، واستمد أقواله وتصرفاته جميعًا منها ووفقها.

فالاقتناع لا يسمى عقيدة، ما لم يكن مستمرًا، وإنما يسمى «ميلًا وقتيًا» أو «تقليدًا»، فإن كان عارمًا شديدًا، ولم يكن مستمرًا، سمي «فورة».

وشتان ما بين سلوك العقائدي وسلوك الفائر.

العقائدي له موازين محددة، يزن ويقيس ويمحص ويستنتج قبل أن يخطو.

والفائر يغضب ويندفع، ويسرع ويستعجل، فيتورط.

ولهذه الصفات الفردية، أصداء وانعكاسات في المجموع، فالمجموع يندفع اندفاعات عفوية بإلحاح من أعضائه، فتبدد القوى، ويكون الفشل.

إنه الاندفاع العفوي الذي يسير فيه المجموع بلا خطة، أو بخطة لا تلائم الواقع وبلا هدف، أو بهدف غير مركز ولا واضح، وتتحمل الأماني والمثاليات والأحلام، لجعله هدفًا.

وهذا وصف مرعب في الحركات، يرغمها على التفتيش عن حلول تقي مصارع العفوية.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٢٧)، ٢٣ شوال ١٣٩٢ه/ ٢٨ نوفمبر ١٩٧٢م، ص٢٦-٢٨.

صعود الثقات رأس الوقاية:

وأول الحلول يتمثل في تواصي قادة الحركة وجنودها، بسمت من التشدد في تسليم مراكز التوجيه داخل الحركة، وتأمين صعود الثقات إليها، من أصحاب الإيمان والعلم والعمل.

لقد رأينا في تحليلنا للتربية، أنها ما كانت موجهة من عناصر لها أهلية القيادة، وتوجيه المسموع والمنظور وجهة معينة، ولا تتوفر هذه الأهلية إلا أن يكمن خلفها تصوير صادق العقيدة والمفاهيم، فإن اعترى هذا التصوير تعكير وغبش، فقد فات الركن الأساسي في التربية، ولم تعد تربية.

كذلك، فإن صعود الثقات إلى مراكز التوجيه، هو الذي سيؤمن وضوح الأهداف البعيدة في أذهان المخلصين، الفائرين من جنود الدعوة، الجدد الذين لم تعركهم التجارب، وهو الذي سيؤمن تفسير السياسات المرحلية لهم، وإيضاح تبريراتها، وفي كل هذا مساهمة أكيدة في التأمين ضد الاندفاع المستعجل، وضد الاندفاع غير الهادف.

والداعية حين ينظر الحالة الراهنة، للحركات الإسلامية المنبثة في العالم الإسلامي، وحين يرجع إلى تاريخها، تتجلى أمامه عظم رعاية الله سبحانه لها في اختيار قادتها، فليس فيهم إلا إمام له قدم راسخ في العلم والصدق والإخلاص، لكن قد تجد لهم نوع تساهل في اختيار الأعوان، دفعوا ثمنه غاليًا في انشقاقات وفتن، أو في مواقف لينة، وكان ذلك من تمام العناية الربانية أيضًا، فإنهم من خلال التساهل تعلموا التشدد، ومن معاناة التعامل مع الضعفاء، تعلموا الحرص على الانتقاء، وليس مثل العلم التجريبي.

تجاربٌ أبدلتني غيرُ ما خُلُقي
وتوسِعُ المرءَ أبدالًا تَجارِبُهُ[1]

ومنه نوع ما هو بتساهل، ولكنه ضرب من المجازفة في الاعتماد على السذج، الذين ينقصهم أسلوب العصر ويعوزهم الوعي السياسي، حتى لكأن الدعوة تئن من كثرة أخطائهم، وتنادي: تطاولَ همِّي، فابغني ذا نباهةٍ[2].

وإنه لهم طويل، يعرفه ويميزه المنغمس في العمل اليومي الحركي، فإنَّ تعقد المجتمع الحاضر، وتعدد الأحزاب ونشاطها، والتخطيط اليهودي الماسوني داخل أقطار العالم الإسلامي، كل ذلك يتطلب نوعًا من الدعاة المسلمين، يزيدون على إيمانهم وإخلاصهم وعلمهم الشرعي، نوعًا من الوعي السياسي، والخبرة بالأساليب التنظيمية، والمهارة في التخطيط المتزن، الملائم للواقع الذي نعيشه، والمناسب للقوة التي نملكها، وهؤلاء هم وحدهم أصحاب النباهة الذين يبددون هموم الدعوة.

لا نفصل بين الإدارة والتربية

وباطل ظن من يتوهم عدم وجوب شرط القدوة، لمن يشتغل في مراكز الدعوة التي ليس فيها توجيه تربوي مباشر، فالبعض يفصل بين المربين من الدعاة، وغيرهم ممن ينفذون الأعمال التي يتطلبها شمول الدعوة، لكن تحليل الظاهرة التربوية ينفي ذلك، فإنهم جزء مرئي من هذه الدعوة يقلده الجدد والأنصار، ولسان ناطق يسمعه هؤلاء فيتأثرون به، ولذلك لم يفهم فصل وظيفة رجل الدولة الإسلامية، عن التعليم والتربية، وكانوا يرون أنه رجل تربية أيضًا.

قال ابن تيمية ﵀ في شرح معنى «كونوا ربانيين»: «قال مجاهد: هم الذين

(١) للبحتري في ديوانه (١/ ٢٢٦).
(٢) شطر من خريدة القصر (١/ ٢٥٨) القسم العراقي.

يربون الناس، بصغار العلم قبل كباره، فهم أهل الأمر والنهي».

قال: «وذلك هو المنقول عن السلف في الرباني، نقل عن علي قال: هم الذين يغذون الناس بالحكمة، ويربونهم عليها.

وعن ابن عباس قال: هم الفقهاء المعلمون، قلت: أهل الأمر والنهي هم الفقهاء المعلمون.

وقال قتادة وعطاء: هم الفقهاء العلماء الحكماء.

قال ابن قتيبة: وأحدهم رباني، وهم العلماء المعلمون».

ثم ختم فقال إنهم: «منسوبون إلى التربية»[1].

وإذن، فإن جميع من يساهم في أعمال الدعوة، إنما هو قدوة يحتمل تأثيرها، ويجب أن يحوز شرط القدوة العملية.

دقة مركز القدوة:

ومركز القدوة حساس دقيق جدًا، ويجب ألّا يوضع فيه إلا من كان مستعدًا للأخذ بالعزيمة، والبعد عن الرخص، يغلب عليه الجد والزهد والتجرد، ويشتاق إلى التعب والبذل، لأنه إمام لمن حوله يقلدونه، ولا بد أن يكون فعله أبلغ، في التعبير عن عقيدته، ومعاني دعوته من قوله، لأن المنظر أعظم تأثيرًا من القول.

ومن ها هنا، لما هم إمام مصر الليث بن سعد، بفعل مفضول ينافي العزيمة قال له إمام المدينة يحيى بن سعيد الأنصاري:

«لا تفعل، فإنك إمام منظور إليك»[2].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ٦٣).
(٢) تهذيب التهذيب (٨/ ٤٦٣).

ويقول أبو عمر السلمي: «من لم تهذبك رؤيته، فاعلم أنه غير مهذب»[١].

ومن لم ينعشك عبيره على بعد، فاعلم أنه لا طيب فيه، ولا تكلف لشمه.

والداعية الصادق تستمر هيبته الإيمانية في تعاظم، وتظل في تصاعد ما تصاعدت هيبته لله تعالى، وتعاظمت اهتمامات قلبه بدعوته، حتى يغدو منظره قاطعًا لغفلة ناظره.

وقال الشافعي: «من وعظ أخاه بفعله كان هاديًا»[٢].

وكان عبد الواحد بن زياد يقول: «ما بلغ الحسن البصري إلى ما بلغ، إلا لكونه إذا أمر الناس بشيء، يكون أسبقهم إليه، وإذا نهاهم عن شيء يكون أبعدهم منه»[٣].

ويقول السهروردي: «للمريد بلقاء كل صادق مزيد، وقد ينفعه لحظ الرجال، كما ينفعه لفظ الرجال، وقد قيل: من لا ينفعك لحظه، لم ينفعك لفظه».

ثم شرح هذا المعنى اللطيف فقال: «إن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله، أكثر مما يتكلم بلسان قوله، فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه في مورده ومصدره، وخلوته وجلوته، وكلامه وسكوته، ينتفع بالنظر إليه، فهو نفع اللحظ. ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا، فلفظه أيضًا لا ينفع، لأنه يتكلم بهواه، ونورانية القول على قدر نورانية القلب، ونورانية القلب بحسب الاستقامة، والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها»[٤].

وهذا من جيد الكلام، وصاحبه غير المبتدع المشهور قتيل حلب.

ومثله من كلام التابعين قال شهر بن حوشب: «إذا حدث الرجل القوم، فإن حديثه يقع من قلوبهم موقعه من قلبه»[٥].

(١) طبقات الشمراني (١/ ١٠٣).
(٢) المرجع السابق (١/ ٤٤).
(٣) تنبيه المفترين للشعراني.
(٤) عوارف المعارف الملحق بإحياء علوم الدين (٥/ ٨٧).
(٥) حلية الأولياء (٦/ ٦٢).

وقول مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه، زلت موعظته عن القلوب، كما تزل القطرة عن الصفا»[1]؛ أي قطرة الندى عن الصخرة الملساء.

ويروى أنه قيل لعيسى عليه السلام: «من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالم، إذا زل العالم، زل بزلته عالم كثير»[2].

فلكل هذا، كان من فقه الدعوة دقة اختيار من يكون قدوة، ولا تساهل في الأمر، ولا نخدع أنفسنا، فنبرر التساهل تجاه البعض بعدم تسميتهم قدوات، وبوصف مهمتهم بغير وصف التربية، فإن كل من يتعامل مع الدعاة، إنما هو قدوة لهم، من حيث إمكانية رؤيته وسماع قوله، ووجود تأثر السمع به، فإن انضاف لذلك، إيحاء وصف الداعية بأنه من المربين، زاد التأثير ولا شك، وتفتحت القلوب لقبول كلامه ومواعظه، فإن عضدها فعله فنعمت المواعظ منه، وإن لم تترجمها حياته اليومية معهم إلى أفعال، فإنها لا تعدو أن تكون هذرًا منفرًا.

«إن الموعظة إن لم تتأد في أسلوبها الحي، كانت بالباطل أشبه، وإنه لا يغير النفس إلى النفس التي فيها قوة التحويل والتغيير، كنفوس الأنبياء ومن كان في طريقة روحهم، وإن هذه الصناعة إنما هي وضع نور البصيرة في الكلام، لا وضع القياس والحجة، وإن الرجل الزاهد الصحيح الزهد إنما هو حياة تلبسها الحقيقة، لتكون به شيئًا في الحياة والعمل، لا شيئًا في القول والتوهم، فيكون إلهامها فيه كحرارة النار في النار، من واتاها أحسها.

ولعمري، كم من فقيه يقول للناس: هذا حرام، فلا يزيد الحرام إلا ظهورًا وانكشافًا.

(١) المرجع السابق (٦/ ٢٨٨).
(٢) كتاب الزهد لابن المبارك، ص٥٢٠.

ما دام لا ينطق إلا نطق الكتب، ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع، وقد خلا من القوة التي تجعله روحًا تتعلق الأرواح بها، وتضعه بين الناس في موضع، يكون به في اعتبارهم، كأنه آت من الجنة منذ قريب، راجع إليها بعد قريب.

والفقيه الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس، ولا يجعل همه إلا زيادة الرزق بالمال وشهوات النفس، ولا يجعل همه إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا، هو الفقيه الفاسد الصورة في خيال الناس، يفهمهم أول شيء ألا يفهموا عنه»[1].

وبإيجاز: إن «الأسوة وحدها هي علم الحياة»[2].

ودعوتنا هي الحياة.

فالأسوة وحدها هي علم الدعوة.

وعلم الدعوة كله هو الأسوة الصادقة.

اختبر عليم اللسان!

ولو تفحصنا مدى تطبيق هذا العلم المهم، لوجدنا ثغرات كبيرة في تاريخ الحركات الإسلامية الحديثة، كان يحصل فيها انخداع بالخطباء، وأصحاب الشهادات العالية، والمشاهير، ويدفعون إلى الصدارة من دون طويل تجريب لهم، وتقع الدعوة في ورطة ربطهم باسمها، ولا يلبث المعدن الضعيف أن يفضح نفسه، أثناء ترغيب أو ترهيب أو سياسة حركية تقتضي فقهًا لفهمها، فيكون النكوص.

إن الإيمان، وفقه الدعوة، وشدة الانغماس في العمل التجميعي والتربوي، ووضوح الطاعة، هي المحكمات التي يجب أن تتحكم في عملية الانتقاء والتأمير، لا شروط الوظائف الحكومية وأعراف المجامع الأدبية.

(١) للرافعي في وحي القلم (٢/ ٢٠١).
(٢) المرجع السابق (٢/ ١١١).

بل إن على الدعاة أن يجفلوا ويخافوا، ويحذروا مَن يكون عليمَ اللسان، الذي يكثر التشدق، ويتكلف اختيار الفصيح، فإن النفاق والضعف يكثر في هذا الصنف، ويجب أن لا يطمئن الداعية إلى أحد بهذه الصفة، إلا من بعد أن يضمر في نفسه امتحانه، فيراقبه مراقبة دقيقة مدة، ويكون توثيقه له من بعد تجربة، ومن بعد رؤية قرائن إيمانه وصدقه.

وللداعية في ذلك سلف، فإن عمر بن الخطاب ﷺ لما خاف الأحنف بن قيس ﷺ -وكان الأحنف متكلمًا لبقًا داهية- أبقاه عمر معه في المدينة سنة يراقبه، ثم قال له: «يا أحنف، قد بلوتك وخبرتك فلم أر إلا خيرًا، ورأيت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك، فإنا كنا نتحدث: إنما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم.

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد، فأدنِ الأحنف بن قيس وشاوره واسمع منه»[1].

وكم يحيط بالدعوة في العالم الإسلامي اليوم، من رجال يجب على قادة الدعاة امتحانهم، وكم هي حاجة الدعاة إلى مثل علم عمر.

كم من المتكلمين بالإسلام ترى الدعاية ترفعه، فإذا عاملته وجدته مصلحيًا جاف القلب والروح.

وحقًا قال عبد الوهاب عزام:

إن في النـــاس أوجهًا لامعات تملأ العيـــن زهـــرة ورواء

ويراهـــا البصير صـــورة زهر لم تهبها الحياة عطـــرًا وماء[2]

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٩٤).

(٢) ديوان المثاني، ص٨١.

ولمثل هذا دأب السلف الصالح على كثرة التوصية، بضرورة مثل هذا الاختبار كقول سيد التابعين الحسن البصري: «اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا قولهم، فإن الله لم يدع قولًا، إلا جعل عليه دليلًا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولًا حسنًا فرويدًا بصاحبه، فإن وافق قوله عمله فنعم، ونعمة عين، فآخه، وأحببه، وأوده، وإن خالف قولًا وعملًا، فماذا يشبه عليك منه، أو ماذا يخفى عليك منه؟ وإياك وإياه، لا يخدعنك»[1].

إنها الوصية القديمة، ولكن القلوب تغفل، وشهوة الوصول السريع، أو شهوة التكاثر بالأنصار، تلهي، وتدعو إلى التجاوز عن العلم الموروث.

البدعة ضعف أيضاً:

وضعف الضعيف يكون من بدعة كما يكون من ذنب، وهذا ما تعارف عليه العلماء منذ القدم، حتى إنهم كانوا ليهجرون الأخ الشقيق إذا اعتقد ببدعة، مثل علي بن حرب بن محمد الموصلي، هجر أخاه أحمد بسبب قوله، إن لفظه بالقرآن مخلوق مع ثقته وصدقه[2].

ومع سلامة قوله هذا، واشتهاره عن البخاري أيضًا، ولكنه أنكر عليه لقرب العهد من بدعة خلق القرآن، وأرادوا ألّا يدندن أحد بما يقرب من ألفاظ المعتزلة ويزيد حيرة العامة.

ولكن أدعياء وحدة الأمة في هذا العصر، يدعون إلى التجاوز عن معاني البدع، وسرى هذا الوهم إلى بعض الدعاة، وأسقطوا أمر البدعة كعامل من عوامل التمييز، فوقعوا في الخطأ.

إنه خلق جميل أن تعطف على المبتدع، وأن تنصره على كافر، وترفع الظلم عنه،

(١) الزهد لابن المبارك، ص٦، الموافقات للشاطبي (١/ ٣٠).
(٢) تهذيب التهذيب (١/ ٢٣).

وتقف معه في وجه من هو أكثر بدعة منه، لكنه أمر خطر أن تفتح له صفوف الدعوة قبل توبته، وأن تؤمره قبل سلامته، وأن تحبه قبل غسله الأدران التي علقت بعقيدته، فإنه ما أوهى أمر الأمة إلا البدع، كما قال الفضيل بن عياض: «من أعان صاحب بدعة، فقد أعان على هدم الإسلام»، وقال «من أحب صاحب بدعة، أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه»(١).

إن الدعوة للأخذ بيد المذنب والعاصي، في معاملاته وتصرفاته السلوكية، إذا كان أصل الإيمان في نفسه قائمًا أهون بكثير من التعاون مع المبتدعة مع تمسكهم ببدعهم، والمذنب أقل ضررًا من المبتدع من وجوه، منها: «أن المذنب إنما ضرره على نفسه، وأما المبتدع فضرره على الناس».

وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة.

والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم، يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك.

والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله، والمذنب ليس كذلك.

والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ، والعاصي ليس كذلك.

والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه»(٢).

استر سمعة الإسلام:

فقد بان إذن أن التشدد في الانتقاء، هو الحل الأساسي للتأمين ضد الاندفاعات العفوية، وأن أجزاء الحركة الإسلامية، مدعوة إلى الاستدراك السريع في هذا المجال.

بل الحق أن الانتقال إلى هذا التشدد ستر واجب لسمعة الإسلام اليوم، كما قال

(١) حلية الأولياء (٨/ ١٠٣).

(٢) الجواب الكافي لابن القيم، ص١٢٧.

الفقيه الزاهد، الوزير العباسي ابن هبيرة الدوري لبعض من يأمر بالمعروف:

«اجتهد أن تستر العصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب»[1].

ومن أهم أوصاف الستر الذي يطلبه ابن هبيرة، أن تحرم أعداء الإسلام، من فرصة الإشارة إلى مثل هؤلاء الضعفاء، والتشهير بالدعوة من جراء تصديهم لأمورها، وكلما دفعت التقي النقي إلى الظهور، دون الضعيف والمصلحي والمبتدع، كنت أكثر صونًا لسمعة الإسلام.

بل ينبغي ما هو أشد من هذا، فإنه من الواجب على الثقة، أن يفوت الفرصة على الضعيف، إذا جالسه بقصد أن يقال: جالسه الثقة فلان من الدعاة فهو ثقة، وأنه لو لم يكن ثقة لما جالسه.

وكأنه شبيه بهذا ما أخرجه الترمذي، عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «كان اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ، يرجون أن يقول لهم: يرحمكم الله. فيقول: يهديكم الله ويصلح بالكم»[2].

فلو قال لهم: يرحمكم الله، لقالوا للمسلمين: لو كنا ضالين، لما دعا لنا بالرحمة.

هذا وبالله التوفيق.

والمعصوم، من عصمه الله.

وإلى مقالة أخرى، نتلمس فيها وقاية أخرى من خلال الظاهرة التربوية، تقي مصارع العفوية غير الهادفة.

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٢٧٤).
(٢) سنن الترمذي (١٠/ ١٩٨).

تركيز.. لا تكاثر![1]

إن مشاهدة الفسق تهون أمر المعصية على القلب، وتبطل نفرة القلب عنها. (الإمام الغزالي).

من الغايات الرئيسة التي وضعتها هذه البحوث نصب عينيها: تزويد الداعية الناشئ بمعظم ما يمكن أن يوصف بأنه من فقه الدعوة، من كلام القدماء والمحدثين، المبثوث في كتب التراث والمؤلفات الحديثة، بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من نصوص وتعابير هذا الفقه، أو ما يرقق قلوب الدعاة، إلا أحصيناها وأثبتناها وشرحناها وعقبنا عليها وضممناها إلى مثيلاتها، بمقدار ما تسمح به الظروف، دونما تكرار يكون فيه الملل، ولا حذف يحصل به الخلل، في محاولة لوضع مجموع متكامل بيد كل داعية مسلم يغنيه في سنيه الأولى عن تعب استقراء هذه الفوائد في الكتب الكثيرة، ويمده بمادة جاهزة لتفقيه نفسه وتربيـة تلامذته من الناشئة الإسلامية، ويزوده بطاقة من الحماس والروحانية تثبته وأصحابه أمام المغريات والمرعبات.

وهذا الحرص على الجمع الشامل المستقصي اضطرنا إلى أن نقرب الكثير من كتب زهدية أو أدبية أو تاريخية خلطت واضطربت ودلست، طمعاً في نقول نافعة وإشارات رائعة لم نظفر بها إلا فيها، ومن قلة الأمانة أن نستمد منها دون الإشارة إليها مع التزامنا الإشارة إلى غيرها.

لكن بعض إخوتنا الكرام ممن شغف هذه البحوث حبًّا وحرص على الاستزادة، ظن أن في ذكر هذه الكتب ورجوعنا إليها تزكية مطلقة لها، وربما حرص على اقتنائها

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٢٨)، ٣٠ شوال ١٣٩٢هـ/ ٥ ديسمبر ١٩٧٢م، ص٢٨-٢٩.

طلبًا لمثل ما ننقل عنها، وليس الأمر كذلك، ولا قصدناه، ولا نوصي به، فإن في مثل «حلية الأولياء» و«علم القلوب» و«عوارف المعارف» و«اللمع»، وكتب الحارث المحاسبي والشعراني من التخليط والأقوال الضعيفة وتحبيذ ما لا يعرف عن السلف الأول شيئًا كثيرًا، وإنما هي فوائد مبثوثة في صفحاتها نلتقطها باعتناء وحذر، ومثل ذلك يصدق على «الأغاني»، وأنه حوى شعر بعض الصحابة والصالحين، وأورد من الفوائد ما لا تجده في غيره، لكنه أكثر من إيراد شعر المجون، وشوه تاريخ أناس من النبلاء والأمراء والخلفاء.

فلا يكونن اعتمادنا على هذه الكتب مسوغًا لاعتقاد الداعية صلاحها المطلق والمسارعة إلى مطالعتها، بل يكفيه أن يتجول بحرية كاملة في الصحيحين ومؤلفات ابن تيمية وابن القيم، وابن الجوزي، وفي رسائل الإمام البنا وبحوث المودودي وسيد وغيرهم من قادة الدعوة أصحاب النهج السليم، وله لفظ جميل في دواوين إقبال وعزام ووليد يغنيه عن غيرها، إن شاء الله تعالى.

ألهاكم التكاثر بالأمس.. فاتزنوا غدًا!

كان في تدقيق الانتقاء ما يعصم من قواصم العفوية، وتكمن العاصمة الثانية في تجميع متناسب مع جهود المربين، بحيث يمكن إسماعهم جميعًا الكلام الموجه، بتركيز مؤثر، ومنع التأثيرات الخارجية عنهم، ولا شك في صعوبة هذا الحل الثاني.

ويقصد بالصعوبة: صعوبة «السيطرة» على الرغبات النفسية الأصيلة في كل إنسان في حب «الثراء» في كل شيء، مما أشار إليها القرآن الكريم بإجمال في قوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التَّكَاثُر:١].

فالإنسان يحب الثراء الكمي العددي، في المال، والعلوم، والبنين، والأنصار، وفي كل شيء، وهي نزعة أو غريزة لا يمكن السيطرة عليها إلا بالتربية العميقة.

وخطورة إهمالها تتأتى من أن إشباع الغريزة يؤدي إلى حصول «النشوة» في الإنسان، والنشوة حالة من حالات النفس تؤثر على العقل تأثيرًا سلبيًّا، فتجعله في ركود.

إن النشوة ضد الخوف، وفي النفس الإنسانية يقترن الاطمئنان مع النشوة، والحذر مع الخوف، والمعروف أن العقل أقصى ما يكون تحفزًا واشتغالًا وشحذًا في حالة الحذر.

ومن هنا تصاحب النشوة اندفاعات غير مدروسة، يشترك فيها الجميع، القادة وتلاميذهم، لأن الإحساس بالثراء يولد الاطمئنان وإيحاءات الضمان.

إن هذا التقرير يؤكد ما قلناه من صعوبة المعركة التي تخوضها الدعوة، فإن ميدان المعركة هو النفس الإنسانية بكل تعقيداتها ومتناقضاتها.

أنت لا تتعامل مع أحجار صلدة، ولا مع أصحاب طهر ملائكي.

أنت تعيش وتتعامل مع نفس إنسانية، فيها الغرائز: غرائز حب البقاء، وحب التكاثر والثراء، وإشباع الشهوات الجنسية. وفيها النزعات: نزعات الثأر، والحذر، والدفاع عن عقيدتها وحب شيوعها.

والمجتمع الذي أمامك هو مجموع هذه الغرائز والنزعات والميول والرغبات، فإن لم تعرف المداخل والأبواب التي تدخل منها إلى هذا المجموع من الغرائز والنزعات المسمى بـ «المجتمع» فإن الفشل يصيبك حتمًا، وإذا غالطت نفسك وتجاهلت هذه الغرائز والنزعات فلن يضير وجودها شيء، وأنت تضار.

ستبقى هي لأنها وجدت -بإذن الله- لتبقى، أما أنت فستزول وتخونك حساباتك وتقديراتك؛ لأنك خالفت الفطرة.

إن النفس الإنسانية هي ميدان كل هذه الانقلابات الاجتماعية والسياسية الكثيرة المتواصلة التي يحدثنا عنها التاريخ القديم والحديث.

اندفاع وراء إشباع البطون، أو إشباع الشهوة الجنسية، أو طلب الترف.

اندفاع ثأر ممن سلبها أرضها أو نساءها.

اندفاع وراء إشاعة عقيدة اعتقدها، أو محاربة من يخالف هذه العقيدة، بالمفهوم الواسع للعقيدة، من مثل وقيم، حقة أو باطلة.

إنها اندفاعات مادية ومعنوية، قد تجتمع وقد تنفرد، هؤلاء هم البشر.

إن بعضهم قد وجد في نفسه المقدرة على توجيه الآخرين نحو قسم من هذه التصرفات التي تساعد عليها الغرائز والفطر، فسمينا عمله هذا «تربية».

إن معارك السياسة والحروب صورة لمعارك النفس.

وإذن، فإن معركتنا معركة تربوية، أي أنها تقوى وتشتد كلما تعمقت التربية وأتقن المربي عمله، وتخبو جذوتها كلما فترت التربية وكانت سطحية.

أي أن الجهود التربوية لعدد محدود من القادة المربين إذا تركزت على التلاميذ فإنها تكون أعمق تأثيرًا فيهم كلما قل عددهم، بتناسب طردي، وتفتر ويقل تأثيرها كلما زاد عددهم.

ومع هبوط كمية التأثير يحصل الاندفاع العفوي غير الهادف، ثم القاصمة والمصرع.

وإذن، فإن من صالح معركتنا ألا يندفع الصنف القيادي المتولي لعملية التربية في تجميع عدد من التلاميذ أكبر مما تكفي له جهودهم التربوية.

وهذا هو الحل الثاني للوقاية من مصارع العفوية يمليه تحليل الظاهرة التربوية.

ولقد شهد تاريخ الحركة الإسلامية بالأمس القريب تكاثرًا بالعدد على حساب النوعية أرهق وألهى، وأجبر دعاة اليوم على الاتعاظ، وما اتزان التوسع إلا وصية الغد.

نقول: إنها وصية الغد، لما رأينا من نسيانها، وإلا فإنها الوصية القديمة للإمام البنا ﷺ، شدد عليها منذ سنة ١٩٣٨م في انعقاد المؤتمر الخامس، في صورة توضح أصناف الرجال أمام أعباء العمل، وعدم إغناء الخيال من الصواب شيئًا، وإنما هي «الصفوة» فحسب، كما سماها الإمام واستعارها السيد من بعد، تحمل أعباء الجهاد.

يقول: «أريد أن أكون معكم صريحًا للغاية، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة: إن ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ.

يسهل على كثير أن يتخيلوا، ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطاع تصويره أقوالًا باللسان، وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا، ولكن قليلين من هذا يثبتون عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملوا، ولكن قليلًا منهم يقدرون على حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل العنيف، وهؤلاء المجاهدون، وهم الصفوة القلائل من الأنصار، قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله، وفي قصة طالوت بيان لما أقول.

فأعدوا أنفسكم، وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة، والاختبار الدقيق، وامتحنوها بالعمل، العمل القوي البغيض لديها، الشاق عليها، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها»[1].

وورث سيد ﷺ، هذا الفقه، فجعله قلقًا قبيل وفاته إزاء ما يرى في السودان من التوسع وامتلاء الشوارع بمظاهرات المسلمين، فأوصى من زاره من دعاة الإسلام في السودان، فقال:

(١) المجموعة، المؤتمر الخامس، ص٢٥٨.

«يجب ألا يشغلكم إقبال الجماهير من تنظيم صفوفكم الداخلية وإعداد رجال يواجهون الشدائد ويثبتون»[1].

والحقيقة أن أهمية الصف الداخلي المتين لا تنحصر في معطيات صفته التنظيمية وسهولة استغلال طاقاته المنسقة، بل في تحقيقه «المجتمع التربوي» الذي يحتضن الجديد المتربي ويريه زيادة المناظر الإسلامية ويحجب عنه رؤية الجاهلية والجاهليين وسماع أقوالهم، فيبعد عن التأثر بتربية أخرى غير إسلامية، ولمثل هذا أوجب الغزالي رحمه الله، المسارعة إلى كبت الفسق وحجبه لئلا يؤثر منظره في نفوس المسلمين، وقال: «إن مشاهدة الفسق تهون أمر المعصية على القلب، وتبطل نفرة القلب عنها»[2].

وهذا يعني أيضًا أن بقاء بعض الفسق -بمعناه الشرعي- عالقًا بالأشخاص الذين نجمعهم، لعجز كفاياتنا وطاقاتنا التربوية التوجيهية عن إزالته عنهم وتحويلهم عنه لكثرة عددهم، سوف يؤدي إلى احتمال سريان عدواه إلى العناصر النظيفة، لما في العيش الجماعي من المشاهدة التي تؤدي إلى التقليد.

وعلى ذلك، فإن جولات الداعية الضرورية بين الجماهير العامة مثلما تؤدي إلى إغناء الدعوة بالعناصر الجديدة التي يكتشفها، فإنها تؤدي أيضًا إلى احتمال تهوين أمر المعصية على قلبه، إذا انقطع إليهم انقطاعًا طويلًا، لكثرة المعاصي في حياة العامة، فوجب تردده على مجتمع الدعاة الصافي ليرى من مناظر الإيمان ما يضاد مناظر الفسق، ويكون جائلًا بين هذا المجتمع العام، وبين هذا المجتمع الخاص الذي يرقق قلبه، وهذا ما يؤدي بالتالي إلى الحرص على نقاوة هذا المجتمع الخاص ليؤدي مهمته التربوية هذه لكل داعية متجول بين العامة حين يفيء إليه، والنقاوة لا تحصل إلا باتزان التوسع.

فكما أن التوسع السريع يستهلك الطاقة الحاضرة، فإنه يضعف الناتج القديم.

(١) كتاب «الشهيد سيد قطب»، ص٩١.
(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ١٧٢).

نجاح يتأخر.. لا جهد يهدر:

وتضيق الأرض بمتحمسة الدعاة حين نلح في بيان اتزان التوسع في وقت طال فيه المسير، ويرون أن هناك ثمة فشل يصيب الدعوة إن تخلت عن سباق العدد.

ولا ننكر أن أخطاء الماضي قد حرمت الدعوة في أماكن متعددة من العالم الإسلامي من فرص توسع وانبثاث مأمون في محيط مستعد لتقبل الكلمة، وأن أحزاب الضلال قد استغلت برود دعاة الإسلام فتقدمت بمراحل عليهم، ولكن الخطأ لا يستدرك بمثله، وتقييم فشل الدعوة ونجاحها في حقبة معينة لا يعتمد على إحصاء من استطاعت نقلهم من محيط الجاهلية إلى صفوفها، ذلك أن الدعوة طالما كانت سببًا في هداية الآلاف من الشباب وعصمتهم من الفجور والزيغ وإن لم يدخلوا صفوفها، لأسباب مختلفة، وهذا في ميزان الإسلام عظيم، وطالما كانت الدعوة كالواحة في وسط الصحراء الموحشة المقفرة حين تأوي إليها جموع المسافرين فينعمون بظلها ومائها ويأنسون بأهلها، وكثير عدد أولئك الشباب الذين احتضنتهم الدعوة في مراهقتهم، واجتازت بهم فترة الشباب بسلام، ورفلوا في ظلها، وأنسوا بأهلها، وإن أقعدهم الترغيب والترهيب عن مواصلة السير معها.

وكم نقلت الدعوة شاكًّا إلى اليقين، ومؤمنًا جاهلًا إلى العلم، وهذا في الميزان الشرعي عظيم.

وكم أوضحت الدعوة من شبهة، وردت من تهمة، وأشادت بمناقب مظلوم، وكل ذلك في الميزان عظيم.

وإذن، فإننا يجب ألا ننظر بالمنظار القاتم الذي يولد اليأس في نفوس العاملين، فإن الدعوة لم تفشل، وينتظر من عمل فيها أجر مدخر كبير، إن شاء الله، مثلما ينتظرهم جني ثمار كثيرة زرعوا بذورها بالأمس.

إن أناسًا كثيرين، بتأثير عمل الدعاة الماضي والحاضر، تحتدم في نفوسهم معاني الإيمان والجاهلية، وهم الآن في صراع نفسي داخلي عنيف غير منظـور.. أيؤمنون ويقرون بما يقول دعاة الإسلام أم يبقون على ما هم عليه؟

وهؤلاء مصيرهم إلى الإيمان حتمًا حين يتضح الحق أمامهم اتضاحًا كافيًا، في حادثة تهزهم هزًّا، وتخضهم خضًّا، فيتمحضون، وينخرق حجاب الران عن القلب، فيصل إليه النور.

تمامًا كالإسلام المفاجئ المأثور عن بعض الصحابة، ﷺ، كعمر حين دنا من الصفا، فسمع أخته تتلو القرآن، فصفا، أو حمزة حين رجع من الصيد، فسمع كلام المؤامرة على رسول الله، ﷺ، فآمن وكسر القيد.

هل يقال إن كل أسباب إيمانهم جاءتهم في لحظة واحدة؟

كلا، فإن معاني الإيمان كانت تحتدم في نفوسهم، وكان هناك صراع نفسي ظل يتنامى حتى فاض سيل الخير في تلك اللحظة.

ولئن حرصنا اليوم على عمق التربية، والاقتصار على الصفوة، واتزان التوسع، فلتغطية حاجة جحافل أهل الاحتدام هؤلاء يكون هذا الحرص، وإنهم لفي سير إلينا، وعما قريب يكون الوصول، والحادثة الهازة الخاضة خبيئة عند الله، يرحم الله بها الصابرين، ومن لا يؤمن بمثلها فهو بحاجة إلى نظر في السيرة والتاريخ جديد.

الانتشار المتأني[1]

كما يولِّد التساهلُ في الانتقاء، والتكاثر الذي يلهي عن التركيز، أنواعَ التورطِ والاندفاع العفوي غير الهادف، فإن حماس الدعاة في استدراك التقصير، والربا بنفوسهم أن يسبقهم الأرضيون والمنحرفون والملاحدة، والحرص على تغطية ميادين العمل الثقافي والسياسي التي يتم فيها توجيه الناس، كل ذلك قد يدعوهم وينقلهم إلى تقليد الأحزاب الكردية في خطط عملها بلا مراجعة للرصيد، ويقذفهم إلى مواجهة أهل الضلال في جميع الميادين والجبهات قبل الاستعداد الكافي، فيحصل «تشعب العمل»، و«توزع جهود ذوي الكفاية»، فيقل التأثير في كل الميادين، ويكون التعب والإرهاق المستنفد للطاقة، تمامًا كالذي يحدث في المعارك الحربية، فإن التاريخ الحربي يظهر نماذج كثيرة لقادة فقدوا دقة التخطيط الإستراتيجي، ففتحوا جبهات متعددة في آن واحد، وزعت قواتهم، ولم يصفوا أعداءهم واحدًا بعد الآخر، فكانت الهزيمة.

ولا تزال فنون التعبئة العسكرية توصي القادة بألا يطيلوا جبهة المعركة الواحدة، وأن يهاجموا بالعمق الذي يكفل تعدد وجبات الهجوم إن أخفق الهجوم الأول، ويضمنوا وجود الاحتياطي لدرء المفاجآت وحركات الالتفاف.

وليس قولنا هذا دعوة للراحة، فإن الراحة موت، ولا للبرود، فإن فيه الفوت، ولا لتحريم الاستفادة من فنون العمل التي برع فيها الجاهليون، فإن الأمر يسع الاقتباس ما لم يصادم نصًا شرعيًا أو عرفًا أخلاقيًا استحسنه المؤمنون، ولكننا ندعو إلى تقدير

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٢٨)، ٧ ذي القعدة ١٣٩٢هـ/ ١٢ ديسمبر ١٩٧٢م، ص٢٨-٢٩.

واقعي لطاقاتنا، وتركيز جهودنا، وتجزئة الاستدراك وتغطيـة المجالات حسب أهميتها، فإن الجهود المبكرة للكافر المستعمر في إنشاء الأحزاب أدى إلى أن تسبق الأحزاب الدعـوة الإسلامية، وساعد على ذلك حيرة المخلصين بعد إسقاط الخلافة العثمانية الشرعية، ولا يكون الاستدراك بطفرة، بل بسير موزون، ومن ثم كان «اتزان التوسع الميداني» قرين «اتزان التوسع العددي» في الوقاية من المصارع، وارتباط التأثير بكثافة المسموع والمنظور في الظاهرة التربوية يجب مراعاة هذه الكثافة المتناسبة مع سعة الميادين التي تتوزع عليها تناسبا عكسيا، والتي تكثف كلما قلت الميادين.

والتاريخ القريب يرينا وقوع بعض أجزاء الحركة الإسلامية في مثل هذا التوسع والشمول المستعجل، كرد فعل لكثافة الأحداث السياسية، والتنامي الحربي، ولجأ الدعاة إلى معركة الجاهليين في النقابات، والاتحادات المهنية، والنوادي الأدبية، وعموم المرافق الاجتماعية، في وقت كان عدد أصحاب الكفاية والدربة فيه قليلًا، وكان النظر المتزن يوصي بالإلحاح في التربية الداخلية، وتعميق الإيمان، وتمتين الصف بغرس معاني الطاعة والالتزام، قبل ولوج جولات التنافس.

إن الداعية الفقيه لا يستفزه تغلب الملحد القوي إن كان هو ضعيفًا، بل يكظم غيظه، ويصبر، ويبدأ يعمل في انتظام، ويطلب لرجله قبل الخطو موضعها من الأرض الصلبة.

التطوير ينطلق من المعاناة:

وحماس المتحمسة من الدعاة لا يثمر على إطلاقه، فإنه محكوم بالواقع في بعض جوانبه.

وأهم مظاهر هذا الواقع الآسر عن مماشاة الحماس وتنفيذ التمنيات: هو ضعف

بعض الدعاة وقصور مستوياتهم عن التمكن من مجاراة الآخرين، في مجابهة الجاهليين في جميع الميادين التي يطلقونها الآن، وإنه ليقتضي نوعًا من القدرة والصلابة لدى الدعاة يشير واقعنا إلى قلة من يتصف بها بالمستوى الذي يستطيع فيه أن يقود ويبتكر ويحرك ويستمر، ومن دون أن يتركز الثقل على عاتق أنفار معدودين من الدعاة.

إن النقطة التي يغفلها المتحمسة تتجلى في أن القسط الأعظم من فقه الانتقاء والتشدد المتولد عندهم، ومن صلابة النية والإصرار وعلو الهمة، إنما كونهما فيهم تفكير سنوات، وتفاعل قلبي عميق متواصل مع أخطاء الماضي، ومعاناة يومية لعمل طويل، ولا يمكن لفاقد هذا الفقه وهذه المعاناة أن يكون بمثل مستواهم عند التنفيذ.

إنها حقيقة واقعة، تنقل التخطيط عن المثاليات والارتجال إلى التدرج المتناسب مع الطاقة، ومن الخطأ أن تطلب سيرة صلبة واعية لدعاة ضعفاء، ومجرد الإلحاح عليهم لا يكفي إن لم يسبق بتربية.

التركيز على مصنع الثقات!

وهل رأيت الدول النامية كيف تركز حكوماتها على الصناعة الثقيلة في أول أمرها، لأنها مفتاح كل صناعة أخرى؟

كذلك نحن في أول أمرنا، ولما نزلْ في مرحلة تشبه أول الأمر لكثرة الأخطاء وعنف حرب الكافر وعملائه لنا.

يجب التركيز على مصنع الثقات الذي يربي الدعاة المسلحين بالإيمان والفقه الحركي وتكديسها..

جابهوا الكفر في ميدان إثر ميدان، ولا بد من أن ترصد الكفايات لخدمة الجهاز المربي للثقات وتمتينه وتقويته.

إن الفترة منذ بداية أي جزء من أجزاء الحركة الإسلامية في عمله إلى الأيام التي يقارب فيها القوى الجاهلية المحيطة به، يجب أن تكون فترة انتباه للتجميع والتربية والتفقيه.

وكلُّ فتحِ ميدانٍ جديد أو واجهة، أو تحول إلى الانغماس في المعترك السياسي كلية، فإن معناه حصول التصادم بين متطلبات الجهاز التربوي ومتطلبات الميادين الجديدة والنشاط السياسي، المتسبب من قلة أصحاب المقدرة والكفاية الذين يديمون تلبية هذه المتطلبات ويديرون الأجهزة المختلفة، ولا يسوغ في التخطيط أن تنفتح الدعوة انفتاحًا واسعًا في العمل قبل تأكدها من وجود ثقات بعدد كاف يديمون هذا الانفتاح، ويحولونه عن مجرد فورة سريعة ورد فعل لاستفزاز الجاهليين لنا.. وإن كان هذا لا يمنع من تدريب بعض الدعاة، وبعدد قليل، بالمشاركة في هذه الميادين عمليًا، ليكونوا روادا موجهين في أيام الانفتاح.

أهمية الوعي الحركي في التعجيل:

ولكن واقع الحركة الإسلامية يشير إلى إمكانية اختصار هذه الفترة اختصارًا كبيرًا، والتعجيل في الانفتاح المبتغى، بواسطة الإلحاح في نشر الفقه الحركي وترويجه وإيصاله إلى أصحاب الإخلاص الذين يعوزهم هذا الفقه، فإن الدعاة كثير عددهم في كل مكان، أو قل: من سلم زمام الدعوة والدعاة، ولكن هذا الفقه الحركي هو الذي ينقصهم، ولو علمناهم إتعاب الأنفس وإرهاقها، والصبر على سهر الليالي وحني الظهور لتدارس هذا الفقه لوعى منهم جيل كثير من أصحاب الاستعداد يسدون الشاغر ويحلون محل الضعيف.

إن من أبرز التقصيرات المأخوذة على الحركة الإسلامية في حقبتها الماضية:

تقصيرها في تدوين أولويات الوعي الحركي وفقه الدعوة، وإطنابها في شرح أنظمة الإسلام وجزئياته، حتى بتنا نرى هذا العدد الكبير الضخم من المنتسبين للدعوة دون أن يكون إنتاجهم وتغييرهم للواقع بالمستوى الذي يظنه من يراه لأول وهلة، لفوات فنون العمل وأصول العمل الجماعي عنهم، وإنما يبدأ الاستدراك من هذه الحقيقة.

الاستدراك بالتأليف في فقه الدعوة:

والاستدراك بجمع المتناثر الذي ألف فيه.

والاستدراك بالتفتيش عما تملكه أجزاء الحركة الأخرى منه.

والاستدراك بتنسيق تدريسه وتعويد الدعاة على أخذه مأخذ الجد لا في مطالعات عابرة.

ويجمع هذا: أن تعيد الحركة الإسلامية النظر في مناهجها الثقافية وطبائعها واتجاهاتها.

من أسباب فشل العمل الإسلامي في كثير من المواقع أنه غاب عن مراكز التأثير الحديثة وهي النقابات العمالية والاتحادات المهنية..

فتطور الحياة أدى إلى بروز هذه القوى التي يعتمد عليها الإنتاج.. وتنفيذ أي خطة.. وكان ينبغي تركيز العمل ابتداء في هذه المواقع قبل أن يحال أمر القطاع من فعالية وقدرة على التغيير.. وضروري لأنه من خلال الممارسة تكتسب التجربة.. ويستنبط دليل العمل الإيجابي.. «المجتمع».

الانتظار[1]

تحيتان من أعماق القلب أجد نفسي مضطراً إلى أن أهديهما إلى أستاذين فاضلين، فإن من خلق المسلم أن يعترف بالفضل لأهله، وألَّا يبخس المحسن حقه.

التحية الأولى: إلى الأستاذ الكريم الأفغاني بدمشق، لمقاله الجريء العدد (١٦٩) من مجلة العربي، الصادر في أول كانون الأول) سنة ١٩٧٢م بعنوان «سبب خلع السلطان عبد الحميد»، والذي استعان بوثيقة بخط السلطان نفسه كشف فيها النقاب عن سبب انقلاب حزب الاتحاد والترقي، وأرجع سبب الانقلاب إلى رفضه لإلحاح رجال الحزب في إنشاء وطن لليهود في فلسطين.

ومعنى ذلك أن إعلان الدستور ما هو إلا تمويه، ثم قال يدل ذلك على وعي كامل للتفسير الإسلامي لتاريخ الحقبة الأخيرة من الخلافة الإسلامية، وفيه من بيان وإيمان وذكاء السلطان عبد الحميد وتبديد الأوهام العالقة في أذهان الناس من مناهج تدريس التاريخ في البلاد الإسلامية.

ومن الأهمية البالغة للمقال في أنه أكد ما كان يقوله دعاة الإسلام ويتشكك غيرهم في صحته.

وواضح أن العلم بدور الصهيونية في إقصاء الخلافة الإسلامية يؤثر تأثيراً كبيرا في تكوين فقه الدعوة.

ولذلك مطالعة الدعاة لهذا المقال مفيدة وتعتبر مكملة لمطالعة هذه المقالات ي فقه الدعوة.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٣٠)، ١٤ ذي القعدة ١٣٩٢هـ/ ١٩ ديسمبر ١٩٧٢م، ص٢٨-٢٩.

التحية الثانية: إلى الأستاذ المؤرخ جميل بيهم بلبنان، وإن جاءت متأخرة، فمقال الأستاذ الأفغاني يوجبها، وذلك أن الأستاذ بيهم سبق له وأن نشر قبل ثلاث سنوات في مجلة الأسبوع العربي اللبنانية مقالين مهمين جداً عن السلطان عبد الحميد ﷺ، أعلن فيهما في شبه توبة سحب الاتهامات التي كالها للسلطان في أربعة كتب ألفها عن التاريخ العثماني، وبين وقوعه في الخطأ، وبراءة السلطان مما نسبه إليه تحت تأثير العواطف والدعاية، ولا شك أن الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه فضيلة كبرى توجب أن نكرر له التحية باسم دعاة الإسلام.

وللفائدة التي يحوزها الداعية المسلم من مطالعة مقالي الأستاذ بيهم، ولصعوبة الاطلاع عليهما، فإني، إن شاء الله تعالى، سأنشرهما في ذيل مقالات إحياء فقه الدعوة، إن جُمعت في كتاب ومعهما مقال الأستاذ الأفغاني.

ويطيب لي أن أبعث بتحية ثالثة إلى الأستاذ الدكتور مصطفى محمود، بمناسبة برنامجه الأسبوعي الناجح «العلم والإيمان» الذي يقدمه ليلة كل جمعة من التلفزيون الكويتي.

والحقيقة أني لم أشاهد برنامجه قبل، وإنما شاهدت منه الحلقتين الأخيرتين اللتين عرض فيهما أفلاما علمية حقيقية دقيقة من كريات الدم الحمراء وعن طريقة انتشار البذور النباتية، وفيهما رأيت من العجائب ما يزيد الإيمان حقاً بأن الله خالق كل شيء، وحركة وفعل في هذا الكون، وسمعت معهما من تعقيبات الدكتور الفاضل ما رقق قلبي، وأنصح كافة المسلمين أن يشاهدوا هذا البرنامج الرائع، وأحث دعاة الإسلام على دفع الناشئة الإسلامية لمشاهدته، والاشتراك معي في تحية الأستاذ مصطفى محمود، والدعاء له بأن يجزيه الله نعم الثواب.

الكتاب والبأس الشديد!

هو الحديد مكمل القرآن، كلام مقدس قاله الله تعالى، محكـــم غير متشابه، ماض غير منسوخ، أراده، عَزَّت إرادته، أن يكون للدعوة الإسلامية شعارا، ودستور عمل، ومعلم طريق، فجعله، جل وعلا، في آية تتلوها الملايين كل يوم، أن: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحَدِيد:٢٥].

فكل قلب أحكمت أقطاره ولم تتشابه، ومضت إلى الخير عزيمته ولم تنسخ، فهم هذه الآية فهم رسول الله ﷺ لها.

فهمها أبو بكر ﷺ، فكانت حروب الردة، وفهمها عمر الفاروق ﷺ، المشتق لقبه من أسماء السيف، فكان منه الإقرار لمن لوح له بالسيف أداة تقويم إن زاغ واتبع الهوى، وتواصت أجيال المسلمين بعدهما بهذا السلوك وتواصت بالقرآن، فبعدوا عن الخسران.

حتى إذا خسروا، وفق الله ابن تيمية ﷺ يتلو عليهم هذه الآية، ويفسرها.

ويقول لهم: ذكر تعالى أنه أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي، وسيف ينصر، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله، وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله.

ويؤكد لهم أنه: إذا ظهر العلم بالكتاب والسنة، وكان سيف تابع لذلك، كان أمر الإسلام قائمًا.

ارتقاء المدارج مع السالكين.. لا الطفرة:

ولكن الإمام البنا ﷺ أوجب الابتعاد عن التهور، وحذر المتحمسة الملحاحين، وعلمهم أن: «من خصائص هذه الدعوة كذلك: التدرج في الخطوات وانتظار الزمن وعدم التسرع بالنتائج فلكل أجل كتاب»[1].

وكرر عليهم: «أن الدعاة الفقهاء شعارهم في ذلك: الزمن جزء من العلاج»[2].

وبذلك حدد الإمام علاجًا رابعًا يحمي الدعوة من أنواع التورط والاندفاع غير الهادف ويقيها المصارع، وأطلق عليه اسم «الانتظار».

وهكذا، فإن من تمام واجب التربية الإسلامية الحركية في مرحلتها الحاضرة: غرس الاستعداد النفسي للانتظار الذي تكمل أثناءه صناعة الاختصاصات التي تتولى الانتشار والتوسع الميداني، ثم ما يتطلبه هذا الانتظار الإيجابي من الإقلال المرحلي في ولوج السياسة.

إننا نجد أنفسنا في الحقيقة -ما دمنا نبذل الجهود التربوية بتواصل- أثبت من أن نأبه لشيوع هذه الأفكار الأرضية المستوردة ونتقبل أخبار انتصارات هذه الأحزاب بشجاعة، فإنها ليست إلا من الانتصارات الوقتية غير المؤهلة للدوام، وستعصف بها جهودنا التربوية متى ما صدق عليها وصف التربية وخرجت عن حد الفورة والارتجال.

بل أبعد من ذلك، فلعلها حكمة الله في انتصار هذه الضلالات، لأنها عجزت عن صنع الواقع السعيد الذي وعدت الناس به ولم يبصروه من بعد ما سمعوه في مناهجهم، وعجزهم هذا معناه فشل لجهودهم التربوية، إنها لفضيحة كبرى تعيشها

(١) مجلة «الدعوة» المصرية، عدد (٦٧).
(٢) المرجع السابق.

الأنظمة الفاسدة والدكتاتوريات التي أرادت حرف الناس عن الإسلام، بل هي في وجهها الآخر اختصار لطريق دعاة الإسلام.

إنه الطريق التربوي: صعب طويل بطيء، يسبقنا فيه الأرضيون لوقت يسقط فيه بعضنا وتفوتنا بعض المغانم فيه.

لكنه طريق مأمون، ثابت، مضمون وقد يرى البعض أن هذا الطريق البطيء لا يُعوِّد الدعاة على التضحية، ويرى أننا نسقطها من حسابنا.

ولكن الأمر ليس كما رأى، فإن التضحية مطلوبة، ولكن في وقتها، ولا تؤتى مفتعلة، وخير الدعاة من بذر بذورها في نفوس إخوانه منذ الآن.

إنه طريق واحد أصيل لا ثاني له: طريق التربية التدريجي الذي أوجزه الأستاذ المرشد حسن الهضيبي بقوله: «أقيموا دولة الإسلام في صدوركم، تقم في أرضكم».

وخطواته: أن تشيع الوعي الإسلامي، وتجمع، وتربي، وتتوسع في اتزان، وتنتشر في تأن، وتنتظر حتى تكتمل الاختصاصات وترقب ضعف من تسلط زورا، وترفع يدك إلى الله داعيًا أن يرحم المسلمين، حتى يسقط رداؤك عن منكبيك، فإنّه إن سقط اعتليت.

تسبيح.. يشد الملك![1]

التربية الحركية للقاعدة الصلبة انتقاء وتجميع العناصر المتميزة بالذكاء والشجاعة من الشباب، ثم تربيتها تربية عميقة شاملة صلبة: ركنان أساسيان في الخطة الثابتة الدائمة للحركة الإسلامية، بل الخطة الجزئية للمرحلة الحاضرة.

وإنه، كما يقول الندوي: «لا بد من إنتاج الرجال الذين يقومون بالدعوة، ويديرون دفتها، ويربون الرجال، ويملؤون كل فراغ، وكل حركة أو دعوة أو مؤسسة مهما كانت قوية أو غنية في الرجال فإنها معرضة للخطر، وإنها لا تلبث أن ينقرض رجالها واحدًا إثر آخر، وتفلس في يوم من الأيام في الرجال»[2].

على الحركة أن تتفرس في نفسها.

ولكن هذه التربية ليست اكتيالا جزافًا، فإن أخص خصيصتها أنها تلبي نداء حاجة مرحلية، وتعالج واقعًا.

وفي كل أدب أرشد إليه الإسلام خير، ولكن طاقة ذي النية الصالحة محدودة، فوجب إقرار المفاضلة بين أجزاء هذا الخير، والبدء بما هو أفضل، وبما يسد حاجة المرحلة من بعد تشخيص للنقص.

ذلكم هو الذي يوجب من بعد أن تتفرس الحركة الإسلامية الحاضرة في نفسها فراسة خبرة، في خلوة تأمل، فتحدد نقصها، وتحصي رصيدها، ليأذن الله أن تصدق فراستها الأخرى في الناس، وتحكم طريقها في هذا الصراع العنيف، كما قال الزاهد

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٣١)، ٢١ ذي القعدة ١٩٣٢هـ/ ٢٦ ديسمبر ١٩٧٢م، ص٢٧.
(٢) مذكرات سائح في العالم العربي، ص٧٩.

الحكيم سمنون ﷺ حين سُئل عن الفراسة وحقيقتها فأجاب: «إن من تفرس في نفسه فعرفها صحت له الفراسة في غيره وأحكمها»[1].

وإنه لمعنى رفيع يكشف عنه سمنون في هذه الحروف القليلة، ويخلونا إياه، لنتخذه منطلقًا لفراسة نقدية نصف فيها أنفسنا ونحدد نقصنا، ثم تحويل الفراسة إلى دراسة نسلكها، بإذن الله، ينابيع في صفوف الدعاة، فيخرج بها دعاة، يصدقون بالصدق الذي جاءهم من ربهم، ويحفظون أمره، ويطوعون أنفسهم ويلينون عودهم.

ولقد شهد التاريخ القريب لأجزاء الحركة بعدًا عن الموازنة في أساليب التكوين والتربية وطغيانًا في جوانب على جوانب أخرى، فترى في منطقة غلبة الجانب التعبدي وتزكية النفس، وفي أخرى ترفًا فكريًا، وفي ثالثة ولعًا بالمشاركة في أحداث السياسية اليومية، فاختلفت الصياغات.

ومن حيثيات كثيرة يعرفها أهل المعاناة، بدأ يتضح الخط التربوي المتكامل الموزون المستدرك للنقص، وتحددت ملامحه في غرس معاني:

- الحرص على الصلاة وتثبيت العقيدة.
- والالتزام بأدب الأخوة.
- والفرح بالبذل والتعب اليومي.
- والشوق إلى الجهاد والاستشهاد من دون تهور.
- والانضباط بالطاعة.
- والتقلل من الدنيا وطلب الخفة.
- وترقب الموت ونسيان الأمل.

(١) تاريخ بغداد للخطيب (٢٣٦/ ٩).

- وحب الله تعالى في رجاء يضبطه خوف.
- ومفاصلة الذين كفروا، والذين نافقوا.
- والصبر على المحن.

فمن تحقق في هذه المعاني فهو الصلب الذي يصح أن يعتمد ضمن القاعدة الصلبة للحركة الإسلامية.

وهذه الفصول القادمة التي عرفناها بعنوان: «التربية الحركية للقاعدة الصلبة» مخصصة لبيان هذه المعاني ومكملاتها، على هذا الدرب، ونقوم بدراسة حركية لحركة إسلامية كاملة الوصف الحركي ظهرت في التاريخ الإسلامي القديم.

من المسجد دعوة تريد أن تستقيم إلى الله، فعليها أن تدلف من باب الاستقامة إذن.

بها المحراب:

وهكذا، فإن على الدعوة الإسلامية في وقت أن تبدأ عملها من المسجد، فتصلح العقيدة، وتعلم دعاتها أدب التعامل الإسلامي، وبذلك تسقط تلقائيًا كل المقاييس الأخرى في التفاضل من جودة الكتابة، وبلاغة اللسان، وبهرج الشهادات الجامعية.

وإنما جماع الخير في ارتياد المسجد، وذخيرة المسجد نعم زاد الانطلاق، ولقد أحصاها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي عنهما فقال: «من أدام الاختلاف إلى المساجد أصاب ثمان خصال:

آية محكمة، أخاً مستفاداً، علماً مستطرفاً، رحمةً منتظرة، كلمةً تدله على هدى، أو تردعه عن ردى، ترك الذنوب حياءً أو خشية»[1].

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ٣).

«المسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع، هو فكر واحد لكل الرؤوس؛ ومن ثم فهو حل واحد لكل المشاكل، وكما يشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم، يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله»[1].

«فما المسجد بناء ولا مكانًا كغيره من البناء والمكان، بل هو تصحيح للعالم الذي يموج من حوله ويضطرب؛ فإن في الحياة أسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها، وهذه كلها يمحوها المسجد، إذ يجمع الناس مرارًا في كل يوم على سلامة الصدر، وبراءة القلب، وروحانية النفس؛ ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة مسبغة على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعار الطهر الذي يسمى الوضوء، كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد»[2].

ومشى المسلمون الأوائل إلى المساجد وشدوا إليها شدا أنطق الشاعر فوصفهم بأنهم:

يمشون نحو بيوت الله إذ سمعوا ... «الله أكبر» في شـــوق وفي جذل

أرواحهم خشـــعت لله في أدب ... قلوبهم مـــن جلال الله في وجل

نجواهـــم: ربنا جئنـــاك طائعة ... نفوســـنا، وعصينا خادع الأمل

إذا ســـجى الليل قاموه وأعينهم ... من خشية الله مثل الجائد الهطل

هم الرجـــال فلا يلهيهم لعب ... عن الصلاة، ولا أكذوبة الكسل[3]

(١) للرافعي في وحي القلم (٣٥٧/ ١).
(٢) المرجع السابق (٣٥٨/ ١).
(٣) لياسين خليل في مجلة التربية الإسلامية العراقية (٦٠٠/ ٥).

ثم ما برح أئمة الموفقين يلحون في التوصية بذلك، ابتداء بالصدر الأول، كمثل عبد الله بن المبارك حين يقول:

اغتنم ركعتين زلفـــى إلى الله إذا كنـــت فارغًا مســـتريحًا

وإذا مـــا هممت بالنطـــق بالبا طل فاجعل مكانه تســـبيحًا[1]

وانتهاء بقادة الدعوة في هذا القرن، كمثل الإمام البنا حين يوصي أن:

«أيها الأخ العزيز: أمامك كل يوم لحظة بالغداة، ولحظة بالعشي، ولحظة في السحر، تستطيع أن تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملأ، فتظفر بخير الدنيا والآخرة. وأمامك يوم الجمعة وليلتها تستطيع أن تملأ فيها يديك وقلبك وروحك بالفيض الهاطل من رحمة الله على عباده، وأمامك مواسم الطاعات وأيام العبادات وليالي القربات التي وجهك إليها كتابك الكريم ورسولك العظيم، فاحرص على أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين، ومن العاملين لا من الخاملين، واغتنم الوقت، فالوقت كالسيف، ودع التسويف فلا أضر منه»[2].

وكمثل الإمام بديع الزمان سعيد النورسي حين يخاطبك ويقول: «ركبت من القصور والفقر والعجز والاحتياج، لتنظر بمرصاد قصورك إلى سرادقات كماله سبحانه، وبمقياس فقرك إلى درجات غناه ورحمته، وبميزان عجزك إلى قدرته وكبريائه، ومن تنوع احتياجك إلى أنواع نعمه وإحسانه فغاية فطرتك هي العبودية، والعبودية أن تعلن عند باب رحمته قصورك بـ«أستغفر الله» و«سبحان الله» وفقرك بـ«حسبنا الله» وبـ«الحمد لله»، وبالسؤال.

(١) طبقات الشافعية السبكي (٢٨٦/ ١).

(٢) مجلة «الدعوة» المصرية عدد (٨)، سنة ١٩٥١م.

وعجزك بـ«لا حول ولا قوة إلا بالله» وبـ «الله أكبر».

فتظهر بمراتب عبوديتك جمال ربوبيته[1].

بعث الرسل عليهم السلام لتحقيق غاية العبودية في الأرض ويقول: «انظروا قليلًا في ما تحرى النبي ﷺ من التدرج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية، فقد قام بدعوة الناس -أولًا وقبل كل شيء- إلى الإيمان: وأحكمه في قلوبهم، وأتقنه على أوسع القواعد وأرحبها، ثم نشأ في الذين آمنوا تعليمه وتربيته طبقًا لمقتضيات هذا الإيمان تدرجًا بالطاعة العملية -أي الإسلام- والطهارة الخلقية -أي التقوى- وحب الله والولاء له -أي الإحسان- ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة واستبدال نظام صالح به، قام على القواعد الخلقية والمدنية المقتبسة من القانون الإلهي المنزل من الرب تعالى.

ثم لما أصبح هؤلاء الذين آمنوا ولبوا دعوته من كل وجهة -بقلوبهم وأذهانهم ونفوسهم وأخلاقهم وأفكارهم وأعمالهم- مسلمين متقنين محسنين بالمعنى الحقيقي، وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك العمل الذي ينبغي لعباد الله المخلصين الأوفياء أن ينصرفوا إليه إذن، وبعد كل ذلك أخذ النبي ﷺ يرشدهم إلى ما يزين حياة المتقين المحسنين من الآداب والعادات المهذبة في الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس، وما إلى ذلك من الشؤون الظاهرة.

وكأنني به فتن الذهب ونقاه من الأوساخ والأقذار أولًا، ثم طبع عليه بطابع الدينار، ودرب المقاتلين أولًا، ثم كساهم زي القتال. وهذا هو التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا الباب كما يبدو لكل من تأمل القرآن والحديث وتبصر فيهما»[2].

(١) المثنوي العربي للنورسي، ص٢٨٣.

(٢) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، ص٧٢.

أجب نبيك ﷺ:

قال رسول الله ﷺ «من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة»(١).

وقال: «من غدا إلى المسجد وراح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح»(٢).

وقال: إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها ممشى، فأبعدهم، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرا من الذي يصليها ثم ينام»(٣).

وعن جرير رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة»(٤).

وسأله ابن مسعود: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»(٥)، وقال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة، وكذلك الدهر كله»(٦).

وكانت آخر ابتسامة للنبي ﷺ في الدنيا: ابتسامته للصلاة، وذلك لما كشف ستر الحجرة يوم الاثنين فرأى أبا بكر يؤم الصفوف.

وحث على صلاة الفجر وصلاة العشاء فقال: «من صلى البردين دخل الجنة»(٧).

وقال - وقد نظر إلى البدر-: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل

(١) صحيح مسلم (١٣١/ ٢).
(٢) صحيح البخاري (١٥٧/ ١).
(٣) المرجع السابق (١٥٩/ ١).
(٤) صحيح البخاري.
(٥) المرجع السابق.
(٦) صحيح مسلم (١٤٢/ ١).
(٧) صحيح البخاري.

غروبها فافعلوا، ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب»[1].

وقال: «الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله» أي فقدهما، وفي لفظ: «من ترك صلاة العصر فقد حُبط عمله»[2].

فأنت أيها الداعية ما بين ترهيب ينذرك النبي ﷺ فيه حبوط العمل وترغيب يشوقك فيه إلى قصور الجنة ورؤية الله فيها، فأجب، وإنه لثمن يغري ويطمع ويُحرص عليه، قبل الكساد، وكن عند حسن ظن الفضيل بن عياض، فإنه تحدى وقال: «ما حليت الجنة لأمة ما حليت لهذه الأمة، ثم لا ترى لها عاشقًا»[3]، عاشقًا يخرج من أجلها في البردين، وقل له: إني أنا العاشق.

فإن وجدت من نفسك ثقلًا وتكاسلًا فهناك مخاطبة لطيفة يمكن لك أن تخاطب بها نفسك فتقول: هب أنك من العسكريين، أو من عمال المخابز، أو الصيادين، أو.. أما كان يجب عليك التبكير في الاستيقاظ قبل الموظف والطالب طاعة للنظام العسكري أو تنافسًا في طلب الرزق؟ فالله سبحانه أحق أن يُطاع، وصلاة الفجر أحق أن يُنافس فيها.

فبمثل هذه المخاطبة لنفسك يحصل الحث لها، إن شاء الله، إن تراخت واستأنست بالنوم.

وإذا ألممت بذنب أو خطأ فاستدرك بالركوع، فإن داود عليه السلام لما جاءه الخصم يختصمان في النعاج انتبه واستدرك، ووصف الله تعالى انتباهته فقال: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ [ص:٢٤-٢٥]، فجعل الاستغفار والركوع طريقه، يعلم بذلك الدعاة أن يركعوا.

(١) صحيح البخاري (١٣٧/ ١).
(٢) المرجع السابق.
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (١١٤/ ٨).

حرص الأولين على الصلاة:

وكان السلف الصالح يستحبون الأناة في كل شيء، إلا في الصلاة، فقد قيل للأحنف بن قيس رضي الله عنه: «إن فيك أناة شديدة» فقال: «قد عرفت من نفسي عجلة في صلاتي إذا حضرت حتى أصليها»(١).

وكان المحدث الثقة بشر بن الحسن يقال له: «الصَّفِّي»، لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة(٢).

ومثله: إبراهيم بن ميمون المروزي، أحد الدعاة المحدثين الثقات أصحاب بن أبي رباح، وكانت مهنته الصياغة وطرق الذهب والفضة.

قالوا: «كان فقيهًا فاضلًا، من الأمارين بالمعروف».

وقال ابن معين: كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها»(٣).

وقيل لكثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط وقد أم أهل حمص ستين سنة كاملة، فقال: «ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله»(٤).

وقال قاضي قضاة الشام سليمان بن حمزة المقدسي، وهو من ذرية ابن قدامة صاحب كتاب المغني: «لم أصل الفريضة قط منفردًا إلا مرتين، وكأني لم أصلهما قط»(٥)، مع أنه قارب التسعين.

والداعية السعيد من يتأمل هذا ويقتد.

---

(١) طبقات ابن سعد (٩٦/ ٧).
(٢) تهذيب التهذيب
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٣٦٥/ ٢).

دعوة تتعلم من داود:

وكان داود عليه السلام يسبح بالعشي والإشراق، فسخر الله تعالى الجبال يسبحن معه، وقال: (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) (ص: ١٨)، فوهبه الله هبة عظمى ذكرها فقال: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) (ص: ٢٠).

ودعوة تدعي أنها إسلامية لا يُشد ملكها اليوم وتُغلب ما لم يسبح رجالها بالعشي والإشراق.

وإن التواصي بالصلاة لحسنة نقترفها يزيد الله لنا فيها حسنًا، ولا بد لنا أن نجعلها كلمة باقية في عقبنا من الأجيال الناشئة الجدد فإن لم نفعل، فإن عقد الدعوة سينفرط -لا سمح الله- انفراطًا ماله من فواق.

التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. الدقائق الغالية[1]

سجود المحراب، واستغفار الأسحار، ودموع المناجاة: سيماء يحتكرها المؤمنون.

ولئن توهم الدنيوي جناته في الدينار، والنساء، والقصر المنيف، فإن: جنة المؤمن في محرابه[2].

ولقد من الله على الناس بكثير من المباح الحلال يُقَنِّد الرهبانية، ولكن المؤمن له لذة كلما توجه إلى ربه، وصفاء روح، تتضاءل بجانبها لذة المباح، فيهجر الكثير منه حذرًا من كدر يعكر الصفاء الذي هو فيه.

جرب ذلك المؤمنون قديمًا، زمن العيش البسيط، وعاشر السهروردي شلة منهم، فوصفهم، وخرج بنتيجة، فقال: «الذائقون حلاوة المناجاة لا بد أن يجدوا صفو الأنس في الصلاة، ويتكدرون بيسير من الاسترسال في المباح»[3].

وجربه المؤمنون اليوم، زمن المدنية المعقدة، وأنابوا صالحا منهم يصف ما يجد كل منهم، ويقول:

هاتني سجادتي

فهي صفائي وسروري

وهي شوقي ودثاري

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٣٢)، ٢٨ ذي القعدة ١٣٩٢هـ/ ٢ يناير ١٩٧٣م، ص٢٨-٢٩.
(٢) شطر لوليد في مجلة التربية الإسلامية (٧/ ٦٣٧).
(٣) عوارف المعارف الملحق بإحياء علوم الدين (٥/ ١٩٦).

وهي نبراس الطهور

ثم دعني في صلاتي

في مناجاة القدير[1]

فهي صفاؤه، وسروره، وشوقه.

بل إن الصلاة في يوم هذه المدنية لأظهر في إضفائها السرور، فبينما يطيل التعقيد على الإنسان حياته الحاضرة، فيسأم ويمل، ويضجر، تختصرها الصلاة إلى بضع ساعات فحسب، فيعيش في اطمئنان، وراحة بال، ولئن كان لنظرية آينشتاين في نسبية الوقت نصيب من الصحة فإن في الصلاة هذا النصيب، كما يشرحه مصطفى صادق الرافعي.

ويقول: «يا لها حكمة أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات، لتبقى الروح أبدًا إما متصلة أو مهيأة لتتصل، ولن يعجز أضعف الناس مع روح الدين أن يملك نفسه أنه متوجه بعدها إلى ربه، فخاف أن يقف بين يديه مخطئًا أو آثمًا، ثم هو إذا ملك نفسه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى، وأنها بضع ساعات كذلك، فلا يزال من عزيمة النفس وطهارتها في عمر على صيغة واحدة لا يتبدل ولا يتغير، كأنه بجملته، مهما طال، بضع ساعات»[2].

طول الحياة نسبي:

هو طويل جدًا، مخيف مظلم للجاهلي.

وهو قصير، هين منير للمصلي.

(١) لياسين خليل الهيتي في مجلة التربية الإسلامية (٦/ ٢٢٢).
(٢) وحي القلم (١/ ٣٦٤).

وحياة الجاهلي ركود مستمر.

وحياة المصلي حركة، تزيد صوابًا، أو تستدرك اعوجاجًا.

وإنها «الله أكبر» تنهي هذا الركود، وتؤسس الحركة الله أكبر! بين ساعات وساعات من اليوم ترسل الحياة في هذه الكلمة نداءها تهتف: «أيها المؤمن: إن كنت أصبت في الساعات التي مضت، فاجتهد للساعات التي تتلو، وإن كنت أخطأت فكفر، وامح ساعة بساعة»[1].

وأظهر حركة يولدها التكبير: حركة التمييز والفرقان، بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

فإنك إن قلت: «اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين» استشعرت في كل ركعة طائفة من هذه الأصناف الثلاثة، وتخصص كل ركعة لمن ظهر منهم في زمن واحد، أو بلد واحد، فتجول في ركعات يومك بلاد الإسلام أجمع، وتستعرض تاريخ الإسلام أجمع.

ففي ركعة تذكر النبي، ﷺ، وصحبه الأطهار، رضي الله عليهم، مثلًا لمن أنعم الله عليهم، وتذكر أبا جهل ومسيلمة مثلًا للمغضوب عليهم والضالين.

وفي ركعة أخرى تذكر هودًا وصالحًا مثلًا ممن أنعم الله عليهم، عليهم السلام، وعادًا وثمود من الهالكين.

وفي ركعة أخرى تذكر الحسن البصري وابن سيرين وابن المسيب ممن أنعم الله عليهم، وأهل الردة، والجهم بن صفوان، والجعد بن درهم من المتخبطين.

وفي أخرى تذكر الإمام أحمد بن حنبل ورهطه من المحدثين الموفقين، وبشرا المريسي وابن أبي دؤاد من الظالمين.

(١) المرجع السابق (١/ ٣٥٩).

وفي أخرى تذكر ابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي من المصلحين، وأصحاب وحدة الوجود والفناء الموهوم والشطح والابتداع من المدلسين.

وفي أخرى تذكر الإمام البنا وعودة وسيد، وثباتهم أمام الطغاة المتجبرين.

وفي أخرى تذكر حركة النور، وحزب ماشومي، وضلال أتاتورك وسوكارنو من الكاذبين.

وبذلك تعقل صلاتك، والمرء ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، وتجدد عهدك مع أجيال المؤمنين، وتنبذ المفسدين، وتلك هي حركة الإيمان، فإن الإيمان الحق ما أخذ منك الولاء، وتركك على المفاصلة.

رجال مدرسة الليل:

ولكن تمام التذكر يكون مع الهدوء والسكون.

فمن ثم كانت مدرسة الليل.

وكان ترغيب الله للمؤمنين أن يجددوا سمت الذين (كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ {١٧} وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (الذاريات).

وإذا انتصف الليل، في القرون الأولى، كانت أصوات المؤذنين ترتفع تنادي:

يـــا رجـــال الليـــل جدوا رب صـــوت لا يـــرد

مـــا يقـــوم الليـــل إلا من لـــه عـــزم وجـــد[1]

وإنها حقًا لمدرسة، فيها وحدها يستطيع رجالها أن يذكوا شعلة حماسهم، وينشروا النور في الأرجاء التي لفتها ظلمات الجاهلية.

(١) عن مجلة التربية الإسلامية (٧/ ٤٩٨)، لأحد وعاظ القرن السادس.

وإنها تجربة إقبال يوجزها فيقول:

نائح والليل ســـاج ســـادل يهجـــع النـــاس ودمعي هاطل

تصطلـــي روحي بحـــزن وألم ورد «يا قيوم» أنســـي في الظلم

أنا كالشـــمع دموعي غســـلي فـــي ظلام الليل أذكي شـــعلي

محفـــل الناس بنوري يشـــرق أنشر النور ونفســـي أحرق[1]

وإن دعوة الإسلام اليوم لا تعتلي حتى يذكي دعاتها شعلهم بليل، ولا تشرق أنوارها فتبدد ظلمات جاهلية القرن العشرين ما لم تلهج بـ«يا قيوم».

ما نقول هذا أول مرة، وإنما هي وصية الإمام البنا حين خاطب الدعاة فقال: «دقائق الليل غالية، فلا ترخصوها بالغفلة»[2].

أفعيينا أن نعيد السمت الأول، أم غرنا السلام الأول في التساهل والتسيب والكسل؟

إن القول لدى الله لا يبدل، ولكنا أرخصنا الدقائق الغالية بالغفلة، فثقل المغرم، ولم يجعل الله لنا من أمرنا يسرًا.

إن انتصار الدعوة لا يكمن في كثرة الرق المنشور، بل برجعة نصوح إلى العرف الأول، ومتى ما صغت القلوب بتوبة، ووعت هذا الكلام أذن واعية، كانت تحلة الورطة الحاضرة التي سببتها الغفلة المتواصلة.

ذلك شرط لا بد منه.

(١) ديوان الأسرار والرموز، ص٧٩.
(٢) مجلة «الدعوة»، عدد (٦٣).

وكأن النصر حجب عنا لأننا نادينا من وراء الحجرات، وجهرنا رافعين أصواتنا نوجب على الله لنا هذا النصر بإدلال، نبيعه ونثبت لنا حقًا عاجلًا في الثمن من دون أن نقدم بين يدي بيعنا همسا في الأسحار، ولا الدمع المدرار، وإنما النصر هبة محضة، يقر الله بها عين من يشاء من رجال مدرسة الليل في الحياة الدنيا، ولا يلت الآخرين المحصرين من ثمنهم في الآخرة شيئا، ويوقع أجرهم عليه.

إن تعلم الإخلاص، وفضح الأمل الكاذب الدنيوي أجلى أعطيات مدرسة الليل، كما يقول وليد، وذلك ما توجب تربيتنا تركيزه وتعميقه في النفوس قال، والحق ما قال:

يـــا ليـــل قيامك مدرســـة فيهـــا القـــرآن يدرســـني

معنـــى الإخلاص فألزمـــه نهجـــا بالجنـــة يجلســـني

ويبصرنـــي كيـــف الدنيـــا بالأمـــل الكاذب تغمســـني

مثـــل الحربـــاء تلونهـــا بالإثـــم تحاول تطمســـني

فأباعدهـــا وأعاندهـــا وأراقبهـــا تتهجســـني

فأشـــد القلـــب بخالقـــه والذكـــر الدائم يحرســـني[1]

وأكثر من هذا، فإن من يتخرج في مدرسة الليل يؤثر في الأجيال التي بعده إلى ما شاء الله، والمتخلف عنها يابس قاس تقسو قلوب الناظرين إليه، والدليل عند بشر بن الحارث الحافي منذ القديم، شاهده، وأرشدك إليه، فقال: «بحسبك أن قوما موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قوما أحياء تقسو القلوب برؤيتهم»[2].

(١) أغاني المعركة، ص٣٨.

(٢) طبقات السلمي، ص٤٦.

فلم كان ذلك إن لم يكن ليل الأولين يقظة، وليل غيرهم نوما؟ ونهار الأولين جدًا، ونهار الآخرين شهوة؟

أتسبقك الحمامة؟

وإنه لقلب رقيق قلب الفقيه الزاهد أبي سهل الصعلوكي، يظهره تأنيبه لنفسه في قوله:

أنام على ســـــهو وتبكي الحمائم ... وليس لها جـــــرم ومني الجرائم

كذبتُ لعمـــــرو الله لو كنت عائلا ... لما ســـــبقني بالبكاء الحمائم[1]

فإن الذنب لا يغسل إلا بدمع، والشجاعة تسقى بدموع الليل، وما عرف تاريخ الإسلام رجاله إلا كذلك، ولم يقل ابن القيم باطلاً في وصفه لهم بأنهم:

يحيـــــون ليلهم بطاعـــــة ربهم ... بـــــتلاوة، وتضرع، وســـــؤال

وعيونهم تجري بفيض دموعهم ... مثـــــل انهمال الوابـــــل الهطال

في الليل رهبـــــان، وعند جهادهم ... لعدوهم من أشـــــجع الإبطال

بوجوههم أثر الســـــجود لربهم ... وبها أشـــــعة نـــــوره المتلالي[2]

وسأل عبدالوهاب عزام الليل عن أروع أسراره، فأبان جوابه عن إصابة المؤمنين والمذنبين في تحريهم إياه، واستمع لتحاورهما:

قلـــــت لليل: كم بصدرك ســـــر ... أنبئني مـــــا أروعُ الأســـــرارِ؟

قال: ما ضاء في ظلامي ســـــر ... كدموع المنيب في الأســـــحارِ[3]

(١) طبقات الشافعية للسبكي (٣/ ١٧١).
(٢) إغاثة اللهفان، ص٢٥٥.
(٣) ديوان المثاني، ص٣٥.

أفترى المؤمنين إلا مصدقا بجواب الليل، فهو مسارع مستبق؟

أم ترى أهل البلاغة إلا في إذاعة لما قال؟ يستملون الناس.

فاز من ســـــبح والناس هجوع يدفن الرغبة ما بيـــــن الضلوع

ويغشـــــيه ســـــكون وخشوع ذاكرًا للـــــه والدمـــــع هموع

ســـــوف يغدو ذلك الدمع شموع

لتضيء الدرب يوم المحشـــــر ســـــجدة لله عند الســـــحر[1]

ويلقنون المذنبين المخطئين طريق الجنة، فيستملون المسرف في أخرى أن:

عد إلـــــى الله بقلب خاشـــــع وادعه لـــــيلًا بطـــــرف دامع

يتـــــولاك بعفـــــو واســـــع ويبـــــدل كل تلك الســـــيئات

حســـــنات أجرها لـــــن ينفدا كل هذا العفو للعبـــــد المنيب

ســـــابقًا من خالق الكون الرحيب للـــــذي تاب إليه مـــــن قريب[2]

(١) لوليد في مجلة التربية الإسلامية (٧/ ٦٣٦).

(٢) لوليد في أغاني المعركة، ص٩٤.

التربية الحركية للقاعدة الصلبة
إنما الإسلام يحيا لا القبيلة[1]

قال رسول الله ﷺ: «أرسلت إلى الخلق كافة»[2].

واستمسك المسلمون طوال ثلاثة عشر قرنًا بهذا المفهوم الواضح، وعاشوا إخوة، فوق القوميات، والقبليات، ويحفظون للعرب فضلهم وسابقتهم إلى الإسلام وجهادهم الأول وأستاذيتهم لهم، ويغبطونهم على منقبتهم في بعث خاتم المرسلين، ﷺ، فيهم، فإذا ما تطاول عربي ردوه برفق أو نعق شعوبي مارق بكراهية العرب كبتوه، وكان شعارهم: إنما الإسلام يحيا لا القبيلة[3].

ولكن ما إن مضت سنوات من هذا القرن الرابع عشر، حتى تعالى همس قومي في شعوب الأمة الإسلامية، واستطاعت الدعاية اليهودية الخفية، وجهود السفارات الغربية، أن تخفي نغمته النشاز من أبناء المسلمين، فانخدعوا، ودخلوا جولة صراع عنيف يقلدون فيه صراع موجة القوميات الأوروبية، حتى تطور مفهومهم عن القومية إلى ما نراه اليوم من التنكر لأحكام الإسلام، واتباع الهوى في التشريع، وربما أفرط بعضهم في الحماس فجاهر بالإلحاد، وجعل إنكار الغيبيات من حتميات القومية، وبذلك انتصبت القومية كطاغوت جديد تستمد منه الجاهلية الحديثة.

ثم تطرقت التعصبات في اتجاه آخر أيضًا، لم يكتف بتجزئة الأمة الإسلامية إلى قوميات متناحرة تسيل الدماء أثناء معارك تناحرها، بل بتجزئة القومية الواحدة إلى

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٣٣)، ٥ ذي الحجة ١٣٩٣هـ/ ٩ يناير ١٩٧٣م، ص٢٣.
(٢) صحيح مسلم (٢/ ٦٤).
(٣) شطر من ديوان «حنين إلى الفجر» لمحمود آل جعفر، ص١٣٢.

وطنيات إقليمية، ودور ضيقة، وتم نصب طاغوت جديد وصنم ثان سموه الوطنية، وعادت اللات ومناة إلى الحياة، فلم يجد إقبال للتعبير عن حزنه إلا أن ينشد:

يعشـــق الأصنام عقـــل الأمم ناحـــت أو عابـــد للعلـــم

اســـمه لون ودار ونســـب هو في ســـفك دماء من طرب

وعلى أقـــدام هـــذا الصنم ذبح الإنســـان ذبـــح الغنم[1]

ولو قرأت تاريخ الجاسوس الإنكليزي لورانس وكتابه «أعمدة الحكمة السبعة» لعلمت كم من دماء الأتراك قد سالت، ولو رجعت بذاكرتك إلى سنين قلائل لأحصيت كم من العرب والأكراد قد ذبحوا قرابين ونذورا لصنم القومية، وها قد فاقت فتنة البنغال وانفصال باكستان الشرقية كل الفتن القومية، وحدث خلالها ما تقشعر له الأبدان، وصور تجمع البنغاليين في دكا لمشاهدة ذبح الغربيين تظهرهم في أتم الفرح والطرب كما قال إقبال، كان التصفيق والابتسام الذي تظهره الصور لحفلة عرس، لا لمذبحة الإنسانية تحت أقدام صنم القومية.

«إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها: «القوم» ويسمونها: «الوطن»، ويسمونها: «الشعب»، إلى آخر ما يسمون، وهي لا تعدو أن تكون أصنامًا غير مجسدة كالأصنام الساذجة التي كان يقيمها الوثنيون، ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله -سبحانه- في خلقه، وينذر إليها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة ويضحون لها كالذبائح التي كانت تقدم في المعابد على نطاق واسع»[2].

«إننا نخدع أنفسنا حين نقف بالوثنية عند الشكل الساذج للأصنام والآلهة القديمة، والشعائر التي كان الناس يزاولونها في عبادتها واتخاذها شفعاء عند الله.

(١) ديوان الأسرار والرموز، ص١٢٨.

(٢) الظلال (٩/ ١٣٦).

إن شكل الأصنام والوثنية فقط هو الذي تغير، كما أن الشعائر هي التي تعقدت، أما طبيعة الشرك وحقيقته فهي عنوانات جديدة.. لقائمة من وراء الأشكال والشعائر المتغيرة.

وهذا ما ينبغي ألا يخدعنا عن الحقيقة!

إن الله سبحانه يأمر بالعفة والحشمة والفضيلة، ولكن «الوطن» أو «الإنتاج» يأمر بأن تخرج المرأة وتتبرج وتتعرى وتعمل مضيفة في الفنادق في صورة فتيات الجيشا في اليابان الوثنية، فمن الإله الذي تُتبع أوامره؟ أهو الله سبحانه؟ أم إنها الآلهة المدعاة؟

إن الله سبحانه يأمر أن تكون رابطة التجمع في العقيدة، ولكن «القومية» أو «الوطن» يأمر باستبعاد العقيدة من قاعدة التجمع، وأن يكون الجنس أو القوم هو القاعدة! فمن هو الإله الذي تتبع أوامره؟ أهو الله سبحانه أم هي الآلهة المدعاة.

إنها أمثلة ما يجري في الأرض كلها اليوم»[1].

إنها عبادة الوطن، وعبادة الأرض.

أما المسلم فله أساس من العقيدة مضمر في قلبه يضمه إلى إخوانه المسلمين، ولا يعبد إلا الله.

أمم قد عبدت أوطانها ... وبنت من نسب بنيانها

أترى الأوطان أصل الأمم ... تعبد الأرض بها كالعلم؟

هذه الأنساب فخر السفهاء ... حكمها في الجسم، والجسم هباء

ضمنا في الحق أس آخر ... هو في الألباب منا مضمر[2]

(١) المرجع السابق.

(٢) ديوان الأسرار والرموز، ص٨٨.

وإنه «إذا رفعت «القومية» شعارًا، أو رفع «الوطن» شعارًا، أو رفع «الشعب» شعارًا، رفعت «الطبقة» شعارًا، ثم أريد الناس على سيادة هذه الشعارات من دون الله، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض، بحيث إذا تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها، نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه، ونفذت أرادة تلك الشعارات، أو بالتعبير الصحيح الدقيق: إرادة الطواغيت الواقعة وراء هذه الشعارات، كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله، فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة، ولقد يكون الصنم مذهبًا أو شعارًا!

إن الإسلام لم يجئ لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية، ولم تبلل فيه تلك الجهود الموصولة، من كوكب الرسل الموصول، ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام، لمجرد تعظيم الأصنام من الأحجار والأخشاب.

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وبين الدينونة لغيره في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة، وتقرير ما إذا كانت توحيدًا أم شركًا؟ دينونة الله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام»[1].

إن المسلم وطنه التوحيد، ولا يحده وطن ولا قومية.

قلبنـــا الخفاق يأبـــى موطنًا ريحـــه العاطف تأبي مســـكنًا

ليس مـــن عـــرب وروم قلبنا ما ســـوى الإسلام فيه أرضنا[2]

(١) الظلال (١٣/ ١٨١).

(٢) ديوان الأسرار والرموز، ص١٠٢.

وإن المسلم يأبى أن تقيده أرض وتشده إليها، وإنما هو كالحوت الذي يسبح البحار، وكالشمس التي أكسبها مسيرها شرف ما هي فيه من العلو الخفاق.

وكما أن شذى الورد لا ينعشك حتى يغادر الورد، فكذلك المسلم، لا يعطي الرحمة التي يحملها إلى الإنسانية المعذبة حتى يكسر القيد الذي يشده إلى الأرض، وحتى يكون كالنسيم الذي يعانق كل أزهار الرياض، وتكون شعوب الإنسانية كلها كالزهور أمامه، ولا يكون كالعندليب الذي يهيم بحب وردة مفردة.

وذلك قول إقبال:

شـــــرف الشمس مســـــير مطلق ... فيه من قـــــوق البرايـــــا تخفق

لا يقيـــــدك مقام فـــــي الورى ... وكن الحوت يســـــيح الأبحرا

كل من حرر مـــــن ذل الجهات ... فلـــــك يزهر مـــــن كل الجهات

ترك الورد شـــــذاه فســـــرى ... في فســـــيح المرج عطرًا نشرًا

يا أســـــيرًا قد ثوى في روشـــــة ... عندليبًـــــا هائمًـــــا فـــــي وردة

ســـــيرن نفســـــك حرا كالصبا ... ثم عانـــــق كل أزهـــــار الربى

أحلون من خدمة العصر الجديد ... التباس النهج حاذر يا رشـــــيد

قطعـــــوا الأرحام بيـــــن الإخوة ... صيروا الأوطـــــان أس الأمة[1]

وما تجاوز إقبال الواقع، فإن الأرحام قد تقطعت بين أمة الإسلام ممن جعلوا أصنام القوميات والأوطان شعارات التجمع وأساس البناء.

(١) المرجع السابق، ص١٠٥.

ولقد «ظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم «الشعوبية» وتارة باسم «الجنسية الطورانية» وتارة باسم «القومية العربية»، وتارة بأسماء شتى، تحملها جهات شتى، تتصارع فيما بينها في داخل المجتمع الإسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة، المنظم بأحكام الشريعة، إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية، وتحت الإيحاءات الخبيثة المسمومة، وإلى أن أصبحت تلك الأصنام مقدسات يعتبر المنكر لها خارجًا على دين قومه، أو خائناً لمصالح بلده!

وأخبث المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي كان يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ، كان هو المعسكر اليهودي الخبيث، الذي جرب سلاح القومية في تحطيم التجمع المسيحي، وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية، وبذلك حطموا الحصار المسيحي حول الجنس اليهودي، ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنود.

وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامي، بعد جهود قرون كثيرة في إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي، ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله، كما استطاعوا أن يمزقوهم ويرضوهم على الاستعمار الأوروبي الصليبي، وما يزالون، حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة، ليقوم التجمع الإسلامي من جديد، على أساسه المتين الفريد»[1].

واستمع إلى شهادة رجل فاضل من أهل العراق يصف الأخوة للمسلمين زمن السلطان عبد الحميد، وهو المرحوم عبد العزيز القصاب، الذي كان وزيرًا ورئيسًا لمجلس النواب العراقي، ويعد في الساسة الذين لم يفرطوا في مصالح البلاد، وله

(١) الظلال (١٢/ ٨٥).

احترام عند الناس، وكان قد درس أول حياته في إسطنبول، ويمكنك أن تطلب نص حروف شهادة هذا الرجل في الصفحات الأولى من كتابه «حياتي»[1]، وفيها أوضح أنه أثناء دراسته لم يسمع بتاتًا أي كلمة من أحد تكشف عن معنى قومي، لا من تركي، ولا عربي، ولا كردي، بل لم يكن يدور بخلد أحد أن هناك غير معنى الأخوة الإسلامية، وكان الحب المتبادل يغمر الجميع، وكانت السعادة بادية على الجميع، وهذا الوصف مصداق قول إقبال:

إن جعلـــت الدم ركـــن الملة صدعت دعـــواك جمع الأخوة

ما من الأنســـاب يقوى وصلنا ليـــس من روم وعـــرب أصلنا

إنما حب الحجـــازي الحبيب قد حبانا ذاكم الوصل القريب[2]

فإنه لما جعل الدم العربي أو التركي أو الكردي هو أمرة التجمع، انصدع ذاك التجمع الأخوي الذي وصفه بهذه الثقة، والذي كان يوحده حب الرسول الحجازي العربي وسنته المطهرة.

ولكن: يا حسرة على العباد، كيف تخدعهم خطط العدو! وكيف يؤدي بهم جهلهم إلى تصور أننا ندعو بكلامنا هذا إلى هدر مصالح الأقوام!

إننا «لا نحارب القومية بصفتها الرابطة الجنسية التي يرتبط فيها الإنسان ببيئة جنسه وقومه ووطنه، فالقومية بهذا الاعتبار حقيقة فطرية قائمة بيننا جميعًا، والإنسان يساق إلى مثل هذه الرابطة بحكم فطرته وغريزته وجبلته التي فطره الله عليها.

(١) يا حسرة على البحث العلمي في الكويت، فقد ملكت وقرأت هذا الكتاب من قبل، واستمر معي ولم يرجع قبل استلالي لهذه الشهادة، وفتشت عن الكتاب في جميع المكتبات العامة في الكويت فلم أجده، بل لا يوجد في مكتبة كلية العلوم السياسية مع أنه من اختصاصها، ومع أنه نشر قبل عشر سنوات فقط.

(٢) الأسرار والرموز، ص١٤٧.

كما أننا لا نحارب القومية بمعنى أن الإنسان يحب أمته ووطنه، ويتمنى لهما الرقي والتقدم والازدهار والعزة والفخار والمجد الدائم.

ونحن كذلك لا نحارب القومية ولا نعاديها ولا نخاصمها بمعنى أن تطمح كل أمة في الأرض إلى استقلالها وحريتها، ونيل أعلى مراتب المجد ودرجات الكمال في حياتها، فإنه من حق كل أمة ألّا تقوم بجملة شؤونها ولا تدير جميع أعمالها وأمورها إلا بنفسها، ولا يحق بوجه من الوجوه أن تحكمها أمة أخرى أو تسيطر عليها أو على مواردها وخيراتها، أو تتسلط عليها بأي نوع من أنواع التحكم أو التسلط.

لا نحارب القومية التي تعتز بالإسلام وتجعله نظام حياتها ومصدر عزها وطريق سعادتها.

إننا نحارب القومية المجردة التي يتخذها بعض القوميين عقيدة يستبدلونها بعقيدة الإسلام ويستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

نحارب القومية التي يتخذها بعض الناس فكرة سياسية، أو مذهبًا مستقلًا، أو نظامًا اجتماعيا لحياة تلك الأمة التي ينتمي إليها أولئك القوميون، فليست حقيقة هذه القومية بهذا المعنى إلا أن تعبد تلك الأمة نفسها وأغراضها ومصالحها الذاتية، وتعمى بعدها عن كل مصلحة لغيرها ولا يهمها في حين من أحيانها إلا مصالحها القومية، وتكون هي إلهًا، أو بمثابة آلهة، تعكف لعبادته، وتعمل استجابة لندائه بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة»[1].

وربما ظن بعض العرب أن هذا الكلام في هذه المقالة تدفع له محركات شعوبية، وذلك أشد الجهل، ففوق أن كاتب هذه الأسطر عربي، فإن أئمة الإسلام الذي نتبعه وندعو إليه جعلوا الشعوبية أي كراهية العرب وتفضيل الشعوب الأخرى

(١) المخططات الاستعمارية للصواف، ص٦٥.

عليهم- بدعة غليظة منكرة يسقط صاحبها إلى أقل درجات الضعف ويترك ويهجر وإن كان عالمًا، لكننا ندعو إلى الإسلام الرحب، وفي الإسلام نشر وحفظ لغة العرب الذي تعجز عنه القومية العربية، وليس أثمن عند العرب من لغتهم- وقد طبع مجمع التعريب في المغرب التابع لجامعة الدول العربية عشرات البحوث لكبار العلماء المعاصرين أثبتوا فيها علاقة الازدهار المتبادلة بين الإسلام واللغة العربية.

إن الجيل الحاضر من نتاج القومية العربية المجردة متحلل متهالك لا يعرف من لغته إلا القليل، بينما نجعلها نحن أصحاب الدعوة الإسلامية من الفروض، ومن تربيتنا للداعية المسلم أن نربيه على الامتياز عن بقية المسلمين، وحرق أعراف القرون المتأخرة بتعلم العربية إن كان غير عربي، وقد «كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا أرض الشام ومصر، ولغة أهلهما رومية، وأرض العراق وخراسان، ولغة أهلهما فارسية، وأهل المغرب، ولغة أهلها بربرية: عودوا أهل هذه البلاد: العربية، حتى غلبت على أهل هذه الأمصار، مسلمهم وكافرهم، وهكذا كانت خراسان قديمًا، ثم إنهم تساهلوا في أمر اللغة، واعتادوا الخطاب بالفارسية، حتى غلبت عليهم، وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم، ولا ريب أن هذا مكروه.

وإنما الطريق الحسن: اعتياد الخطاب بالعربية، حتى يتلقنها الصغار في الدور والمكاتب، فيظهر شعار الإسلام وأهله، ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف، بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن ينتقل إلى أخرى، فإنه يصعب عليه.

واعلم أن اعتياد اللغة: يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا بينًا، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم: تزيد العقل والدين والخلق.

وأيضًا، فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهمهما إلا من يفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثم منها: ما هو واجب على الأعيان، ومنها: ما هو واجب على الكفاية.

وهذا معنى ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عيسى بن يونس عن ثور عن عمر بن يزيد قال: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري ﷺ: أما بعد، فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن، فإنه عربي.

وفي حديث آخر عن عمر ﷺ أنه قال: تعلموا العربية، فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض، فإنها من دينكم.

وهذا الذي أمر به عمر من فقه العربية وفقه الشريعة: يجمع ما يحتاج إليه، لأن الدين فيه فقه أقوال وأعمال، ففقه العربية: هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة: هو الطريق إلى فقه أعماله»[1].

«فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة، والاقتداء بالعرب في خطابها، فلو ترك الناس على لحنهم كان نقصًا وعيبًا»[2].

«وما زال السلف يكرهون تغيير شعائر العرب حتى في المعاملات، وهو: «التكلم بغير العربية» إلا لحاجة، كما نص على ذلك مالك والشافعي وأحمد، بل قال مالك: من تكلم في مسجدنا بغير العربية أخرج منه، مع أن سائر الألسن يجوز النطق بها لأصحابها، ولكن سوفوها للحاجة، وكرهوها لغير الحاجة، ولحفظ شعائر

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، ص٢٠٦.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٢/ ٢٥٢-٢٥٥).

الإسلام، فإن الله أنزل كتابه باللسان العربي، وبعث به نبيه العربي، وجعل الأمة العربية خير الأمم، فصار حفظ شعارهم من تمام حفظ الإسلام»[1].

ولا تستغرب جملة «وجعل الأمة العربية خير الأمم» ونحسبها من تأثيرات اتجاه قومي، وإنما تعني أن العرب قد أعزهم الله تعالى بالإسلام جميعًا، فدخلوا في خطابه تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس» ثم أخذوا السبق في الخيرية وصاروا أمة تؤم الأمم وتقودها وتربيها وتحررها من أسر طواغيتها، وللسابق المربي فضل وميزة، وأما أفراد العرب أو أفراد الأعاجم فإنما يتمايزون بالتقوى والصلاح فحسب.

وسأل عمر ﷺ الناس على المنبر عن معنى التخوف في قوله تعالى: «أو يأخذهم على تخوف»، فأجابه رجل هذلي بأن التخوف في لغتهم: التنقص، وأنشده شاهدا عليه، فقال عمر: «أيها الناس: تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم فإن فيه تفسير كتابكم».

وبهذه النظرة الإسلامية لمكانة اللغة العربية تدرك مقدار الازدهار الذي ينتظر العربية حين يتولى دعاة الإسلام أمر الأمة، وندرك أن تضييع العربية الذي امتاز به الحكم القومي ليس له من علاج إلا علاج يقدمه دعاة الإسلام.

وعلى الحركة الإسلامية الحاضرة أن تجعل من أهم واجباتها التربوية واجب التربية على معنى الأخوة الإسلامية، ونبذ الشعور القومي الضيق، ولا يصلح أن يكون ضمن القاعدة الصلبة من بقيت فيه بقية باقية من المشاعر القومية.

(١) الموافقات للشاطبي (١/ ٢٤).

التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. ميزان التصاحب[1]

لم يكن بد للحركة الإسلامية من الاستعلاء على المشاعر القومية والتربية على معاني الأخوة الإسلامية وهي ترى الأيام النحسات تتوالى على أقوام الأمة الإسلامية حين أطاعت الذين برزوا فيها من الغلاة المسرفين، فإنه ليس من قوم إلا وظهر فيهم متخبط، تعاطى سهم القومية، فعقر، وتولى بركنه يتهم دعوة الإسلام ويماريها على ما ترى، ويهذر شططا، ويكون لها عدوا، ويبسط لها يده ولسانه بالسوء.

و«أخوة المتجمعين» في التجمع الحركي هي -من بعد- للتعالي على القوميات ظهير، وما من جزء من الحركة الإسلامية يقذف بنفسه في ميدان العمل العام قبل إحلال معاني الأخوة الإيمانية في أعضائه إلا ذاق وبال تساهله وتفريطه، ولا مناص من تدرجٍ بدايته الإيمان والتسبيح واستغلال دقائق الليل الغالية ويكون فيه «أدب الأخوة» مترجما في تناصح وتكافل وتحابب القلوب، ويعلمها التحالم -إن لم يجمع- عند إبطاء المقصر، وتجاوز الملحاح، مثلما يعلمها المكافأة والوفاء والشكر عند إسراع المبادر، وعدل خفيض الجناح.

لقد أحب الإمام البنا هذا الأدب للدعاة، ووضع له منهجًا بحيث «يرفع أخوتهم من مستوى الكلام والنظريات إلى مستوى الأفعال والعمليات»[2]، ورأى ﷺ من تآخي الرعيل الأول ما أقر عينه حيًا، وبرهان وفاء محبيه من بعده أن يكونوا دومًا عند محاسن هذا الأدب، وأن يفيئوا إليه عند أول انتباهة إذا أنستهم الغفلات أنها نعمة الأخوة.

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٣٤) ١٩ ذي الحجة ١٣٩٣هـ/ ٢٣ يناير ١٩٧٣م، ص٢٦-٢٧.
(٢) المجموعة، رسالة التعاليم، ص٢٨.

يجعلها عمر بن الخطاب ﷺ، أثمن منحة ربانية للعبد من بعد نعمة الإسلام فيقول: «ما أعطي عبد بعد الإسلام خيرا من أخ صالح، فإذا رأى أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به»[١].

ويسميها التابعي مالك بن دينار: روح الدنيا، فيقول: «لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة:

- لقاء الإخوان.
- والتهجد بالقرآن.
- وبيت خال يذكر الله فيه»[٢].

ويحكر لها الشاعر صفة الذخيرة، فيقول:

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الثقات الذخائر[٣]

ولهذا كثرت توصية السلف بإتقان انتقاء الأخ الصاحب، لتصاب الذخيرة الحقة والروح الحقة، فكان من وصايا الحسن البصري سيد التابعين: «إن لك من خليلك نصيبًا، وإن لك نصيبًا من ذكر من أحببت، فتنقوا الإخوان، والأصحاب والمجالس»[٤].

فأما أولًا: فقد عمموا صفة الخيرية بإطلاق تحكم الانتقاء وعبروا عن ذلك بقولهم:

أنت في الناس تقاس بالذي اخترت خليلًا

فاصحب الأخيار تعلوا وتنل ذكرا جميلا[٥]

(١) علم القلوب للمكي، ص٢٢٥.
(٢) طبقات الشعراني (١/ ٣٢).
(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ١).
(٤) كتاب الزهد لابن المبارك، ص٢٣٢.
(٥) نفح الطيب للمقري (٨/ ٦٧).

ثم خصصوا، ففسروا الخير بالتقوى، وقالوا:

نافس، إذا نافســـــت، في حكمة آخ، إذا أخيـــــت، أهـــــل التقى

ما خيـــــر من لا يرتجـــــى نفعه يومًا، ولا يؤمن منـــــه الأذى[1]

ثم زادوا وذهبوا أبعد، فعددوا صفاتهم، يعينونك على دقة الاختيار.

أعلى صفاتهم: طيبة القول، ذكرها عمر ﷺ، فقال:

«لولا أن أسير في سبيل الله، أو أضع جبيني لله في التراب، أو أجالس قومًا يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب الثمر، لأحببت أن أكون لحقت بالله»[2].

ومن صفاتهم: أن أحدهم: «يرفع عنك ثقل التكلف، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ، وكان جعفر بن محمد الصادق ﷺ، يقول: أثقل إخواني علي: من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي»[3].

ومن صفاتهم: ترك حضيض الدينار والدرهم، والسمو إلى العلا، وضربوا لذلك الإمام أحمد بن حنبل في انتقائه الأصحاب مثلًا، وذلك حين يقول الذي يطربه:

ويحســـــن في ذات الإله إذا رأى مضيمًا لأهل الحق لا يســـــأم البلا

وإخوانه الأدنون كل موفق بصير بأمر الله يسمو إلى العلا[4]

ومن صفاتهم: مذاكرة الآخرة، كما قال الحسن البصري:

«إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يُذكِّروننا بالدنيا، وإخواننا

(١) لأبي العتاهية في ديوانه، ص٢٥.
(٢) الزهد لابن المبارك، ص٤١٦، طبقات ابن سعد (٣/ ٢٩٠).
(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ١٨٨).
(٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ص١١٤.

يذكروننا بالآخرة»[1].

ومن صفاتهم: الإيثار، وهو أحد أركان بيعة الشاعر صالح حياوي لهم حين يقول:

أبدا أظل مـــع التقاة، مع الدعـــاة العاملين

الناشـــرين لواء أحمد عاليا فـــي العالمين

المنصفين المؤثرين علـــى النفوس الآخرين

معهم أظل، مع التقاة، مع الدعاة المســـلمين[2]

ومن صفاتهم: بذل النصح، فأحدهم: «صالح يعاونك في دين الله، وينصحك في الله»[3].

ويجمع كل هذه الصفات: النفع في الدين فإنها الكلمة الجامعة المانعة، والمادة الموجزة في قانون التآخي، يضعها زين العابدين علي بن الحسين بن علي ﷺ، فيقول: «إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه»[4].

فشأن كل داعية ناشئ أن يرتاد لنفسه المجالس التي يزيد فيها أيمانه وعلمه، وأن يقصد المجالس التي تنفع دينه، ولا يعرف مجالس اللغو واللهو وقتل الفراغ.

وشرح ذلك إقبال بشطر حاسم، يريد لنا ألا نطيل القول بعده، فقال يدعو الله عز وجل:

هب نجيا يـــا ولـــي النعمة محرمًـــا يدرك ما فـــي فطرتي

هـــب نجيـــا لقِنـــا ذا جنة ليـــس بالدنيا له مـــن صلة[5]

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٧٦).
(٢) مجلة التربية الإسلامية ببغداد (٧/ ٥٥).
(٣) علم القلوب، ص ٣٨.
(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر (٣/ ٣٩٦).
(٥) ديوان الأسرار والرموز، ص٧١.

فهذا جماع القول: إن صاحب الداعية المسلم: داعية آخر ليس بالدنيا له من صلة، صلته بالآخرة، وشوقه إلى الجنة.

بينه وبين الدنيا انقطاع وجفاء.

إن تحريت عنه وجدته.

إنه هو صاحبك.

آخه، وأحببه، واصحبه، وأعطه مثل الذي يعطيك، وإلا فإنك أنت العاجز، فإنه كان يقال: «أعجز الناس من فرط في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم»[1].

فاطلب الإخوان، ترفع عنك صفة العجز هدانا الله وإياك.

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ١).

التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. الأخوة شعار أمتنا[1]

التسبيح في دقائق الأسحار الغالية، والتعامل الأخوي الإيماني: ركيزتان متلازمتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة، وعينان نضاختان، تسكبان خيرًا للدعاة لا ينضب.

«إنهما ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم، فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه»[2].

التقوى أولًا:

وإنما التسبيح عنوان الإيمان وإسلام النفس لله تعالى، والإيمان عنوان التصور الموزون، وضمانة الثبات أمام أخطار الطريق.. «ركيزة الإيمان والتقوى أولًا.. التقوى التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل..

التقوى الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عِمْرَان:١٠٢].

اتقوا الله، كما يحق له أن يُتقى، وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهدًا في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها. وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق، وجدت له أشواق. وكلما اقترب بتقواه من الله، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما

(١) مجلة «المجتمع»، العدد (١٣٥)، ٢٦ ذي الحجة ١٣٩٢هـ/ ٣٠ يناير ١٩٧٣م، ص٢٦.
(٢) الظلال.

بلغ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام!

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عِمْرَان:١٠٢].

والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه، فمن أراد ألا يموت إلا مسلمًا فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلمًا، وأن يكون في كل لحظة مسلمًا. وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع: الاستسلام، الاستسلام لله، طاعة له، واتباعًا لمنهجه، واحتكامًا إلى كتابه. وهو المعنى الذي تقرره سورة آل عمران كلها في كل موضع منها.

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق وجودها وتؤدي دورها، إذ إنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعًا جاهليًا، ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة، إنما تكون هناك مناهج جاهلية، ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية، إنما تكون القيادة للجاهلية»[1].

لا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر، فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي، فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل، ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر، وللفضيلة والرذيلة، وللمعروف والمنكر، يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال.

وهذا ما يحققه الإيمان، بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه، وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون.. ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية، ومن الباعث على إرضاء الله وتوقي غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد، ومن سلطان الله في الضمائر، وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك.

(١) المرجع السابق.

ثم لا بد من الإيمان أيضًا ليملك الدعاة إلى الخير، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، أن يمضوا في هذا الطريق الشاق، ويحتملوا تكاليفه، وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع.. وزادهم هو الإيمان، وعدتهم هي الإيمان، وسندهم هو الله.. وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد، وكل عدة سوى عدة الإيمان تفل، وكل سند غير سند الله ينهار»[1].

ويحدثنا إقبال عما فعله هذا الإيمان من توحيد التصور الذي انتبه إليه سيد قطب فيقول:

وُحِّد الـــرأي لنـــا والفكرة كســـهام جمعتهـــا جعبـــة

نحن فكـــر وخيـــال واحد ورجـــاء ومـــآل واحـــد[2]

فهذا أقصى ما يكون من الاتحاد، بأدنى ما يكون من الوسائل، فالرؤية واحدة، والفكر والخيال واحد، والرجاء واحد، والمصير واحد، كل ذلك يعطيه الإيمان، وما أسهل تناوش من ملك القلب لهذا الإيمان البسيط، ذي الأعطيات الثمينة.

ونثني بالأخوة:

«أما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة.. الأخوة في الله، على منهج الله، لتحقيق منهج الله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عِمۡرَان:١٠٣].

(١) المرجع السابق.

(٢) ديوان الأسرار والرموز، ص٨٩.

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام.. من الركيزة الأولى.. أساسها الاعتصام بحبل الله -أي عهده ونهجه ودينه- وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، وعلى أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة!

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾؛ هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائمًا»[1].

«وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى، في المدينة، على هاتين الركيزتين.. على الإيمان بالله: ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله، سبحانه، وتمثل صفاته في الضمائر، وتقواه ومراقبته، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال.

وعلى الحب. الحب الفياض الرائق، والود. الود العذب الجميل، والتكافل. التكافل الجاد العميق.. وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغًا، لولا أنه وقع، لعُد من أحلام الحالمين!

وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة! وهي قصة وقعت في هذه الأرض، ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان!

وعلى مثل ذلك الإيمان، ومثل هذه الأخوة، يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان»[2].

ومن هنا كانت هذه العودة إلى محاولة تأكيد معنى الأخوة كجزء من إحياء فقه الدعوة، فإن الأخوة شرعة دعوتنا وشعارها واسمها، وميثاقها الذي واثقتنا به، وكتابها

(١) الظلال (٤/ ٢٣)
(٢) المرجع السابق (٤/ ٢٨)

الذي كتبته على نفسها، وما زالت تأتي دعوتنا المباركة بصائر جديدة من تجاربها المتكررة تسرع بها إلى ابتغاء كل وسيلة إلى هذه الفضيلة، وتجميع أنصارها إلى الله على التحابب، والتكافل، والتسامح.

ومكملات هذه الرواسي الشامخات، وكمالها أن ترى من بعد وحدة الرؤية والفكر والخيال والرجاء والمصير: وحدة القلب والروح، بل ووحدة اللفظ أيضًا، فلا تكون هناك إلا صيحات واحدة، بحروف متقاربة، تعبر عن مفهوم واحد، كما أراد إقبال حين يقول:

نحن من نعمائـــــه حلف إخاء قلبنا والروح واللفظ ســـــواء[1]

فلم يقنع بوحدة القلب، حتى توحدت الألفاظ.

عقد الأخوة:

ويظل هذا الاتحاد يتنامى حتى يكون عقدًا واجب الوفاء، فقد تكلم ابن تيمية عن «عقد الأخوة» هذا، وبين أن الحقوق التي ينشئها إذا كانت من جنس ما أقره النبي ﷺ في أحاديثه لكل مؤمن على المؤمنين فإنما هي: «حقوق واجبة بنفس الإيمان، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله، وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة»[2].

فيأتي العقد يؤكدها إذن، ولم يحصل خلاف إلا في التوارث، عند عدم وجود القرابة، كما كان الأنصار والمهاجرون يتوارثون بالتآخي الذي أقره النبي ﷺ بينهم أول مقدمه المدينة، فقد قال أكثر الفقهاء بنسخ ذلك، وأجازه أبو حنيفة وأحمد بن حنبل في

(١) ديوان الأسرار والرموز، ص٨٩.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١١/ ١٠١).

إحدى الروايتين عنه.

إن هذا العقد الأخوي يزيد الواجب الإيماني ثبوتًا، وما أراه إلا كبيعة سلمة بن الأكوع الثانية ﷺ، تؤكد بيعته الأولى حين كانتا في ساعة واحدة يوم الحديبية تحت الشجرة، كما جاء عنه في صحيح البخاري في قوله: «بايعنا النبي ﷺ تحت الشجرة، فقال لي: يا سلمة: ألا تبايع؟ قلت: يا رسول الله قد بايعت في الأول. قال: وفي الثاني»[1].

فكذلك المسلمون: أوجب الإسلام على بعضهم البعض حقوقًا، ويتبايعون بعقد أخوة في الثاني، زيادة خير، وابتغاء توثق وعنصر تذكير، لتنشأ الجماعة المؤتلفة المتماسكة المستحكمة التي وصفها إقبال ﷺ في رموزه حين يقول:

كل فـــرد بأخيـــه ائتلفـــا مثل در فـــي ســـموط ألفا

لفَّهم فـــي عيشـــهم معترك كل فـــرد بأخيـــه ممســـك

من جـــذاب تتوالـــى الأنجم كوكب من كوكب مســـتحكم[2]

وهكذا، فإنه ليس من عمل للداعية المسلم اليوم أثمن من غدوة يَهَب فيها لدعوته، بفضل الله، ناشئًا يغمس نفسه فيؤازره، فيستغلظ، فيستوي على عقد الأخوة، يعجب الدعاة، ويغيظ به الكفار.

آفات المجالس:

وهذا الانغماس يؤدي إلى الاجتماع والمجالسة بالتالي، ولذلك وجب التعرف على سيماء المجالسة النافعة، والابتعاد عن بعض المعايب التي تلحقها. ولابن القيم كلام موجز شامل في ذلك، يدل على تجربة داعية من أهل الوعي، شخَّص فيه أخطار

(١) صحيح البخاري (٩/ ٩٨).

(٢) ديوان الأسرار والرموز، ص٨٤.

المجالس فقال: «الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها: تَزَيُّن بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود»[1].

والذي يؤسف له أن مخاوف ابن القيم هذه تحولت إلى واقع تحياه بعض مجالس الدعاة الحالية، ووجَد التزين وسيلةً ليظهر فينا، وزادت الخلطة بين الدعاة عن مقدارها الذي تحتاجه الدعوة، وتحولت إلى شبه بطالة وشهوة تلهي عن مقصود تجمعنا في متابعة العمل مع الناشئة والجدد، وفي الانطلاق خلال المجتمع العام لتبليغه كلمة الإسلام.

والمرء يعجب من صغيرة غيره!

ولو أن عادتَي التزين والبطالة تقفان عند حدهما لعولج أمرهما بمجرد استنهاض وتذكير خفيفين، ولكنَّ هاتين الآفتين تتعديان في آثارهما، ويتولد عن اجتماعهما خلق الضيق عن العفو، بينما يشير استقراء الحياة الجماعية إلى ضرورة خلق التسامح والمرونة لمن يحياها.

(١) الفوائد لابن القيم (٥١/ ٥١).

وقد يظن البعض أن مثل هذا الكلام أقرب إلى مواعظ العامة منه إلى بحوث فقه الدعوة، ولكن من يعاني إدارة العمل اليومي للدعوة الإسلامية يدرك ضرورته، ويعرف كم من الترف، بل والخطر، يكمن فيمن يتعالى عن مثل هذه المواعظ ليهمس بمعاني فنون التخطيط والعمل السياسي في آذان من تضيق صدور بعضهم عن معاني التسامح والعفو عن صاحب الزلة والخطأ، ولابد من اقتران التوعية العملية للداعية المسلم بالتربية الخلقية الإيمانية، ولابد من سيرهما معًا.

وهذا هو مصدر إصرار الأقدمين والمعاصرين على التوصية بسعة الصدر، والتحابب الأخوي.

يقدمهم الفضيل بن عياض فيقول: «من طلب أخًا بلا عيب صار بلا أخ»[1].

فضع في حسابك عندما تعقد «عقد الأخوة» أن من تتعاقد معه غير معصوم.

ويتلوه رويم البغدادي الزاهد فيقول: «الفتوة: أن تعذر إخوانك في زللهم، ولا تعاملهم بما يحوجك إلى الاعتذار إليهم»[2].

ويأخذ الشعراء دورهم في التوصية، فيقول مشرقيهم:

لا لوم في خطأ ولا تثريبًا[3].

ويقول مغربيهم: سامح أخاك إذا أتاك بزلة[4].

ويقول ثالثهم:

إذا ما بـــــدت من صاحب لك زلة فكن أنت محتـــــالًا لزلته عذرًا

(١) طبقات الشعراني (١/ ٥٩).
(٢) تاريخ بغداد (٨/ ٤٣١).
(٣) شطر للبحتري في ديوانه (١/ ١٨٩).
(٤) نفح الطيب (٥/ ٥٠).

أحِبُّ الفتى ينفي الفواحش سمعُه كأن بـــــه عن كل فاحشـــــة وقرًا

سليم دواعي الصدر لا باسط أذى ولا مانع خيـــــرًا ولا قائل هجرًا[1]

ولكن كم أرتنا الأيام من قال هجرًا، وتراه إذا ما دعوته إلى اللين يعبس ويبسر، ويذهب مغاضبًا، كأنما تدعوه إلى شيء نكر، وإنما هي سذاجة نفسه نريد أن نقيه إياها، وإنما هو تربص العدو نريد أن نبعده عنه، بما عرفنا عن عدونا من قعوده للدعاة صراط أخوتهم المستقيم.

وهاؤم تفحصوا تاريخنا، كم من منتصر لنفسه استعجل فخاصم، فما استطاع من قيام وما كان منتصرًا، ولفته دوامة العيش المعقد فضاع في خضمها منسيًا، يأكل ويشرب، وليس له من بعد ذلك نوع وجود.

إن جموع هؤلاء المغاضبين إنما تأخرت وضاعت في تيار الدنيويات بما كانت بموازين الأخوة تخل، ولو أنهم استقاموا على الطريقة الأولى وراغوا إلى فقه الأخوة الموروث، لما مسهم اللغوب والضياع.

إن الفقه الذي ورثناه عن التابعي بكر بن عبد الله المزني ينص على أنك: «إذا وجدت من إخوانك جفاء فذلك لذنب أحدثته، فتب إلى الله تعالى، وإذا وجدت منهم زيادة محبة فذلك لطاعة أحدثتها فاشكر الله تعالى»[2].

فاتهم نفسك إذا عوملت بجفاء أو رأيت نوع تقصير في حقك الذي تظنه قبل أن تبادر بالهجوم.

ومثل هذا ما ورثناه عن أبي سعيد الخراز، فإنه ينص على أن: «من أدب المريد وعلامة صدق إرادته: أن يكون الغالب عليه: الرقة والشفقة والتلطف، والبذل

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص١٥٨.
(٢) طبقات الشعراني (١/ ٣١).

واحتمال المكاره كلها عن عبيده وعن خلقه، حتى يكون لعبيده أرض يسعون عليها، ويكون للشيخ كالابن البار، وللصبي كالأب الشفيق، ويكون مع جميع الخلق على هذا، يتشكى بشكواهم، ويغتم لمصايبهم، ويصبر على أذاهم فإن هذا مراد الله تعالى من المريدين الصادقين: أن يعطفوا على الخلق من حيث عطف الله تعالى عليهم، ويتأدبوا بآداب الأنبياء والصديقين، وآداب أوليائه وأحبابه»[1].

فهذان نصان قديمان من فقه الأخوة الإيمانية، يصوغهما عبد الوهاب عزام في العصر الحديث في بيتين جامعين من مثانيه ويقول:

في فؤادي بحـــــران: ملح وعذب وبه صرصـــــر وريـــــح رخاء

فهو مر على البغـــــاة عصوف وهو عذب لصاحبـــــي وصفاء[2]

فأنت مطالب أيها الداعية المسلم أن تملأ قلبك من مشاعر الأخوة في الله لإخوان العقيدة بقدر ما يجب أن تضع فيه من مقت أهل الباطل البغاة.

(١) اللمع للطوسي، ص٢٠٦.
(٢) ديوان المثاني، ص ٣٨.

فهرس الموضوعات

إهداء ٥
المقدمة ٧
ذر غير الله ١١
الظبي الجفول ١٩
أهمية.. المراقبة والمحاسبة: ٢٤
كسوف.. لا غروب ٢٧
لا.. يا قيود الأرض ٣٦
استعلاء في الطريق العالي ٤٦
عزة هي الجناح: ٥٠
العبد الحر! ٦٣
الأبرار الساكتون الهالكون ٧٢
وجوب الدعوة إلى الله ٨٠
الدعوة والدعاة في اللغة والاشتقاق: ٨٠
الدعوة وظيفة الرسل وأتباعهم: ٨٢
معنى الكفاية ورد أوهام القاعدين الصامتين: ٨٧
وجوب الدعوة إلى الله: ٨٨
معنى اختصاص الدعوة بالعلماء ٩٠
لا يتم الاهتداء إلا بالأمر والنهي: ٩٢
العابدون اللاعبون ٩٩

من يقاتل العدو إذا اعتزلتم؟ ١٠٠
ابن المبارك يرث ابن مسعود: ١٠١
الشيخ الكيلاني.. على الدرب: ١٠٣
ابن الجوزي يصف حالة الشجعان: ١٠٦
دع بيتك وراء ظهرك: ١٠٧
الداعية رحالة: ١٠٨
غطة من جهبذ ١١٠
المؤمن الأخرس متأخر: ١١٠
نصل الماضي بالآتي: ١١٢
الإمام أحمد يباشر التجميع: ١١٤
وغطك الدعاة: ١١٥
فقه الوزير الداعية: ١١٦
جهاد الحجة ١١٨
في سورة العصر كفاية: ١١٩
الداعية مجاهد مهاجر: ١٢١
إلحاح الكيلاني في بيان وجوب الدعوة : ١٢٢
فهذا نموذج الدعاة: ١٢٤
أصول نظرية العمل الجماعي عند السلف ١٢٥
كن من رجال العامة: ١٢٦
ابن تيمية يسوغ العمل الجماعي: ١٢٨
لا يشترط إذن السلطة: ١٣٢
الصياغة الحديثة لنظرية العمل الجماعي ١٣٥
مبادرة عاكستها الظروف: ١٣٧

تجدد الذهول: ١٣٨
ها أنا.. يقولها حسن البنا: ١٤١
الرواد يصفون الطريق: ١٤٦
راية الخير ١٥١
جاذبية الدعاة: ١٥٢
ارفع للخير راية: ١٥٣
إنما تقدسنا الدعوة: ١٥٦
معادلة.. يفهمها الرجال! ١٥٩
إنكار المنكر دليل الفراسة: ١٦٠
إنها طاقة كالطاقات: ١٦١
نبدأ بالمنكر الأكبر: ١٦٤
هو شأن الرجال! ١٦٦
الميثاق ١٧٠
صراحة الإسلام لا استفزاز الظروف: ١٧١
البيعة القديمة والحديثة: ١٧٢
المودودي يشرح المراحل: ١٧٧
أنس الطريق: ١٧٩
مفهوم التجمع الحركي ومبرراته عند سيد قطب (القسم الأول): ١٨٠
تجمُّع الصفوة المفاصلة: ١٨١
المسلم بشير نذير: ١٨٣
جاء الإسلام ليحكم: ١٨٣
صفة الجاهلية: ١٨٥
الجاهليَّة منظمة: ١٨٨

لا بدَّ من إسلام منظَّم: ١٨٩
مفهوم التجمع الحركي ومبرراته عند سيد قطب (القسم الثاني): ١٩٢
إخلاص وهجرة: ١٩٢
وجوب الولاء لقيادة إسلامية: ١٩٦
بالتجمع والولاء تتكون الأمة الإسلامية: ١٩٧
التجمع بيئة ضرورية للمسلم: ١٩٧
هذا أو الفساد: ١٩٨
المشَمِّرون ٢٠١
الرسول المشمِّر: ٢٠١
لا تلتفت للوراء: ٢٠٢
لا بد من بينونة كبرى! ٢٠٤
فلا ينزوي: ٢٠٦
الاتباع جماع الخير: ٢٠٩
لا نغبن أنفسنا ٢١١
صلابة النية.. وصلاحها: ٢١١
عقيدتنا محضة.. ترفض الامتزاج: ٢١٣
استعلاء في التوكل أيضاً: ٢١٥
طبائع الدعاة: ٢١٦
اتزان التوسع ٢٢١
ليس علينا غير البلاغ: ٢٢٢
نريد أن نكون أئمة: ٢٢٣
سعة التجميع تتناسب مع طاقة التربية: ٢٢٥
شباب يحفظون أمر الإسلام ٢٢٨

دموع.. على الربوع الخالية: ٢٢٩
في الشباب ضمانة: ٢٣٠
تخرج الحي من الميت: ٢٣٣
وإنما هو التوفيق: ٢٣٤
استغلال الظاهرة التربوية ٢٣٦
ظاهرة التأثير التربوي: ٢٣٦
عوامل القوة والضعف في التأثير التربوي: ٢٤٠
اختراعات تربوية: ٢٤٢
اختلاط التربيات: ٢٤٣
خضوع التخطيط الحركي للحقيقة التربوية: ٢٤٦
الانتقاء يقي المصارع ٢٤٨
صعود الثقات رأس الوقاية: ٢٤٩
دقة مركز القدوة: ٢٥١
اختبر عليم اللسان! ٢٥٤
البدعة ضعف أيضاً: ٢٥٦
استر سمعة الإسلام: ٢٥٧
تركيز.. لا تكاثر! ٢٥٩
ألهاكم التكاثر بالأمس.. فاتزنوا غداً! ٢٦٠
نجاح يتأخر.. لا جهد يهدر: ٢٦٥
الانتشار المتأني ٢٦٧
التطوير ينطلق من المعاناة: ٢٦٨
التركيز على مصنع الثقات! ٢٦٩
أهمية الوعي الحركي في التعجيل: ٢٧٠

الاستدراك بالتأليف في فقه الدعوة: ٢٧١
الانتظار ٢٧٢
الكتاب والبأس الشديد! ٢٧٤
ارتقاء المدارج مع السالكين.. لا الطفرة: ٢٧٥
تسبيح.. يشد الملك! ٢٧٧
بها المحراب: ٢٧٩
أجب نبيك ﷺ: ٢٨٣
حرص الأولين على الصلاة: ٢٨٥
دعوة تتعلم من داود: ٢٨٦
التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. الدقائق الغالية ٢٨٧
طول الحياة نسبي: ٢٨٨
رجال مدرسة الليل: ٢٩٠
أتسبقك الحمامة؟ ٢٩٣
التربية الحركية للقاعدة الصلبة إنما الإسلام يحيا لا القبيلة ٢٩٥
التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. ميزان التصاحب ٣٠٦
التربية الحركية للقاعدة الصلبة.. الأخوة شعار أمتنا ٣١١
التقوى أولًا: ٣١١
ونثني بالأخوة: ٣١٣
عقد الأخوة: ٣١٥
آفات المجالس: ٣١٦
والمرء يعجب من صغيرة غيره! ٣١٧
فهرس الموضوعات ٣٢١


المجتمع
مجلة المسلمين في أنحاء العالم
AR WWW.MUGTAMA.COM
EN WWW.EN.MUGTAMA.COM